محمد يوسف الجندى



مسيرة حياتى

حتى ١٩٦٤

دار الثقافة الجديدة

محاميا شابا فى السادسة والعشرين من عمره، فقد تزعم الثورة فى زفتى. وفى أثناء الثورة أعلنت اللجنة استقلال زفتى وأخذت تمارس مهام الحكم والإدارة.

ولدت فى زفتى فى ١٢ يناير ١٩٢٦ وبعد بضعة شهور انتقلت أسرتنا إلى القاهرة. وكان والدى محاميا رشح نفسه لمجلس النواب فى أول انتخابات عام ١٩٢٤ عن حزب الوفد وانتخب نائبا. واقتضى عمله بعد ذلك الانتقال إلى القاهرة.

وسكنا فى حى روض الفرج، ولا أذكر هذه الفترة، ولكننى أتذكر شقتنا التى انتقلنا إليها بعد ذلك فى حدائق القبة وأذكر المظاهرات ضد حكومة صدقى عام ١٩٣٠ التي كنت أرى جانبا منها من شرفة المنزل، والروايات العديدة عن الاعتقالات فى الشوارع ووسائل النقل المختلفة. وكنت وقتها فى الرابعة من عمرى. ولكن هذه الأحداث تركت فىّ أثرا عميقا. وكنت أتعاطف مع هذه المظاهرات ومع أولئك المعتقلين.

ومازلت أذكر تلك الأحداث مثلها مثل الأحداث الأخرى الشخصية والعائلية.

وكنا ستة من الأبناء. أكبرنا أحمد الذى يكبرنى بعامين بالتمام. وولد فى يناير أيضا ١٤ يناير ١٩٢٤ ولهذا كنا نحتفل بعيد ميلادنا فى يوم واحد هو ١٣ يناير، وبعدى تأتى بنتان هما عايدة وسعاد ثم ولدان هما حسن الذى ولد عام ١٩٣٠ ثم صلاح الذى ولد فى أواخر عام ١٩٣١ . وكنت أنا وأحمد الوحيدين اللذين ولدا فى زفتى. وأحمد أمضى سنتين وبضعة شهور فى زفتى ولهذا يذكر بعض أحداث طفولته هناك. ومنها يوم وفاة جدى (والد أبى) أما باقى الأخوات والإخوة فقد ولدوا جميعا بالقاهرة. وجاءوا تباعا فجاءت أختى عايدة بعدى بسنة وشهر. وتروى خالاتى أن ذلك سبب انقطاع رضاعتى الطبيعية التى لم تدم فترة كافية. ولهذا نشأت ضعيف البنية. ومرضت فى طفولتى بالالتهاب الرئوى والنزلة المعوية وارتفعت حرارتى ارتفاعا كبيرا وفقدوا الأمل فى بقائى على قيد الحياة، ويروون أن طبيبا اسمه الدكتور سيد شكري جاء ووضعنى فى الماء والثلج فعادت إلى الحياة وشفيت من مرضى. هذه روايات أسمعها ولكننى لا أذكر منها شيئا.

وتنحدر أمى من قرية تتبع مركز زفتى اسمها «الدغايدة» واسم والدتى زكية محمد زهدى. وكان أبوها طبيبا اسمه محمد زهدى من الحزب الوطنى الذى كان يرأسه مصطفى كامل. وقد توفى فى سن مبكرة قبل مولدى. فكنت أسمع عنه كثيرا ولكنى لم أره.

وكانت أمى تصغر أبى بحوالى سبع سنوات تزوجا فى زفتى وعاشا هناك فترة انتقلا بعدها إلى القاهرة . وقد ولدتنا أمنا نحن الستة فى فترة سبع سنوات. وكان هناك ابن سابع ولكنه لم تكتب له الحياة. كانت مرهقة من كثرة الحمل والولادة وقد أثر ذلك على صحتها، خصوصا أنها لم تكن تقوم بأى عمل آخر غير البقاء بالمنزل والإشراف على تربية أولادها ومراعاة احتياجات زوجها وكانت ربة بيت تقليدية لا تخرج إلا برفقة زوجها أو أحد أشقائها.

حكى لى أحد الأصدقاء مرة أنه مارس الحب مع احدى فتيات بيجال ثم اراد أن يستخدم «مشطها» لتمشيط شعره فرفضت وقالت أنها لا تعطى مشطها لأحد. فتعجب كيف ترفض اعطاء مشطها رغم أنها أعطته جسدها. وكانت المومسات اللاتي يمتلئ بهن شارع بيجال الرئيسى يقفن على الطريق لاصطياد الرجال واقتيادهم إلى أحد الفنادق التى يمتلئ بها حى بيجال والتى تؤجر بالليلة أو على الأصح بالساعة للقيام بتلك العملية. وكان هناك اتفاق على ذلك بين المومسات وأصحاب الفنادق.

ورغم أن هذه العماية كانت تتم بشكل علنى تماما، إلا أنها غير شرعية واعتاد البوليس الفرنسى أن يطارد المومسات ويقبض عليهن فيمضين ليلة فى قسم البوليس ويفرج عنهن ثانية لمواصلة ممارسة أعمالهن. وكن يحذرن بعضهن بعضا من مرور دوريات التفتيش.

ومع ذلك كانت هذه العملية شبه شرعية وتتم أمام أعين الجميع.

وفى إحدى جولاتى فى شارع بيجال نادتنى احدى المومسات وعرضت على ممارسة الحب معها. فرفضت. فأصرت. وعندما أصررت على الرفض لم تتركنى حتى ذهبت معها. ووجدتها رقيقة معى للغاية. وتحاول أن تتكلم معى وأن تتعامل معى بعاطفة غريبة وأنا كعادتى صامت وخجول ولكنها كانت تحاول التغلب على ذلك. وتحاول أن تبقى معى أطول فترة. وعجبت لهذا التصرف من مومس. وترك فى ذلك انطباعا لا انساه. وذلك أن غيرها من المومسات يقمن بهذه العملية بشكل ميكانيكى وفى عجلة لانهائها وكسب الوقت لاصطياد الزبون التالى.

وقد حكت لى احداهن كيف أنها تضطر إلى هذا العمل لتطعم أطفالها.

وللمومسات فى باريس نقابة تدافع عن حقوقهن. وكان للمومسات دور ثورى فى المناسبات الهامة فى التاريخ الفرنسى.

***

كنت أترجم بعض الكتب وبعض المقالات والموضوعات التى تظهر فى جريدة «الاماونيتيه» التى كنت أقرأها بانتظام ولا أقرأ غيرها. كتبت مرة مقالا للملايين نشر فيها عن مهرجان «الأماونيتيه». وقال لى حسن فؤاد بعدها أنه كان جيدا.

ظلت علاقتى بشريف باردة. وقد حضر ابراهيم عبد الحليم مرة إلى باريس ونقلت له الحديث الذى دار بينى وبين كمال قبل سفرى. ولكنه لم يتحمس له وكان أكثر قبولا لدور شريف. واستمر هذا الوضع إلى أن جاء كورييل إلى باريس واستطاع أن يجمعنا، وبدأت أشعر من جديد أن لى دورا وعادت لى إلى حد ما المشاعر التى كنت أحس بها فى أيام العمل

والنضال الحزبى فى مصر قبل الاعتقال.

ولكن لم يستمر ذلك طويلا. فكانت قد بدأت فى القناة حركة الفدائيين للنضال المسلح ضد الاستعمار البريطانى، وأصبحت أخبار هذا النضال هي موضوع المانشيتات الرئيسية فى الصحف العالمية بما فيها الصحف الفرنسية. وأصبحت هذه الأخبار تثير حماس وتعاطف الشعوب العربية والعرب عموما فى كل مكان. وكانت فرنسا تضم عددا كبيرا من الجزائريين والمغاربة والتونسيين وتجمعهم روابط مختلفة. وقررت إحدى هذه الروابط عقد اجتماع فى احدى الصالات الكبيرة للتضامن مع نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى. وأصدر البوليس الفرنسى أمرا بمنع هذا الاجتماع. وحاصر البوليس محطات المترو من «محطة اتوال» عند قوس النصر حتى محطة «باسى». ووقف البوليس عند مخارج كل محطة يستوقف كل من كان لونه يميل إلى السمرة ويبدو عليه أنه من ابناء المغرب فى شمال افريقيا ويسأله عن أوراق اثبات الشخصية. ونزلت من المترو مع أحد الاصدقاء فى محطة «تروكاديرو». وعند الخروج وجدنا البوليس يحاصر المحطة وسألنا عن تحقيق الشخصية. ابرز صديقى هويته فتركوه. أما أنا فلم يكن معى تحقيق شخصية فأركبونى البوكس.

وكان معى فى تلك اللحظة سندويتش أقضمه، وركبت به إلى البوكس فقالوا لى ساخرين «شهية طيبة». كان معى العديد من الجزائرين والتونسيين والمغربيين، وساقونا جميعا إلى مركز البوليس.

ووجدت فى فناء المبنى المئات من أبناء شمال أفريقيا، ويسميهم الفرنسيون «العرب» وهو تعبير يمتزج عند بعضهم بنوع من العنصرية والاحتقار.

وفى هذه الفترة كانت فرنسا تستعمر هذه البلاد وتستغلها وتحاول فرنستها وكان الكثير من الفرنسيين يعيشون فى هذه البلاد الجميلة وكذلك كان «العرب» من شمال افريقيا يتمتعون بالجنسية الفرنسية ويناضلون من أجل استقلالهم ويعاملون على أنهم من مستوى أدنى.

ويعيش «عرب» شمال افريقيا فى فرنسا فى مستوى أدنى من الفرنسيين، وتنظم ضدهم حملات دعاية وكراهية، وتضخم أى أخطاء أو جرائم ترتكب من بعض الأفراد من بينهم.

بقيت فى مركز البوليس أربعة أيام. يحاول رجال التحقيق من المباحث انتزاع أقوال منى، أما أنا فقد التزمت الصمت تماما. والسبب فى ذلك نصيحة قدمت لى ولشريف حتاتة قبل اعتقالى بعدم التحدث أمام البوليس أو النيابة، والمطالبة بالعرض فورا على قاضى التحقيق. وبخلاف الوضع فى مصر فالنيابة فى فرنسا هى سلطة اتهام، أما التحقيق فيقوم به قاضى التحقيق. والسبب فى هذه النصيحة التى قدمها لنا ممثلو هيئة لها علاقة بالحزب الشيوعى الفرنسى واسمها «المعونة الشعبية» " Secours Populeur " أنه يمكن للبوليس أو النيابة بعد

سماع أقوالى أن يطردونى من فرنسا أو يسلمونى إلى مصر دون العرض على قاضى التحقيق. أما قاضى التحقيق فهو ملزم بمتابعة الاجراءات القانونية وتقديمى إلى المحاكمة.

وبدأ رجال البوليس يسألونى عن اسمى وأوراقى ومتى جئت إلى فرنسا وأسباب مجيئى. فكان جوابى الوحيد هو «لن أتكلم إلا أمام قاضى التحقيق» واستفز أحد المحققين من البوليس فلكمنى فى بطنى وقال لى: «ماذا تظن.. انت هنا فى فرنسا» وكنت أظن أن هذه الأساليب لا تستخدم فى فرنسا. فازددت اصرارا على رفض الكلام. وأخذونى فى سيارة وجالوا بى فى عدة أحياء فى باريس لأدلهم على سكنى. ولكننى لم أقل شيئا. وكانت معى بعض الصحف المصرية (الأهرام وغيره) وجاءوا بشخص يعرف العربية. وحاول بغباء شديد أن يجد فى هذه الصحف أدلة ضدى. وكذلك وجدوا معى جريدة الأماونيتيه فحاول أيضا أن يعتبرها دليلا ضدى. ولكننى التزمت الصمت ورفضت الحديث إلا أمام قاضى التحقيق.

وبعد أربعة أيام حولت إلى قاضى التحقيق وأمام مكتبه وجدت المحامى امبلار الذى وكلته هيئة «المعونة الشعبية» للدفاع عنى وذلك بجهود زملائنا فى باريس. أبلغنى تحية الزملاء والأسرة، وقال: إن خطته أن أبقى فى السجن إلى أن تنجح مساعى الحزب الشيوعى الفرنسى فى ذهابى إلى أحد البلاد كلاجئ سياسى. ولهذا فهو يرى أن ليس من المصلحة الاسراع فى انهاء التحقيق والتقدم للمحاكمة لأنه يتوقع أن تصدر المحكمة ضدى حكما بالغرامة أو بالحبس عدة أيام وعند الافراج عنى سأقع فى يد البوليس الذى سيصدر ضدى أمرا بالطرد أو التسليم إلى الحكومة المصرية. وقال لى أن المساعى تتركز الآن على أذهب إلى فيينا للعمل فى اتحاد النقابات العالمى. وأن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت.

ودخلنا إلى قاضى التحقيق فتكلمت أمامه ورويت له القصة كلها. وهو أننى هارب من مصر من حكم بالسجن بخمس سنوات فى قضية رأى «قضية شيوعية». ولأننى لم أستطع استخراج جواز سفر من مصر، فقد دخلت فرنسا خلسة وبدون أوراق. وطلبت منحى حق اللجوء السياسى فى فرنسا. وشكوت له حادثة اعتداء أحد رجال البوليس على بالضرب وهو يحقق معى .. وقابل القاضى ذلك باستخفاف، وقال لو كنت ابن سفير مثلا لما اعتدوا عليك. ولم يعر ذلك اهتماما. وأمر بحبسى إلى حين المحاكمة.

ونقلت إلى سجن يسمى (لاسانتى Le Santé) أى «الصحة». وكانت أول خبرة لى بسجون فرنسا وسكنت مع مجرمى القانون العام. وكانت الزنزانة تسع ثلاثة أفراد. وليس بها أى سرير وإنما مراتب على الأرض ودورة المياه داخل الزنزانة التى ننام فيها وليس بها أى ساتر. وهى تشمل مرحاضا وفوقه حنفية مياه. وكانت الزنزانة تغلق طول الوقت إلا نصف ساعة تفتح للنزهة فى زنازين فى ردهة السجن، ولا تختلف عن الزنزانة إلا أنها مكشوفة . ونخرج للحمام مرة كل اسبوعين مع نزلاء الزنازين الأخرى.

ولا يتميز السجن هنا عن السجن فى مصر إلا فى أن الطعام أفضل. فكانوا يقدمون لنا فى الصباح قهوة باللبن. وفى الظهر حساء بالخضروات وفى المساء لحم. وكان من حقنا أن نشترى ما نريده من كانتين السجن. وكان السجن يضم مكتبة نستطيع الاستعارة منها وكنا نخرج من الزنزانة أحيانا للحلاقة أو للزيارة. وكان المحامى أمبلار يحضر أحيانا لزيارتى ويطلعنى على المساعى التى تجرى للحصول على حق اللجوء السياسى فى أحد البلاد. وينقل لى تحيات زملائنا وأسرتى ويسألنى عن طلباتى ورغباتى.

وقد تنقل على فى زنزانتى أنواع مختلفة من المسجونين. ففى البداية كان معى سارق ومجرم كان متهما بتعذيب ابنه، بأن حبسه ومنع عنه الطعام. كان قوادا من حى بيجال سيئ الطباع. وقد رأيت أن أستفيد من وقتى فى السجن فطلبت كتبا لتعلم اللغة الروسية. فوصلنى جزءان من كتاب لتعليم الروسية. باللغة الفرنسية للمؤلفة بوتابوفا. وكنت استغل الوقت طوال فترة اضاءة النور للمذاكرة والدراسة وكان النور يفتح فى السابعة صباحا ويطفأ فى السابعة مساء. وكنت أقضى حاجتى قبل اضاءة النور وما أن يضاء النور حتى أعكف على الدراسة. وقد استفز ذلك صاحبنا السيئ الطباع. وسمعته يقول للسجين الآخر أننى مجنون. ولم أكن أريد أن أقيم معه أى علاقات. وقد افرج عنه بعد قليل ثم أفرج عن السارق وحل محله شخص من مرسيليا اتهم بالتجارة فى الحشيش ثم جاء شخص يبدو عليه الثراء اسمه مزراحى. وعندما عرف أننى شيوعى سألنى: مارأيك أننى أستطيع أن أوفر لك مالا وفيرا وفتاة جميلة إذا تركت الشيوعية. سمعت اقتراحاته ولم أرد عليه. وفى أحد الأيام خرج للتحقيق وعاد ليقول لى أن القاهرة تحترق. وأن هناك ثورة وكان هذا هو ما وصلنى يوم ٢٦ يناير عن أخبار حريق القاهرة الذى عرفته بعد خروجى بالتفصيل.

كان سجنى قد بدأ فى نهاية ديسمبر وامتد حتى مارس ولم تبدأ التدفئة إلا فى منتصف يناير وكان الجو شديد البرودة.

ومع مرور الوقت أصبحت أقدم نزيل فى الزنزانة. ووقعت من تاجر الحشيش من مرسيليا زجاجة حبر فى المرحاض فسدته. فجاء عمال السجن ولم يسألوا عمن فعل ذلك بل سألوا عن أقدم النزلاء وكنت أنا. فاستدعونى للتحقيق، قلت: إننى لم ألق زجاجة الحبر ولكنى لم أقل من الذى ألقاها. ولم يعترف السجين من مرسيليا بذلك. وكان المفروض أن أودع التأديب ولكنهم وجهوا لى إنذارا بعدم تكرار ذلك. وعرفت أن أقدم النزلاء فى الزنزانة هو المسئول عن الزنزانة وعن اخطاء باقى النزلاء.

وفى أحد الأيام جاءت خبيرة اجتماعية للتعرف على أحوال النزلاء ومشاكلهم. واستدعونى لمقابلتها. وسألتنى عن تهمتى فقلت لها أنى شيوعى وأنه حكم على بالسجن فى مصر بهذه التهمة، فقالت لى مكذبة ما معناه «العب غيرها. فمصر كلها شيوعية من القمة

إلى اخمص قدميها» . وكانت الصحف الفرنسية كلها تبرز فى صفحاتها الأولى أخبار الكفاح المسلح فى القنال وإلغاء حكومة النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦ والصدام مع قوات الاحتلال البريطانى. وكانت الصحف الموالية للاستعمار لا تفرق بين النضال ضد الاستعمار والشيوعية.

وبعد شهرين استدعيت للمحاكمة ولم تكن المساعى لسفرى إلى بلد آخر قد نجحت بعد فطلب المحامى امبلار التأجيل. وفى مداولته معهم قبل الجلسة تعجبت المحكمة وقالت له انه سيفرج عنى. فقال لهم أنه يخشى أن أقع فى أيدى البوليس فيطردونى. فقالوا: هذا يذكرنا بأيام الاحتلال الالمانى حيث كان المحامون يطلبون طلبات مماثلة حتى لايقع المتهمون فى أيدى الجستابو، فقال لهم امبلار هذا مع الفارق.

كانت فترة السجن فى فرنسا شديدة القسوة، أشد قسوة من السجون فى مصر لعدة أسباب.

١ - أننى لم أكن أعرف إلى أى شيء سينتهى هذا الحبس.

٢ - أننى كنت بعيدا عن الوطن.

٣ -كنت مع مجرمى القانون العام، وهم ليسوا بطيبة مجرمى القانون العام فى مصر والذين كانوا يحترموننا ويشملوننا برعايتهم ويقدمون لنا المساعدات حينما نكون معهم.

ولكن الشيء الايجابى الذى فعلته فى السجن هو أننى استطعت أن أقطع المرحلة الأولى من تعلم اللغة الروسية بدون معلم. وكان هو الأساس الذى استندت عليه بعد ذلك فى مواصلة دراسة اللغة الروسية. وأنهيت الجزءين من كتاب بوتابوفا الذى كنت أتعلم منه النطق نظريا دون أن اسمع اللغة. وقد ساعدتنى هذه الدراسة في أن أدخل الجامعة مباشرة فى قسم اللغة الروسية بالمدرسة العليا للغات الأجنبية فى بودابست وأن أدرس مع زملاء آخرين درسوا اللغة الروسية ثلاث سنوات فى المرحلة الثانوية.

وبعد ثلاثة أشهر لم تنجح المحاولات فى ذهابى إلى فيينا، ولكننى عرفت من المحامى امبلار أن المجر قبلت ذهابى إليها لاجئا سياسيا وأننى سأعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى.

وحددت جلسة المحاكمة. وكان الحرس يتهامسون حولى بأننى جاسوس. وجاءت المحكمة. لم يترافع امبلار واكتفى بالقول بأن موكلى حصل على حق اللجوء السياسى فى جمهورية المجر الشعبية. فابتسم القضاة وأصدروا حكمهم بالحبس ١٥ يوما لدخول البلاد بدون أوراق. وكنت قد أمضيت بالفعل ثلاثة أشهر. فأفرج عنى.

خرجت من السجن ، وبدأت إجراءات الإفراج عنى ونقلت إلى ادارة الشرطة وسار معى فى الطريق أحد المفرج عنهم الأتراك يجمع أعقاب السجائر من الطريق طوال سيرنا. وانهيت

اجراءات الافراج واصدروا امرا بطردى من الاراضى الفرنسية وأعطونى مهلة اسبوعا وأعطونى ميعادا آخر لتسلم جواز المرور لأخرج به.

وخرجت من ادارة الشرطة إلى الحرية. وكان زملائى قد حجزوا غرفة فى أحد الفنادق فى الحى اللاتينى. وأخذت فى ترتيب سفرى إلى بودابست. وذهبت إلى اتحاد الشباب الفرنسى الذين أعطونى تذكرة إلى بودابست. وسألنى أحد المسئولين الشباب هناك إن كان معى نقود مجرية فقلت: لا. فأعطانى بعض الفلسات القليلة.

وذهبت إلى إدارة الشرطة واستلمت جواز المرورLaisser passer، وكنت قد اتصلت تليفونيا بشريف حتاتة واتفقنا على اللقاء فى احدى صالات الشاى. وخرجت من إدارة الشرطة وذهبت إلى الموعد وكانت معه خطيبة أحد الاصدقاء الذين كنت أعرفهم من مصر وهو روبيرستون وزميل آخر وكان لقاء حارا، وجلسنا فى صالة الشاى نتحدث عن الذكريات وتجربتى فى السجن ومشاريعى المقبلة وتركتهم مودعا وقبلتهم وذهبت إلى الفندق، وبعدها بفترة اتصل بى يوسف حزان وقال لى أن شريف قبض عليه بعد ان انتهى لقاؤنا. وظهر أننى كنت مراقبا عند خروجى من ادارة الشرطة. وقد قبض البوليس على الثلاثة ولكنه أفرج عن خطيبة روبير وعن الزميل الآخر بعد أن قدموا أوراقهم. أما شريف فقد احتجزوه. عندما عرفت الخبر أصبت بإحباط شديد وانقلب الفرح بالافراج عنى إلى حزن واحساس بالبلادة الشديدة بحيث اننى ذهبت إلى الفندق ونمت فى حوالى الساعة الواحدة ظهرا ولم استيقظ الا فى صباح اليوم التالى.

وحدثنى حزان وقال لى أنه أصبح فى موقف حرج للغاية أمام المسئولين فى مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعى الفرنسى وأنه التقى بليون فاكس وايلى مينيون، وتعاملوا معه كمتهم. وهاجموه بشدة لهذا الاهمال. وظل يلازمنى الشعور بالإحباط بعد ذلك لفترة حتى بعد وصولى إلى بودابست. وقررت ألا ألتقى بأحد بعد ذلك فى باريس.

وسافرت. وكان على أن أغير الطائرة فى براغ. وكانت الطائرة إلى بودابست تقوم فى اليوم التالى. فأمضيت ليلة فى فندق المطار وكانت الثلوج تغطى براغ. وفى المطار وجدت عددا من الرجال والنساء يداعبون طفلا. ورأيت شعارات عديدة فى المطار استوقفنى منها شعار: نريد التجارة مع كل البلاد. وشعارات عن التعايش السلمى. طالبتنى ادارة الفندق بأجرة الاقامة ولكن لم يكن معى غير ما أعطانى اياه مسئول الشباب. فأخذوها ولم يطالبونى بغيرها.

الحياة فى المجر:

وركبت الطائرة فى اليوم التالى متوجها إلى بودابست وكان يجلس إلى جانبى شاب

مجرى عرفت أنه يعمل موظفا فى أحد المكاتب الحكومية فى المجر. وأخذنا نتحدث وحكى لى عن المجر وعرفته بوجهتى فقال لى أنه يسكن قريبا من ذلك المكان. وأنه سيستقل تاكسى ويوصلنى إلى هناك.

فى المطار قرأ ضابط الجمرك أوراقى وعرف أننى لاجئ سياسى فرفع يده تعظيم سلام. أثرت فى هذه الحركة، فلأول مرة أجد تكريما من أحد الرجال الرسميين ومن رجل شرطة بالذات، أما زميلى فى الطائرة فقام بتفتيشه تفتيشا دقيقا. وبعد انتهائه ركبنا معا ونزلت فى عنوان اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى فى بنزور أوتسا أى شارع بنزور، وكان الوقت حوالى السادسة مساء. ولم أجد هناك من أعضاء السكرتارية إلا المندوب السوفيتى الذى رحب بى. وكان يوم سبت. واليوم التالى أجازة ولا يستأنف العمل إلا صباح الاثنين. وبعث معى أحد الموظفين إلى فندق على نهر الدانوب يسمى فندق «دونا» أى الدانوب باللغة المجرية وقال لى أننى لن احتاج إلى أى نقود حتى يوم الاثنين وما على إلا أن أوقع على فاتورة الوجبات فى مطعم الفندق.

ذهبت إلى الفندق وتعرفت على بعض الزملاء من سوريا وايران وانجلترا وتناولت وجبة العشاء وطلبت أنواعا كثيرة، قياسا على انواع المائدة الفرنسية، فوجدت أنها أكثر من طاقتى، وعرفت بعد ذلك أن المائدة المجرية تختلف وتتضمن بنودا، أقل. وفى اليوم التالى لم أجد مشكلة فى تناول وجباتى الأخرى رغم أنه لم يكن معى فلس واحد، وخرجت مع زملائى فى المساء إلى جولة بالاقدام فى مدينة بودابست.

وفى يوم الاثنين ذهبت إلى العمل والتقيت بالسكرتير العام جاك دينى وهو فرنسى الجنسية وعضو فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وقد كانت العادة لعدة سنوات أن يكون السكرتير العام فرنسيا. وكان رئيس الاتحاد ايطاليا وهو أنريكو برلينجوير الذى اصبح بعد ذلك سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى الايطالى. ولم يكن الرئيس يقيم فى بوادبست. وكانت القيادة اليومية لعمل الاتحاد فى يد السكرتير العام الفرنسى. وكان السكرتير السوفيتى يتمتع باحترام كبير، وتسمع كلمته فى العادة فهو مندوب الشقيق الأكبر، الذى يقوم بالتمويل الأكبر، ولا ترفض فى العادة توجيهاته.

دخلت على جاك دينى فقابلنى بترحاب، وسألنى: أنت تمثل الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، قلت: نعم. فطلب منى أن أنتظر لحظة عند السكرتيرة لأنه سيلتقى بانريكو برلينجوير الذى جاء فى مرور سريع على بودابست، وجاء برلنجوير وقال بدعابة أن جاك دينى لديه غرفة ضخمة مثل الوزراء. واختلى بجاك دينى فى غرفته فترة ثم خرج.

ودخلت فقال لى جاك دينى أننى سأكون ممثلا لمصر والسودان وأننى سأعمل فى نفس الوقت فى مجلة اتحاد الشباب. واننى إذا أردت ارسال اى رسائل إلى زملائى فى باريس فيمكن

أن يتم ذلك عن طريقه.

كان معى فى الجريدة، وفى نفس الحجرة شاب مجرى وشاب سوفيتى وآخر من كندا. وكان سكرتير التحرير فرنسيا. أما السوفيتى فكان اسمه ساشا. وكان قليل الكلام وكان المندوب البولندى يدخل عليه من وقت لآخر وكانت بينهما صداقة. وكان شديد الاعجاب بستالين ويمدحه كثيرا. وأذكر مرة حديثا تليفونيا بينه وبين شخص وكان طوال الحديث يقول «نعم. نعم» لمدة طويلة وانتهت المكالمة ووضع السماعة. وكانت أول تجربة لى لرؤية الروس عن قرب. وكانت تصوراتنا عن روسيا والروس وعن الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت تصورات مثالية.

وكان نفس الشيء بالنسبة للمجر كأول بلد اشتراكى أزوره. وكنت أتصور أن أجد جميع المجريين يحبون الاشتراكية، وأنهم جميعا شيوعيون. وبدأت شيئا فشيئا أرى الحقائق، وأرى السلبيات إلى جانب الايجابيات. ولم تجعلنى السلبيات أفقد الثقة بالتجربة، ولكننى كنت أحاول أن أجد التبريرات لها.

وكان من الطبيعى أن تكون لى علاقات أوثق بالسورى باعتباره عربيا. وكان اسمه «مازن» وعرفت بعد ذلك أنه ليس اسمه الحقيقى، وإنما اسمه «واصل فيصل» وهو شقيق يوسف فيصل الذى اصبح الآن أمينا عاما للحزب الشيوعى السورى. وأذكر فى ذلك الوقت أن جاءنى مازن بعدة صور لخالد بكداش وقال أن أخاه أرسلها له من براغ لأعطيها لزملائى المصريين. وكان يوسف فيصل يعمل وقتها مندوبا للطلبة السوريين فى اتحاد الطلبة العالمى الذى كان مقره فى براغ. ولم أرسل الصور لأحد بالطبع، فلم يكن خالد بكداش يمثل بالنسبة لنا شيئا. وقد حكى لنا ابراهيم عبد الحليم مرة أنه كان فى زيارة لبراغ لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة العالمى فالتقى بيوسف فيصل الذى قال له «ما أخبار الجاسوس الصهيونى هنرى كورييل»؟ فاستفز ابراهيم عبد الحليم وكان سليط اللسان فقال: «وما أخبار الجاسوس الاستعمارى خالد بكداش» ففوجئ يوسف فيصل ولم يستطع مواصلة الحديث.

أتذكر تلك الأحداث الصغيرة، كلما سمعت اليوم عن الانقسام الذى حدث فى الحزب الشيوعى السورى والصراع الذى كان بين يوسف فيصل وخالد بكداش.

كانت تجربة عملى فى مجلة الشباب هى من أوائل التجارب لى فى العمل الصحفى، ولكنه كان عملا صحفيا من نوع خاص. فكان على أن أحرر وأقرأ المواد باللغة الفرنسية وكنت أكتب المواد أو المقالات بفرنسية ضعيفة فتذهب إلى الآلة الكاتبة التى كانت تجلس عليها فرنسيات يصححن الأخطاء، ويعدن تحرير المادة بفرنسية سليمة.

وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى فى العمل. وقد ساعدنى ذلك على تقوية لغتى الفرنسية، ساعدنى على ذلك أيضا من قبل فترة إقامتى فى السجن فى باريس حيث لم تكن أمامى فرصة الحديث بأى لغة أخرى بخلاف اللغة الفرنسية.

وإلى جانب عملى فى المجلة فقد كنت أقدم المواد من مصر والسودان وأخبار نضالات الشباب والطلبة والحركة الوطنية فى مصر والسودان. وقد لعب زملائى فى باريس دورا هاما فى تزويدى بالمجلات والوثائق التى كانت تصلهم من مصر.وكان هنرى كورييل مواظبا على مراسلتى. وكان لرسائله أثر كبير فى ثقافتى السياسية وفى رفع معنوياتى وفى تحقيق الصلة بينى وبين زملائنا فى مصر.

وكان المندوب الايرانى يدعى «نمازى» ووجد مندوب من الهند وكان المندوب الهندى والسورى والايرانى يعملون فى الحجرة المجاورة فى «قسم المستعمرات» الذى كان المندوب الصيني مسئولا عنه. وكان عضوا فى السكرتارية وجم الأدب.

استلمت جزءا من مرتبى تحت الحساب لأستطيع أن أسير أمورى حتى أول الشهر. وكان المرتب يكفينى وأكثر إذ كان الاتحاد يدفع تكلفة الاقامة فى الفندق. وكنا نشترى كوبونات رخيصة نتناول بها طعامي الافطار والغداء فى مطعم تابع للاتحاد. ولم أكن أعرف ماذا افعل بهذا المرتب الكبير. فلم أعتد شراء الملابس إلا الضرورى جدا. فكنت أشترى الكتب. ويتبقى معى بعد ذلك مبالغ كبيرة.

كان وصولى إلى المجر فى مارس ١٩٥٢ ومنذ وصولى وأنا تحت تأثير اعتقال شريف وأوصانى زملائى بأن أبذل جهودى للسماح لشريف بالمجئ إلى المجر أو أى بلد اشتراكى آخر. وقمت ببعض الاتصالات ولكن دون جدوى. أما المسئولون فى الحزب الشيوعى الفرنسى فرفضوا بذل أى جهد فى هذا الاتجاه. وعرفت بعد ذلك ان شريف أفرج عنه بعد فترة وأعطى مهلة لترتيب خروجه من فرنسا وعاد سرا إلى القاهرة. ولكنه اعتقل بعد ذلك فى قضية جديدة سنة ١٩٥٣ بعد الثورة وحكم عليه بالسجن عشر سنوات أمضاها بالكامل. واستمر معى الاحساس بالذنب ولم استطع التخلص منه، ولم يطغ عليه الا تطور الأحداث بعد ذلك

ثورة يوليو ٥٢ :

فى صباح أحد الأيام من شهر يوليو اتصل بى «مازن» تليفونيا وقال لى «الملك طار» فلم أفهم، فحكى لى أخبار الانقلاب الذى قام به الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو. وكانت الاخبار لا تزال غير واضحة ولكنى فرحت فرحا شديدا! وشعرت أن ذلك يمكن أن يساعدنى فى العودة إلى مصر.

واتصلت بى جريدة الشباب المجرية وطلبت منى مقالا عن الاحداث الأخيرة. فكتبت مقالا فيه تقييم ايجابى لهذا الانقلاب نشرت المجلة المقال بعد أن قدمت عرضا لحياتى ونضالى.

وجاءتنى بعد ذلك رسائل كورييل والأخبار من الداخل التى تؤكد موقفى.

وقبل ثورة يوليو كانت تصلنى منشورات الضباط الأحرار التى كان يرسلها لى زملاؤنا فى باريس. وكانت الاطاحة بالملك والاعتقالات التى جرت لرجال البوليس السياسى ولبعض العناصر الرجعية والجو السياسى والاجتماعى الذى كان يسود مصر قبل الانقلاب كافية لاقناعى بتأييد هذه الحركة. وكان هذا هو التقييم الذى قدمته ايضا لسكرتارية اتحاد الشباب. وبدأت تصلنى بيانات الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وجرائد الملايين والكاتب التى عادت للصدور وكلها تؤكد موقفى.

أما الموقف فى الأحزاب الشيوعية الأخرى والتى كان ممثلوها يعملون معى فى اتحاد الشباب فقد بدأ بالترقب والانتظار مع سرد الوقائع بشكل محايد ويوحى أحيانا بالتعاطف، بل ووصل الأمر بصحف الحزب الشيوعى الانجليزى لكتابة مقالات تعكس موقف حدتو المؤيد لحركة الجيش وذلك بعد زيارة قام بها أحد قادته إلى مصر. إلا أنه سرعان ما انقلبت النغمة وانتقلت إلى اتهام حركة الجيش بأنها انقلاب أمريكى يمينى. وتبعها فى ذلك الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى وبالذات الحزب الشيوعى السورى. وسلكت نفس المسلك المجموعات الشيوعية الصغيرة الأخرى فى مصر باستثناء الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى. وفى السودان اتخذ الحزب الشيوعى السوداني نفس موقف حدتو من تأييد حركة الجيش، وقد لاقى فى ذلك هجوما وتهديدات من الأحزاب الأخرى وخصوصا من الحزب الشيوعى البريطانى.

وكان تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو فور قيامها يرجع لاعتبارات موضوعية. فقد كان لنا اشتراكنا فى حركة الضباط الأحرار منذ نشأتها. وكان ضابطان من مجلس قيادة الثورة هما خالد محيى الدين ويوسف صديق. الأول متعاطفا مع حدتو والثانى عضوا بها ذلك غير اعضاء آخرين فى الضباط الأحرار. وكان ليوسف صديق دور بارز وحاسم ليلة ٢٣ يوليو نفسها. وكانت لمبادرته وشجاعته وتحركه المبكر ليلة الثورة نفسها أثرها الحاسم فى نجاح الحركة واعتقال قيادة أركان حرب الجيش وافشال تحركات السراى. وقد شاركنا فى تحركات الضباط الأحرار قبل الثورة. بل إن مطبوعاتهم كانت تطبع على رونيو خاص بحدتو وكنا على علم بوطنية الضباط الأساسيين الذين تحركوا وعلى رأسهم جمال عبد الناصر الذى التقى قبل الثورة ببعض قادة حدتو ومنهم سيد سليمان الرفاعى (بدر). وقد اخطر تنظيمنا بموعد قيام الثورة. ولهذا كانت حدتو من أوائل التنظيمات والأحزاب التى أصدرت منشورا بتأييدها.

وكان للجيش ـ ضباطه وجنوده ـ دور وطنى فى الحركة الوطنية المصرية. فقد رفض الجيش التصدى لمظاهرات الطلبة والعمال يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦. وكان برنامج تنظيم الضباط الأحرار يلتقى مع الأهداف التقدمية للحركة الوطنية المصرية. لهذا لم تلق حدتو بالا للاتهامات من بعض الأحزاب الشيوعية فى الخارج او لبعض المنظمات الصغيرة فى الداخل بأن أصابع الامبريالية الأمريكية وراء حركة الجيش.

وكانت أسرتنا «محافظة» من ناحية العلاقات الاجتماعية مثل أغلب عائلات الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت. فلم يكن النساء يختلطن بالرجال. وكان للأزواج حياتهم الخاصة المستقلة عن حياة زوجاتهم. وهناك مجتمع للرجال ومجتمع آخر للحريم.

وكانت علاقتنا نحن الأولاد أقوى بأمنا من علاقتنا بأبينا الذى كان دائما فى الخارج مشغولا بالعمل أو مع أصدقائه. وكان يقضى سهرته فى نادى «رمسيس» وكانت له حياته المستقلة تماما ويعود إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل. وكنا لا نجتمع معا إلا على مائدة الغداء. وكنا نحترمه احتراما شديدا ونخشاه، وعندما نراه نقبل يده. ولكننا كنا نعيش حياتنا الحرة مع أمنا نلعب ونمارس شقاوتنا أمامها.

وقد لعبت خالاتى أيضا دورا فى تربيتنا وكن قريبات الصلة بنا فى طفولتنا. وكن يساعدن أمى خصوصا فى الفترة التى سبقت زواجهن.

وهناك بعض الأحداث الصغيرة التى مازالت تترك فى ذهنى انطباعا لم أنسه، من ذلك اليوم الأول لدخولى المدرسة وهى روضة الأطفال بقصر الدوبارة. ولم أكن قد أتممت الخامسة بعد. وأذكر أننى لم أحب الدراسة هناك. وكنت منطويا رغم أننى كنت فى المنزل كما تروى خالاتى شديد «الشقاوة». ويرددن الكثير من النوادر عن شقاوتى. وكنت فى المنزل أشعر بأننى بلا قيود. أما فى المدرسة فقد ووجهت بمجتمع جديد لم أحبه. ولا أعرف السبب. وقد يرجع ذلك إلى بعض تصرفات المدرسات أو زملائى وزميلاتى فى الدراسة. وأذكر مثلا أن إحدى المدرسات كانت تضربنى وأن بعض الأطفال يسخرون منى لهدوئى الشديد وعدم مشاركتهم فى اللعب. ولم يكن ذلك حال أخى «أحمد» الذى كان يكبرنى بعامين وكان يدرس فى نفس المدرسة . وأذكر فى أحد الأيام أننى كنت أجرى فى المدرسة للحاق بشيء فوقعت وكسرت ذراعى، فانقطعت عن المدرسة فترة. وعندما شفيت لم أحب العودة إليها فنقلت إلى مدرسة «أولية» فى الزيتون أحببتها. وكان لى فيها أصدقاء وتفوقت فى دراستى بحيث استطعت الانتقال سريعا إلى المدرسة الابتدائية.

وكان أخى «أحمد» هو أقرب الإخوة إلى لتقارب السن. وكنا نلعب معا ونتشاجر . وكان أبى شديدا مع أخى لينا عطوفا معى. وكان يحمل أخى مسئوليات أكبر باعتباره أكبر الإخوة. وكان يشفق علىّ من تحمل المسئوليات. وقد يكون ذلك لضعف صحتى ولمرضى فى طفولتى. ومازالت تعلق فى ذهنى مرة كان أبى يعنف فيها أحمد بشدة لأنه تأخر خارج المنزل وهدده بأن يلسعه بملعقة ساخنة. واستيقظت من نومى على هذا التهديد.

وهناك حادثة صغيرة أيضا فى طفولتنا الأولى مازلت أذكرها وهو شجار بينى وبين أخى على «غويشة» من الزجاج خطفتها منه وضربته بها فى وجهه فتركت أثرا على وجهه ظل موجودا طوال حياته.

وقد أدى هذا الموقف المستقل إلى متاعب بعد ذلك لمنظمة حدتو ولى شخصيا فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى.

فكان مختلف ممثلى الأحزاب وعلى رأسهم جاك دينى ممثل الحزب الشيوعى الفرنسى وأمين عام الاتحاد يختلفون معى فى تقييم هذه الحركة. ولم يكن موقفنا يلقى بعض التفهم والتعاطف إلا من ممثل الحزب الايطالى، وإلى حد ما من أحد المجريين غير الأساسيين الذى كان يعمل معى فى المجلة.

وكانت مجموعتنا فى باريس قد بدأت تصدر نشرة باللغة الفرنسية بعنوان «اخبار مصر Nouvelles d´Egypte» كانت تصلنى فى بودابست وكنت أوزعها على مختلف المندوبين. وكانت النشرة تشتمل على ترجمات لأهم المقالات والأخبار من مجلاتنا ومنشوراتنا العلنية والسرية التى تصدر فى مصر، وتحدد موقفنا من الأحداث التى تجرى هناك.

وكان «مازن» المندوب السورى فى الاتحاد هو أكثر المندوبين هجوما على موقفنا. وكان يعبر فى ذلك عن موقف حزبه.

وكانت سكرتارية الاتحاد قد قررت اصدار مجلة «شباب العالم» باللغة العربية. وقرروا اسناد مسئولية المجلة إلى باعتبارى ممثلا لمصر أكبر الدول العربية. ولما عرف مازن بذلك قامت قيامته، وتحرك حزبه وراءه معترضا على ذلك. وقال: أتريدون أن تتحول المجلة إلى منبر للدفاع عن «نجيب»، واستخدم كل سطوة حزبه والموقف الذى تكون فى الأحزاب الشيوعية والمعادى لحركة الجيش، ورفض موقف حدتو منها. استخدم ذلك لتغيير القرار.

وساعد على هذا الجو المعادى الذى نشأ، أحداث أخرى مرتبطة بمجموعتنا فى باريس. فقد حدث خلاف بين أندريه مارتيه وقيادة الحزب الشيوعى الفرنسى، التى سرعان ما اتهمته بالنشاط التكتلى والانقسامى وعزله. وهى قضية داخلية خاصة بالحزب الشيوعى الفرنسى. استخدمت فى حربها ضد مارتيه كل الأسلحة، بما فى ذلك علاقته بهنرى كورييل وزوجته وهو ما سبق الحديث عنه.

وأصبح الجو متوترا بينى وبين جاك دينى، وأذكر فى هذه الفترة أننى كالعادة (وبناء على توصيته السابقة) سلمت لسكرتيرته رسالة موجهة لزملائنا فى باريس. فاستدعانى وذهبت لاستقباله ودخلت عليه وأردت الجلوس فقال لا داعى وأعطانى الرسالة وقال لى ابعثها بنفسك. أحسست بإهانه شديدة وغضب وشعرت بعد ذلك بجو غير عادى فى الاتحاد لا يتسم بالود.

تألمت بشدة، ولم يغير ذلك اقتناعى أو موقفى. وعجبت أن تصدر تلك المواقف غير الموضوعية من رفاق كانت لدى تجاههم تصورات مثالية.

وعكست ذلك كله فى رسائلى لكورييل الذى أحس بالأوضاع النفسية التى أعيش فيها.

وكتب إلى يشجعنى.

أحسست بعزلة شديدة، ولم يخففها من الناحية الشخصية إلا نشوء علاقة بينى وبين فتاة مجرية فى السادسة عشرة من عمرها تدعى يوديت كانت تتكلم الفرنسية تعرفت بها عند بحيرة البلاتون، وكان الاتحاد قد نظم رحلة فى احدى الاجازات لمدة يومين على شاطئ بحيرة البلاتون وأثناء وجودى على الشاطئ مع بعض الزملاء والزميلات من الاتحاد وكنا كالعادة نتكلم الفرنسية ورأيت بالقرب منى فتاتين وسيدة يجلسن وبيد الفتاتين جريدة فرنسية ترفعانها ولا تقرآنها وهما تحاولان إفهامنا بأنهما تعرفان الفرنسية. وكانتا تنظران إلينا وتبتسمان. التقيت بهما فى القطار عند عودتى وتعرفنا وتكلمت بالفرنسية وقطعنا الطريق كله فى أحاديث مختلفة. وعند وصولنا إلى محطة بودابست قمت بتوصيل يوديت إلى منزلها ثم ذهبت إلى الفندق، وتبادلنا أرقام التليفونات وتكونت بيننا صداقة. كانت اللغة الأجنبية الأولى التى درستها فى مدرستها هى اللغة الفرنسية. كنت وقتها فى السادسة والعشرين من عمرى. وتكونت بيننا صداقة كانت تخفف من الجفاف والعزلة التى كنت أشعر بها فى ذلك الوقت فى الاتحاد.

كنت أزورها فى منزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة وكانت تعيش مع أمها التى لم تكن تتكلم غير المجرية. والتى كانت ترحب بى، وكانت ترى فى صداقتى لابنتها فرصة لتقوى ابنتها معارفها باللغة الفرنسية. ولكن هذه العلاقة عندما توثقت وأحست بارتباط ابنتها بى أصبحت تقلق عليها وعلى مستقبل هذه العلاقة. وازداد ارتباط الفتاة بى وقالت لى أنها تريد أن ترتبط بى وانها مستعدة للذهاب معى إلى القاهرة عندما تسمح لى الظروف بذلك.

كانت هذه العلاقة مع «يوديت» أو «يوتكا» كما كان يطلق عليها باللغة المجرية هى العامل الوحيد الذى كان يخفف من ذلك الجو الكئيب الذى كنت أعيش فيه فى ذلك الوقت فى الاتحاد وكانت هى المنفذ الأول الذى بدأت من خلاله أعرف الشعب المجرى.

سألنى المجريون العاملون في الشئون الادارية فى الاتحاد عما اريد أن أدرسه فى جامعة المجر، وإن كنت أرغب فى تكملة دراستى القانونية. فقلت لهم أن ماأريد دراسته هو اللغة الروسية والماركسية اللينينية. وكنت عند وصولى للمجر قد انتظمت فى فصل إقامه الاتحاد لدراسة اللغة الروسية استمر حوالى شهرين. وأخطرت بعد ذلك أنه قد رتب لى مكان فى المدرسة العليا للغات الأجنبية بقسم اللغة الروسية. وتركت الاتحاد بعد أن كنت قد أمضيت فى العمل به حوالى سبعة شهور.

كان أخى فى هذه الفترة على صلة فى عمله التجارى مع القسم التجارى بالسفارة المجرية فى القاهرة، وأقام معهم علاقات حسنة. وعن طريقهم أقام معى صلة وكان يرسل لى الرسائل عن طريق أحد العاملين فى القسم التجارى المجرى. وكان يرسل لى النقود الخاصة بى (فقد كنت مازلت أمتلك ١٣ فدانا بقيت لى ولم أكن قد استطعت بيعها بعد بسبب سجنى

وظروفى السرية) عن طريق أحد الزملاء فى القاهرة وكان هذا الزميل يسلمها لحدتو. وفوجئت مرة بأنه حول لى نقودا فى المجر. ولم أكن بحاجة إليها، فكان على أن أدبر إعادتها إلى القاهرة وهو لم يكن يعرف أننى أسلم مايرسله إلى زملائنا.

وفى أحد الأيام اتصلت بى السفارة الصينية فى المجر باهتمام شديد محاولين الاتصال بأخى واخباره بموافقتهم على عرضه بزيارة الصين، فلم تكن لمصر علاقات دبلوماسية بعد بالصين الشعبية. وكان أخى يريد اقامة علاقات تجارية معها وكان أول من بدأ اقامة علاقات تجارية فى مصر مع الصين الشعبية. أبلغته الرسالة وعرفت بعد ذلك أنه زار الصين وعاد وكتب عنها سلسلة مقالات فى مجلة روز اليوسف. وكانت تربطه علاقة صداقة بإحسان عبد القدوس وتزوج بعد ذلك من شقيقته آمال طليمات بنت زكى طليمات وجاء هو وزوجته لزيارتى فى بودابست، وأمضينا معا وقتا لطيفا. وكان قد جاء إلى بودابست لعمل يتعلق بعلاقاته التجارية مع المجر.

وأنشأ أخى علاقات وثيقة مع التمثيل التجارى للاتحاد السوفيتى وأصبحت له معه علاقات تجارية ناجحة. وكذلك مع رومانيا والصين.

دخول الجامعة:

رتب لى اتحاد الشباب المجرى منحة دراسية فى المدرسة العليا للغات الأجنبية قسم اللغة الروسية. وأدى ذلك إلى تغير كامل فى وضعى المادى. فانخفض دخلى الشهرى إلى حوالى النصف فبعد أن كنت أحصل على مرتب شهرى يساوى حوالى ١٦٠٠ فورنت بالاضافة إلى السكن المجانى فى فندق «دونا». أصبحت أحصل على منحة شهرية ٨٠٠ فورنت أصرف منها على السكن والطعام والملابس والمواصلات، وبدلا من حجرة مستقلة فى فندق «دونا» انتقلت إلى الحياة فى بيت الطلبة وكانت الدراسة قد بدأت منذ ثلاثة شهور وكانت بيوت الطلبة ونظرا لتأخرى فى الالتحاق بالدراسة قد شغلت كلها، فلم يجدوا لى مكانا إلا فى بيت الطالبات، وكان يسكن فيه أيضا عدد من الصينيين فى الدور العلوى. أما الدور الأول فكان يقتصر على الطالبات وقد اعطونى فى البداية حجرة منفردة ثم أتوا لى برفيق كان معيدا فى نفس المدرسة العليا اسمه ارتس ميكلوش. وأصبحنا نقيم معا فى حجرة مشتركة أما الدور كله فكانت تشغله الطالبات، وفى الحجرة المجاورة كانت تسكن طالبتان فى القسم الروسى. احداهما كانت فى نفس فصلى واسمها سوتش كاتالين أو «كاتى»، كما كنا نسميها والأخرى لا أذكر اسمها. ولكنهما كانتا فى المساء تغنيان معا بعض الأغانى الروسية الشعبية والوطنية.

كان زملائى فى الدراسة قد درسوا اللغة الروسية فى المرحلة الثانوية. وكان عليّ أن ألحق

بهم. وكان هذا امرا صعبا لأن المدرسين كانوا مجريين وكان الشرح باللغة المجرية التى لم أكن أعرف منها غير بعض كلمات. ولهذا استعنت بقاموس روسى فرنسى وساعدتنى طالبة روسية من أبناء المهاجرين الروس الذين هاجروا إلى بلجيكا التى عاشت فيها وقررت أخيرا العودة إلى الاتحاد السوفيتى. ولكن الحكومة السوفيتية كانت تضعها فترة تحت الاختبار فى احدى الدول الاشتراكية الحليفة. وكانت معها طالبة أخرى لها نفس الوضع من يوغوسلافيا، كانت الأولى تدعى «فيرا» وكانت إلى جانب الروسية تتقن الفرنسية اما الثانية فتدعى «ليدا». وإلى جانب ذلك كان معنا فى نفس الفصل طالبان يوغوسلافيان من المعادين لتيتو. أحدهما كان فى حوالي الأربعين من عمره. أما الثانى، فكان فى حوالى الثلاثين.. وأنا كنت فى السادسة والعشرين. أما باقى الطلبة والطالبات المجريات فكانت سنهم تدور حول العشرين.

كنت أتميز عن باقى الطلبة الأجانب فى أننى كنت اضطر فى أغلب الوقت أن أستخدم اللغة الروسية فى الحديث. فاستطعت أن اسبقهم فى القدرة على التحدث بالروسية وكان على أن أبذل مجهودا ذاتيا كبيرا فى التحصيل وساعدتنى فيرا فى ذلك.

وكان وصول طالب مصرى عربى مثار اهتمام الطلبة والطالبات. فكونت علاقات وصداقات سريعة. ولقيت من الجميع ودا ومساعدة سواء فى القسم الروسى أو الأقسام الأخرى. وكان بالمدرسة العليا ثلاثة أقسام أخرى للغة الفرنسية والانجليزية والألمانية. وكانت تقع فى حى فى أطراف مدينة بوادبست. وبوادبست تنقسم إلى قسمين «بودا» و«بشت». وكنت أسكن فى «بشت» وكذلك كانت المدرسة العليا التى كنت احتاج إلى أن استخدم التروللى باس للذهاب اليها. وكان سكنى قريبا من منزل «يودكا» التى كنت أقضى معها أغلب الوقت.

وكنا إلى جانب اللغة الروسية وقواعد اللغة والأدب الروسى ندرس تاريخ الاتحاد السوفيتى والماركسية اللينينية فضلا عن دروس خاصة للأجانب فى اللغة المجرية. وكان باقى الطلبة الأجانب فى فرقتنا يعرفون اللغة المجرية افضل منى. فقد كانوا يستخدمونها فى الحياة اليومية. أما أنا فلم أحتج إليها إلا لشراء احتياجاتى اليومية فى السوق، ولكن أغلب وقتى كنت استخدم اللغة الروسية مع ميكلوش الذى كان يسكن معى والذى كان يعرف اللغة الروسية. وإذا لم يسعفنا الحديث كنت ألجأ إلى القاموس وكنت أستخدم مع يودكا اللغة الفرنسية. وبدرجة أقل كنت أستخدم اللغة الانجليزية مع طلبة القسم الانجليزى فى المدرسة العليا. أما اللغة العربية فأصبحت لا استخدمها الا نادرا. ونظمت مع زملائى فى باريس أن يبعثوا إلى الصحف المصرية التى كنت أنتظرها بفارغ صبر. واستمرت مراسلاتى معهم.

كانت فترة الضغوط النفسية على فى آخر فترات عملى فى الاتحاد إلى جانب برودة الشتاء الذى لم أكن مستعدا له، سببا فى مرضى. وكان الجو فى المجر فى الشتاء أكثر قسوة منه فى باريس. وكان من الضرورى أن أستعد له بأحذية دافئة ومعطف ثقيل. وكنت أظن أن

الطريق لمواجهة برد الشتاء، هو ملابس داخلية من الصوف التى لم تكن تساعدنى لأن الأماكن المغلقة كانت دافئة فأشعر بالحر الشديد ثم أخرج إلى الشارع والبرد الشديد بنفس الملابس تقريبا. ولم أكن قد تدربت بعد على التعامل مع هذا الجو. وبدأت أشعر بآلام شديدة فى صدرى. ذهبت إلى الطبيب وذهبت معى «يودكا» لتساعدنى فى الترجمة. كشف على الطبيب وقال أنه القلب. وقد سبق أن تحدثت عن عقدة «القلب» الذى مات به ابى وأمى. فأصابتنى حالة من الفزع والاكتئاب الشديد. واحسست أن ايامى قليلة. وكانت فكرة أن أموت بعيدا عن الوطن تزعجنى. ساعدتنى يودكا كثيرا فكانت تذهب معى للفحوص فى المستشفى وكانت تخفف عنى.

كانت الرياضة البدنية مادة أساسية اجبارية على الطلبة. فحصلت على إذن من الطبيب على عدم القيام بها بسبب مرض القلب. وبدأت الدراسة والانتظام فيها يتعبنى رغم اجتهادى وحماسى فى البداية. وازداد احساسى بعدم القدرة على العمل والدراسة. وزاد الطين بلة أننى فى أحد الأيام أحسست بألم وورم فى مفصل يدى اليمنى. ونصحتني يودكا وأمها أن أذهب إلى طبيب مدفوع الأجر رشحتاه لى. فقال لى أنها حمى روماتزمية وأننى يجب أن أمكث فى السرير وكتب بنقلى إلى المستشفى.

كلفت المدرسة العليا أحد الطلبة بمرافقتى إلى المستشفى حيث أجريت مختلف الفحوص ووضعونى فى أحد العنابر مع الرجال العواجيز الذيُن تعدوا الستين. وعندما رآنى كبير الأطباء قرر نقلى على الفور إلى عنبر أكثر شبابا. وكان الطبيب المعالج يتكلم انجليزية ضعيفة. فلم أكن أعرف بالضبط حقيقة مرضى. كان الطبيب الخارجى قد كتب لى أقراصا حمراء ضد الحمى الروماتزمية وقد سببت لى طنينا مستمرا فى أذنى مما زادنى وهما. وبعد قليل أوقفوا فى المستشفى تلك الأقراص خصوصا بعد أن اختفى الورم من يدى. فاختفى الطنين من أذنى وبدأت أشعر ببعض التحسن، وكتبوا لى أقراصا أخرى. وبعد أيام قالوا لى أنه ليست عندى حمى روماتزمية وإن كان هناك بعض الآلام الروماتزمية، أما القلب فليس به مرض عضوى. ثم قالوا ان هناك زيادة فى افرازات الغدة الدرقية. وأنها السبب فى مختلف الأعراض التى أشعر بها وثارت قضية احتمال اجراء عملية لى. وسألت الطبيب المعالج: متى يجرون العملية؟ فضحك وقال: لماذا تستعجل العملية؟ وأعطونى أدوية تشتمل على اليود وأدوية أخرى للأعصاب. وأوصوا بأن أذهب فى الصيف إلى المصحة لعلاج الغدة الدرقية والأعصاب. كانت تجربتى فى المستشفى جديدة. فلأول مرة أعيش مع مرضى وممرضات لا يتكلمن غير المجرية فأضطر للتفاهم معهم بالمجرية. وكان على يمينى فى عنبر المستشفى الذى كنت أقيم فيه شاب مجرى حدثنى عن تجاربه عندما وقع فى الأسر فى الاتحاد السوفيتى. وكيف دخل السجن وعاش مع مسجونين روس يعادون ستالين. وتحدث أيضا عن معيشته فترة فى روسيا بعد الافراج عنه وتحدث عن النساء الروسيات وكيف أن لهن صدورا ذات أحجام كبيرة. وتجاربه معهن. وجرت ألفة بينى

وبين المرضى الآخرين.

وفى أيامى الأولى كنت أشعر بحرارة شديدة وبعرق غزيز. فشكوت للطبيب وكانت معه الممرضة. فابتسمت ونزعت عنى الملابس الصوفية الداخلية التى كنت ألبسها. وبعدها لم أعد أشعر بحرارة أو أعرق.

كانت يودكا تزورنى وتلبى طلباتى فى المستشفى وكذلك زارنى بعض زملائى وزميلاتى فى الدراسة وساعدنى هذا الجو على أن تتحسن حالتى وكتب لى الطبيب بعد حوالى أسبوع بالخروج من المستشفى على أن أستمر فى تناول الأدوية التى كتبوها وأن أذهب فى الصيف إلى المصحة.

عدت إلى الدراسة. وعاد لى نشاطى. وانتظمت من جديد فى الدراسة والتحصيل وبذلت جهدا لتحصيل مافاتنى، وأثنى الأساتذة على اجتهادى، وأصبحت أحصل على درجات جيدة فى مختلف المواد وكانت علاقتى ممتازة بزملائى وزميلاتى من الطلبة والطالبات. وأحسست بجو مختلف عن ذلك الجو الكئيب الذى شعرت به فى آخر فترة عملى فى الاتحاد. وقد تركت الاتحاد دون أن آسف على تركه، وعتب على بعض زملائى فى الاتحاد عندما كنت ألقاهم أننى لم أودعهم عندما تركت الاتحاد.

اندمجت تماما فى الجو الجديد، ويبدو أنها كانت محاولة لنسيان التجربة الكئيبة فى الاتحاد خصوصا فى فترة عملى الأخيرة.

ورغم أن ماكنت اتقاضاه فى الشهر من النقود وكان حوالى نصف ما كنت أتقاضاه من الاتحاد. ورغم أننى كنت أصرف منه على الاقامة ٥٠ فورنت وحوالى ٤٠٠ فورنت كوبونات للافطار والغداء والعشاء فى مقصف المدرسة العليا. وكان نوع الطعام الذى يقدم فى المطعم أسوأ بكثير مما كنا نتناوله فى مطعم الاتحاد. وبالباقى كنت أدبر احتياجاتى الأخرى. ولم أشعر بأى ضائقة مالية. بل وأحيانا كنت أدعو يودكا إلى مطعم أو مقهى أو نذهب لحمام السباحة. وكان فى بودابست حمام سباحة كبير اسمه «بلاتينوس» كان قسم منه تقام به أمواج صناعية. وعند ماتبدأ الأمواج الصناعية يتزاحم المستحمون للاستمتاع بالموج. والمجر لا توجد بها بحار ولايعرف المجريون الأمواج. ولا توجد غير بحيرة البلاتون التى تختلف طبعا عن البحر.

وكانت يودكا تحب الرياضة وتمارسها. أما أنا فلم أكن أمارس أى نوع من الرياضة. حتى السباحة فلم أكن أقوم بها فى ذلك الوقت. وان كنت قد تعلمتها فيما بعد. وعندما كنت اعمل فى الاتحاد كانوا ينظمون أحيانا زيارات للملاعب للعب الفولى بول وكرة السلة، فكان جسمى هزيلا ويداى ضعيفتين ولا أستطيع قذف الكرة. وكنت أتعب سريعا من اللعب.

وقبل نهاية العام الدراسى بدأت أحس بالتعب من جديد. وكان الطبيب فى المستشفى قد

أوصى بذهابى إلى المصحة فى الربيع أو الصيف. فبدأت أقوم بإجراءات نقلى إلى المصحة وذهبت إلى مصحة على الجبال على حدود المجر وتشيكوسلوفاكيا. وكان ممكنا رؤية تشيكوسلوفاكيا من الجبال. وأخذت معى حقيبة كاملة مليئة بالكتب، بحيث أننى عندما وصلت لم استطع حمل الحقيبة فساعدنى أحد الرجال. وذهبت إلى المصحة. ويسمى المكان «كيكش تاتو» وقد أحسست أنه مثل الجنة فى جماله. كان مليئا بالأشجار والزهور والغابات لم أكن قد رأيت فى حياتى مكانا يفوقه جمالا. أنزلونى فى حجرة مع أحد المدرسين فى القسم الفرنسى بالمدرسة العليا، وعند وصولى كنت أشعر بتعب شديد وبعد الفحوص قرر الطبيب أن أوقف كل الأدوية التى كنت أتعاطاها منذ خروجى من المستشفى.

ويبدو أننى تجاوزت الحد فانخفض افراز الغدة الدرقية. أو يبدو أن ذلك الدواء الذى كنت أتناوله أوقفوا التعامل به بعد أن تبينوا أن له أعراضا سلبية.

كنت شديد التعب فى الأيام الأولى عصبيا وجسمانيا. وفى أحد الأيام أحسست وأنا أقرأ أننى أرى الحروف مزدوجة. وذهبت أبحث عن الممرضة ومرت أمامى فى الردهة ولم أستطع النداء عليها. فعدت أدراجى واستلقيت على السرير، وكنت أحس أننى سأموت. وساعد على سوء حالتى أن الجو على الجبال كان باردا وقت وصولى. وأصبحت اتعب من السير. استمرت فحوص الأطباء، وقرروا أخيرا كما نقل لى زميلى فى الحجرة بأننى أعانى من حالة تسمى Vegetative Neurosis أو نوع من العصاب. بدأت حالتى تتحسن بعد أن أوقفت الأدوية، وبدأت فى استعمال دواء جديد مهدئ. وجاءت يودكا مرة لزيارتى وتجولنا فى الغابات الجميلة.

وبدأت أعتاد على المكان ولم أكن أعرف متى سأغادره. وكنت أتصور أن حالتى شديدة وأننى لن اغادره إلا بعد مدة طويلة.

كونت صداقات مع النزلاء والممرضات ومع معارف زميلى فى الحجرة.

وفى يوم من الأيام جاءتنى زيارة من شخصيات عزيزة من مصر والسودان هم السيدة سيزا نبراوى والسيدة زوجة يوسف حلمى وأنور مقار ومحمد ابراهيم نقد الذى أصبح الآن السكرتير العام للحزب الشيوعى السودانى. كانوا فى جولة بالمجر فاتصلوا بيودكا التى كان رقم تليفونها لدى زملائنا فى فرنسا وأوصلتهم يودكا إلىّ.

وعندما رأيتهم أحسست أن كل الأمراض التى أشعر بها ذهبت عنى واختفت. قضوا معى اليوم واقترحوا علىّ أن أذهب معهم إلى مؤتمر فى احدى المدن المجرية وأعود معهم إلى بودابست. ذهبت إلى الطبيب وطلبت منه الإذن. فوافق على الفور وسمح لى بمغادرة المصحة بشكل نهائى. وقال لى إننى لا أحتاج إلى علاج آخر فى المصحة وأن حالتى جيدة وإن كان على أن أستمر فى تعاطى الدواء الذى كتبه لى لفترة من الوقت.

ويبدو أن سببا أساسيا لمرضى كان العزلة والغربة عن الوطن. وعند مجئ هذا الوفد لزيارتى، أحسست بأن قطعة من الوطن جاءت لزيارتى، وأحضروا لى معهم رسالة تشجيع وتقدير من اللجنة المركزية لحدتو كان لها تأثير السحر عليّ وساعدت على شفائى الكامل.

أحسست أن رفاقى فى مصر والسودان يهتمون بى رغم بعدى عنهم وأنهم يحتاجون إليّ. وقررت أننى يجب أن أتغلب بل وأقضى بإرادتى على كل الأمراض.

وعدت معهم. وأمضيت الليل فى منزل يودكا وذهبت فى الصباح إلى بيت الطلبة وثارت مشكلة اجرائية، ولكنى عدت اليه. كان محمد إبراهيم نقد يدرس الفلسفة فى بلغاريا وجاء لزيارة المجر فى أحد المؤتمرات ممثلا عن الحزب الشيوعى السودانى. وكانت أول مرة أتعرف فيها عليه. وبعد أن عاد إلى صوفيا استمرت مراسلاتنا.

أديت امتحاناتى بنجاح. وأديت امتحان الماركسية اللينينية باللغة الفرنسية وحصلت على امتياز– وكانت تقديراتى فى باقى المواد بين ممتاز وجيد.

فى الصيف يسافر الطلبة غير المقيمين فى بودابست إلى بلادهم وعادة فإن من يقيم فى بيوت الطلبة هم من سكان الأقاليم. وانتقلت إلى بيت طلبة جديد مؤقت فى الصيف.

ورغم أن أم يودكا وأسرتها كانت تحبنى وتتعاطف معى، إلا أنها كانت ترى أن علاقتى بيودكا لا مستقبل لها فكانوا يضغطون عليها لقطع هذه العلاقة ويعملون على أن تقيم علاقات مع أحد الشبان المجريين. ورأيتها مرة مع هذا الشاب فى حمام سباحة بلاتينوس وتركت لها خطابا شديدا بكت له كثيرا. ولكنى تفهمت بعد ذلك موقفها. واستمرت علاقات الود بيننا حتى سفرى. وإن لم تعد العلاقة السابقة قائمة.

عدت للدراسة فى الصف الثانى. وانتقلت للسكن فى بيت للطلبة فى الدور العلوى من المدرسة العليا التى ندرس بها. وسكنت فى غرفة كبيرة يسكن بها سبعة أشخاص، وكان ينام فى السرير المجاور لى شاب يدرس معى فى قسم اللغة الروسية يدعى «أنيدى» وكان يكتب الشعر. وكان يحب الفتاة التى تسكن فى الحجرة المجاورة لى فى بيت الطلبة الخاص بالطالبات والذى سكنت فيه أول الأمر. وكانت تدعى سوتش كاتالين أو (كاتى). وكانت فتاة ريفية رقيقة شديدة التهذيب. كانت فى حوالى العشرين من عمرها وكانت فى هذه الفترة تترك ضفائرها. ولم تكن كاتى تبادله الحب، وإن كانت تعامله بود وصداقة. وكانت تودنى وجاءت لزيارتى فى المستشفى عند مرضى.

اعتدت على الحياة فى بيت الطلبة الجديد وتصادقت مع العديد من الطلبة من مختلف الاقسام. ولم أكن ألتق بأى عرب ونادر ا ماكنت أتكلم العربية. وفى احدى المرات كنت أجلس فى مقهى بحديقة فندق «دونا»، ويبدو أننى تكلمت مع أحد باللغة العربية. وسمعنى

شخص يجلس بجانبى. وأتى للحديث معى وعرفنى بأنه يعمل سكرتيرا فى السفارة المصرية. دعانى أكثر من مرة لزيارته، وتحادثنا فى مختلف المواضيع بما فيها الأوضاع السياسية العالمية، والأوضاع فى المجر، وعرفته بنفسى واسمى، وقد حدث بعد ذلك عند محاكمتى أمام المحكمة العسكرية عام ١٩٥٩ أن قدم المصيلحى رئيس المباحث العامة فى شهادته أننى عشت فى المجر وبعض المعلومات التى نقلها بالتأكيد عن هذا الشخص.

أما بعد ذلك فقد كان معى عبد القيوم محمد سعد الذى خرج من السجن فى مصر وعاد إلى السودان وأرسله حزبه مندوبا للشباب السودانى فى اتحاد الشباب العالمى. وقد سعدت جدا بلقائه. فكانت قد تكونت بيننا صداقة فى عملنا الحزبى المشترك فى القاهرة والاسكندرية.

أما المرة الثالثة فكانت بعد حضور طاهر عبد الباسط الطالب السودانى فى كلية الاقتصاد. وبخلاف ذلك فقد التقيت بعبد الكريم جرمانوس المستعرب المجرى الشهير ومع بعض تلامذته من المستعربين. وقمت ببعض التراجم إلى اللغة العربية كنت أراجع صفها بنفسى على الحروف العربية فى إحدى المطابع المجرية. وبعد ذلك دفعوا لى بعض الفورنتات مقابل الترجمة. ولم أكن أنتظر شيئا فكنت مستعدا أن أقوم بذلك بلا مقابل. تعرفت فى السنة الثانية على فتاة مجرية فى قسم اللغة الألمانية اسمها «بالما» وترجمتها بالعربية «نخلة» ولم تكن تعرف غير المجرية وكانت تدرس الألمانية. ولم أكن أعرف شيئا من الألمانية فاضطررت للحديث معها بالمجرية فساعدنى ذلك على أن أحرز بعض التقدم فى اللغة. وكانت فتاة تمتلئ حيوية ونشاطا وكثيرة الكلام. وكنا نخرج معا للنزهة فى الغابات المجرية الجميلة. ورغم معرفتى الضئيلة باللغة المجرية فقد تكلمنا فى مواضيع مختلفة بما فيها المواضيع السياسية. فعرفت منها أنها تكره النظام الاشتراكى فى المجر وتهاجم السوفييت وتقول أنهم استولوا على أرض من المجر بعد الحرب العالمية الثانية. وكنت أناقشها وأدافع عن الاشتراكية وعن النظام الاشتراكى فى المجر. وكانت تحب التردد على الكنيسة أيام الآحاد وتحاول دعوتى إلى هناك وتغرينى بالموسيقى الجميلة التى تعزف فى الكنيسة. ولم تستمر لقاءاتنا كثيرا، فقد كان هناك عائق اللغة فضلا عن أننا لم نتفاهم سياسيا. ثم إننى تعرفت على فتاة يهودية كانت تزاملنى فى دراستى وكانت تعرف الانجليزية وكانت تتودد إلى منذ مدة فكانت تأتينى من وقت لآخر ببعض الفطائر التى تصنعها فى المنزل. ودعتنى لمنزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة بجانب مبنى الأوبرا. وكانت أمها مريضة ومتزوجة بغير أبيها الذى تقول أنه توفى فى الحرب. وكان زوج أمها لطيفا معها ويحسن معاملتها.

كنت أتردد على منزلها ونذاكر دروسنا معا ونخرج أحيانا للنزهة. ومرة قالت لى أنها تريد أن تحصل منى على طفل. ولم يكن بيننا أى اتصال جنسى. ولم يدفعنى ذلك إلى أن أقوم بهذا الاتصال. فكنت أشعر أن ذلك يجب أن يقوم على تفاهم كامل ونية للارتباط. ولم أكن

قد قررت ذلك. فضلا عن أننا كنا نختلف فى وجهات النظر السياسية. فكانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن امريكا والغرب. وكنا نتناقش فى ذلك كثيرا. ثم كانت وفاة أمها مما دفعنى إلى أن أحرص على علاقتى بها لمساندتها في محنتها .. وكان زوج أمها يريد ذلك أيضا. إلى أن كانت واقعة جعلتنى أقطع علاقتى بها. فعند مجئ عبد القيوم أردت تعريفه بها باعتباره من أعز أصدقائى. ولكنها لم ترغب فى ذلك عندما عرفت بأنه أسود. وكان لقاؤها به فاترا. ولم استطع أن أتسامح أن يكون لديها مشاعر عنصرية. فقطعت علاقتى بها على الفور. وابلغتها بذلك وبالسبب.

حاولت بعد ذلك أن تتودد لى ولكننى كنت حاسما. وساعدنى على قطع العلاقة اقتراب موعد الامتحانات. وكنت قد اعتدت الذهاب إلى احدى المكتبات فى بودابست للمذاكرة هناك وللاطلاع. وكانت كاتى تتردد على المكتبة فنلتقى هناك ونخرج معا فأوصلها إلى بيت الطالبات الذى تسكن فيه وأذهب أنا إلى بيت الطلبة.

كان من النادر أن تجد اللون الأسود فى المجر وكان لون عبد القيوم فاحما شديد السواد. وقد دعوته يوما إلى السباحة فى حمام «بلاتينوس». عندما وصلنا كانت الأنظار كلها تتجه إلينا. وعندما نزلنا إلى حمام السباحة التف الجميع حولنا كما لو كان عبد القيوم حيوانا غريبا وبدأوا أيضا يضايقونه ويعاكسونه ويلقون عليه الماء فاضطر إلى الخروج. واضطررنا لمغادرة المكان. وكان منظرا مشينا ومهينا. وقد عرفت بعد ذلك أن الاتجاهات العنصرية ظهرت وقد ازدادت انتشارا هناك خصوصا بعد انهيار النظام الاشتراكى وكثرت حوادث الاعتداء على السود.

أثر على هذا الحدث كثيرا وأثر كذلك بالطبع على عبد القيوم.

توثقت علاقتى بكاتى وكان ترددنا المشترك على المكتبة يجعل للدراسة والمذاكرة هناك مذاقا لطيفا. كانت كاتى شديدة الوداعة والتهذيب. ولهذا كان يحبها زملاؤها فى الدراسة وكذلك المدرسون وكانت تلتقى معى فى أفكارى السياسية وتتجاوب معى. وكانت شديدة الحساسية. وتوثقت علاقاتنا بشكل طبيعى دون أى جهد منها أو منى. ولم نعد نفترق تقريبا. وفى الصيف دعتنى لزيارة قريتها وسافرت معها وعرفتنى بوالديها. كنت أكبرها بثمانى سنوات، فهى من مواليد ١٩٣٤. وكانت عندما تعرفت بها فى العشرين من عمرها.

فى السنة الثانية أديت امتحاناتى بشكل جيد. والامتحان الأساسي هناك هو الامتحان الشفهى. والتقدير من خمسة فالامتياز يساوى خمس درجات. و ٤ درجات جيد. اما ٣ فهى مقبول. وقد أديت مختلف المواد بدرجة جيد أو امتياز. وأديت امتحان الماركسية اللينينية باللغة الروسية وحصلت على امتياز وحصلت على امتياز ايضا فى الادب الروسى وكذلك فى قواعد اللغة الروسية.وكنت أحب مادة الأدب. وقرأت وقتها بعض أعمال كبار الأدباء الروس مثل الحرب والسلام لتولستوى وما العمل لتشرنيشفسكى وقد أثرت على كثيرا صورة راخماتوف فى

وكان أحمد أكثر حرية منى، فيرسلونه إلى السوق لشراء احتياجات المنزل فعرف أشياء لم أعرفها. أما أنا فلم أكن أتحمل تلك المسئوليات وقد أثر ذلك على تكوينى فى طفولتى الأولى.

ولكن هناك بعض الأحداث الصغيرة مازلت أذكرها. ومنها أننى تعرفت بطفلة صغيرة سنها قريبة من سنى ويبدو أنها كانت تسكن فى نفس العمارة التى كنا نسكن فيها فكنا نلعب معا.

كان جدى لأبي يتاجر فى القطن. ولم أره ولكن يروون أن تجارته كانت رابحة لفترة ثم لقى خسارة كبيرة فى الأزمة الاقتصادية التى أعقبت الحرب العالمية الأولى وأوشك على الإفلاس.

وكانت جدتى لأبى ـ ونقول عنها «ستى» ـ نحيفة البنية وفى غاية النشاط وذات شخصية قوية وعبارات لاذعة. وكانت الأمثال الشعبية تحتل نصيبا كبيرا من أحاديثها.

وكان يومها مليئا بالعمل من الصباح حتى المساء. ولا تقعد أبدا حتى تذهب للنوم. وكنا نحب أن نأكل الحمام المحشى بالأرز الذى تقدمه، فكانت تتقن صناعته وكنا نعتقد أنه ليس هناك من يستطيع منافستها فى إعداده.

وأذكر أن بيت العائلة فى زفتى كان يتكون من بنايتين متجاورتين تحيط بهما حديقة واسعة وخلفهما أرض فضاء كانت تزرع ببعض المحاصيل أعتقد أنها فاكهة. كل مبنى من طابق واحد يتكون من خمس حجرات واسعة وحجرة بالطابق العلوى. وإلى جانب المنزلين منزل صغير من حجرتين كان عمى عوض يستخدمه مكتبا له. ولا أعرف كيف كان استخدامه قبل ذلك. ولكننى سمعت أنه كانت تعقد فيه اجتماعات للإعداد للهيئة الثورية فى زفتى عام ١٩١٩.

وما أذكره أن المنزل الذى يقع على اليمين إذا نظرنا إلى محطة السكة الحديد المجاورة، أصبحت تسكنه «ستى» وحدها بعد أن تفرق الأبناء جميعا فى القاهرة باستثناء عمى الدكتور عبد العزيز الذى سكن مع زوجته وولديه وبنته فى المنزل الذى يقع على اليسار. وكان قد تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل ابن خال اسماعيل باشا صدقى عدو الوفد اللدود والذى كان رئيسا للوزراء عام ١٩٣٠ عندما حكم البلاد لصالح السراى حكما دكتاتوريا إرهابيا وقمع مظاهرات الطلبة والشباب والعمال قمعا إرهابيا.

وقد نما وترعرع أولاد عمى عبد العزيز فى زفتى. أكبرهم ممدوح الذى أتم دراسته الثانوية فى مدرسة كشك بزفتى ثم انتقل إلى القاهرة للدراسة فى كلية الطب التى أنهاها وأصبح طبيبا. وكانت تربطنى به علاقة مميزة أكثر من باقى أولاد أعمامى، لأنه اتجه وهو طالب فى المدرسة الثانوية إلى الأفكار الاشتراكية ثم التحق بعد ذلك بالحركة الشيوعية واعتقل فى

هذه القصة. وفيه كان تشرنيشفسكى يصور الثورى المحترف الذى تزوج الثورة ولهذا لم يجد وقتا أو مجالا ليتزوج غيرها. وكان ينظم وقته وحياته بالشكل الذى يخدم العمل الثورى. وكان ذلك يوجه لقاءاته وأسلوب حياته بل وطعامه أيضا. فكان لا يأكل إلا الأشياء المفيدة حتى يكون فى صحة جيدة ويكون أقدر على خدمة العمل الثورى.

لم يكن صعبا عليّ أن أحصل على امتياز فى الماركسية اللينينية التى درستها مبكرا. أما باقى الطلبة فكانت هذه المادة ثقيلة بالنسبة لهم، وكانوا لا يدرسونها إلا ليجتازوا الامتحان. وفى الماركسية اللينينية كانوا يدرسون تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى وتاريخ الحزب الشيوعى المجرى. وقرأت كتابا لماتياس راكوشى رئيس المجر فى ذلك الوقت وسكرتير عام الحزب الذى كان يسمى حزب العمال المجرى. وكانت المجر تنقل الخبرة السوفيتية نقلا حرفيا، وتقوم أجهزة الاعلام ليل نهار بالدعاية للاتحاد السوفيتى مما كان يستفز المشاعر الوطنية للمجريين.

وأذكر فى أحد الأيام أن كنت راكبا الترولّلى باس وكان يجلس فى العربة رجل يتحدث تحت تأثير الخمر. وأخذ يقرأ أسماء الشوارع «شارع مايكوفسكى» «شارع لينين» الخ، ثم يوجه الحديث لباقى الركاب مازحا «يبدو أن أسماء الشوارع أصبحت مجرية أكثر من اللازم» فينفجر الركاب ضاحكين.

وكانت المعارضة مكبوتة، ولهذا كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة – مثل الالتفاف حول الكنيسة. وكان من المناظر المألوفة أن يرفع المجريون قبعاتهم عندما يمرون بجوار الكنيسة وكان ذلك تعبيرا عن المقاومة.

كانت المجر فى الحرب العالمية الثانية متعاونة مع ألمانيا وكانت لفترة جزءا من الامبراطورية النمسوية. ولهذا نجد كبار السن فى العادة يعرفون اللغة الالمانية. أما الشباب فيدرسون اللغة الروسية فى المدارس كلغة أجنبية أولى. ولم تنشأ علاقة المجر مع الاتحاد السوفيتى إلا بعد دخول القوات السوفيتية للمجر وأثر ذلك على سير التطورات السياسية فى المجر خصوصا فى الفترة الستالينية.

ولم يكن لدى أدنى شك أنه جرت هناك أي عمليات من القهر أو الضغط. وكنت مؤمنا أن كل شيء تم بطريقة ديمقراطية وباختيار حر من الجماهير.

فى مارس ٥٣ نزل علينا نبأ موت ستالين كالصاعقة. وقد تأثرت لذلك كثيرا. وسرت فى الجنازة التى سارت فى المجر تأبينا له. وكنا نحب ستالين ولا نفصل بينه وبين حبنا للاشتراكية وحبنا للاتحاد السوفيتى. وكانت هذه هى مشاعر كل الشيوعيين المصريين وليس الشيوعيين وحدهم بل كل القوى الديمقراطية والتقدمية وأذكر أن خالد محمد خالد كتب فى ذلك رثاء ختمه بقوله:

طبت حيا وميتا يا رفيق.

أما كمال عبد الحليم فكتب قصيدة رثاء كان يختمها بأبيات معناها:

إذا كان لينين قد أعطانا بعض أجزاء الحياة فإن ستالين قد أعطانا كل أجزاء الحياة.

كان لموت ستالين والتغيرات التى بدأت تحدث فى الاتحاد السوفيتى، وتخفيف القبضة الحديدية التى كان يمثلها حكم ستالين، أن انتقل نفس الوضع إلى المجر. وبدأت تظهر انتقادات للحكم فى المجر وإن كان على استحياء، وبدأت لأول مرة أسمع من الناس انتقادات بل وهجوما. وأذكر أنى كنت أستقل الترام فيسألنى أحد الركاب من العمال عن جنسيتى، فقلت له: إنى مصرى. قال: أنا أحسدك لأن لديكم حرية أما عندنا فلا حرية. هناك حرية فى الغرب ولا توجد عندنا وبدأ يهاجم الأوضاع فى بلاده. فوجئت أن أسمع ذلك من أحد العمال، فى بلد يحكمه العمال.

لم يخفف ذلك من اقتناعى بالنظام الاشتراكى ولكننى بدأت أتبين صورة أكثر واقعية للمشاكل التى يعيشها النظام الاشتراكى فى هذه الفترة. وأن بناء الاشتراكية ليس بالأمر السهل. وأنه من الخطأ نقل ما يطبق فى الاتحاد السوفيتى دون دراسة الظروف المحلية واستعداد الناس. ودخلت فى مناقشات كثيرة مع زملائى الطلبة وخصوصا أولئك الذين يسكنون معى فى الحجرة فى بيت الطلبة.

وأذكر مرة عندما احتدت المناقشة مع أحد الطلبة أن قال لى: «لماذا أنت هنا، ولماذا لا تذهب إلى بلدك».

كان أخى أحمد يرسل لى من وقت لآخر بعض بدله. وقد اعتدت على ذلك لفترة طويلة. وكان حجمه مثل حجمى فلم أكن أحتاج لتفصيل أو شراء أى بدل. وأذكر أننى لم أشتر حتى بلغت سن الستين أى بدلة ولكننى كنت أستعمل ما يهديه لى أخى. وأذكر مرة أننى كنت في زيارة لأحد أقارب الفتاة اليهودية التى كنت أعرفها، فسألنى أحد الشباب: «هل تعطينى هذه البدلة الرأسمالية، وتأخذ بدلتى الاشتراكية؟» وحدث أكثر من مرة أن سرقت بعض بدلى فى بيت الطلبة.

توثقت علاقتى بكاتى وسألتنى مرة أن والديها يسألانها عن مستقبل هذه العلاقة. فقلت لها أنى مستعد للزواج منها إن كانت على استعداد للذهاب معى للقاهرة. فأنا مصيرى العودة. ولكنها لم تكن تريد ترك بلدها. واستمرت علاقتنا. وكانت شخصية كاتى تثير احترام الجميع. وقد احترم زملاؤنا هذه العلاقة وكانت هادئة مريحة، ولا أذكر أننا تشاجرنا أو اختلفنا بل كان تفاهمنا كاملا. وكان لهذه العلاقة تأثير ايجابى على دراستنا. فكنا نساعد بعضنا البعض. كنا نتكلم معا باللغة الروسية، ولكن قبل امتحان اللغة المجرية أخذنا نتحدث باللغة المجرية. وأديت

الامتحان بنجاح. وفى امتحان آخر العام أديت امتحان الاقتصاد السياسى باللغة المجرية وحصلت على امتياز وحصلت على امتياز أيضا فى الماركسية اللينينية والفونيتيكا الروسية واللغة الروسية وتاريخ الاتحاد السوفيتى والأدب الروسى والسوفيتى وحصلت على درجة جيد فى اللغة المجرية ودرجة مقبول فى جغرافيا الاتحاد السوفيتى. وقدمت رسالة الدبلوم عن قصيدتين لماياكوفسكى هى «فلاديمير ايليتش لينين» و «حسنا» وحصلت على درجة ممتاز.

وحصلت، على شهادة إنهاء الدراسة وأصبح من حقى العمل كمترجم من اللغة الروسية وطبقا للنظم التى كانت مطبقة فى البلاد الاشتراكية فإن الدولة كانت ملزمة بتعيين الخريجين واستدعيت إلى الاذاعة فى قسم شئون الأفراد. وسألونى بعض الأسئلة وأفهمونى أنى مرشح للعمل فى الإذاعة. واستدعوا كاتى وسألوها بعض الأسئلة، منها سؤال عن علاقتها بى. فقالت أن هذا موضوع شخصى.

ولكننى لم أكن أنوى البقاء والعمل فى المجر، بل اتصلت فور انتهاء الدراسة باتحاد الشباب المجرى وطلبت منهم مساعدتى فى السفر إلى باريس على أن يدبر زملاؤنا هناك سفرى إلى القاهرة. انتظرت حوالى شهر دون أى رد. فكتبت خطابا شديدا إلى اللجنة المركزية لحزب العمال المجرى وأخبرتهم أن الرفاق فى مصر يحتاجون إلى، وأننى لم آتي إلى المجر للبقاء إلى ما لانهاية وناشدتهم مساعدتى فى العودة، ويكفى أن يرتبوا لى ذهابى إلى برلين الشرقية. وكنت قد اتصلت بزملائنا فى باريس وطلبت منهم أن يرتبوا لحضورى إلى باريس ويعدوا لسفرى إلى القاهرة.

فى الصيف انتقلت من بيت الطلبة الذى كان يقع فوق المدرسة العليا ونقلت إلى مكان آخر فى منتصف المدينة وبعد فترة وصلنى خطاب من اللجنة المركزية لاتحاد الشباب المجرى بإعطائى جواز مرور إلى برلين الشرقية.

كانت كاتى قد بدأت تعمل فى الاذاعة أما أنا فأخبرتهم أننى سأعود إلى بلادى.

وكنت أخبر كاتى بالتطورات أولا بأول وكانت تلاحظ مدى إلحاحي على المسئولين لمساعدتى فى السفر. فلم يصدر منها أى اعتراض. وعندما أخبرتها بميعاد سفرى بدت متماسكة. ولكن فى يوم الوداع السابق لسفرى انفجرت باكية. أعطيتها عنوانى فى باريس لتراسلنى عليه باسم «فيكتور».

لم أقل لأحد بخلاف كاتى أنى مسافر إلى باريس. أما يوتكا فقلت لها أنى ذاهب إلى براغ فأصرت على الحضور لمحطة السكة الحديد لتوديعى.

وانتهت بذلك فترة إقامتى فى المجر وبقيت ذكريات عن المجر بعضها حلو وبعضها مر. ولكننى أحببت هذه البلاد لأننى عشت بين أهلها.

واستمرت مراسلاتى مع كاتى فى كل الظروف. وكان سفرى قبل صيف ١٩٥٥، وكانت الأوضاع السياسية تغلى فى المجر. وكان النقاش على أشده داخل حزب العمال المجرى. وكانت هناك انتقادات للتجربة السابقة. مثل الإسراع بفرض المزارع التعاونية واجبار الفلاحين على دخولها، ومثل انتقاد النقل الحرفى من الاتحاد السوفيتى وعدم مراعاة الظروف المحلية. وكان الجو مهيأ للأحداث التى تمت بعد ذلك فى صيف ١٩٥٦ والتى أدت لتدخل القوات السوفيتية. وكانت كاتى تكتب لى دائما وكتبت لى بعد الأحداث أنها التقت بشاب فى مخبأ أثناء القصف وتوثقت علاقاتهما وأنهما ينويان الزواج. وقالت أنها حكت لهذا الشاب عن علاقتها بى و أنه قابل ذلك بفهم واحترام وأنه يكن لى مشاعر طيبة رغم أنه لايعرفنى إلا من خلال حديثها عنى.

وصلنى خطابها هذا بعد أن كنت قد وصلت إلى القاهرة. وقد تزامن مع أحداث المجر العدوان الثلاثى على مصر. واستمرت مراسلاتنا وتوقفت فترة عند اعتقالى فى ١٩٥٩ ولكن استأنفت المراسلات بعد خروجى من السجن. وكانت كاتى قد تزوجت ورزقت بولد وبنت بعثت لى بصورهما. وفى عام ١٩٦٨ زرت المجر وبحثت عنها فى الاذاعة ووجدتها وأمضينا أياما قليلة. ثم جاءت فى السبعينيات هى وزوجها إلى مصر لانتقال زوجها للعمل هناك فى القسم التجارى وكنت وقتها أعمل فى موسكو ولكننى كنت أتردد على بودابست فأزورها هى وزوجها وعرفتها بزوجتى وابنتى وهى الآن تراسل زوجتى بانتظام وقامت بينهما علاقات وثيقة من الود والمحبة. وهى الآن جدة مات زوجها ولم تنقطع المراسلات بيننا عن طريق زوجتى.

***

السفر إلى فرنسا

كان معى فى المقصورة أحد المجريين المسافرين ودار بيننا حديث طويل باللغة المجرية تطرق إلى مواضيع عديدة لا أذكرها الآن، ولكن أذكر أن الحديث كان كله باللغة المجرية. وأحسست أننى قد تقدمت فى معرفتى باللغة المجرية بحيث استطعت استخدامها للقيام بهذا الحديث الطويل والمتنوع.

قطع القطار تشيكوسلوفاكيا حيث نزل هذا المجرى فى سلوفاكيا فى القطاع الذى يسكنه المجريون ثم انطلق القطار شمالا إلى المانيا ثم وصل إلى برلين حيث نزلت.

وكان في انتظاري يوسف حلمى ومعه احدى معارفه من الألمانيات.

وكان يوسف حلمى قد دبر خروجه من مصر عام ١٩٥٤ وعاش فى فرنسا بجواز سفر مزور. وكان يحتاج للسفر من فرنسا من وقت لآخر عندما يحين ميعاد انتهاء مدة اقامته. وقد التقى بى وقدم لى جوازاً.

وقد سرنى أن أحصل على جواز أنتقل به داخل فرنسا وخارجها عند اللزوم، ففى المرة الأولى لم تكن معى أية أوراق مما أدى إلى اعتقالى بعد ذلك ثم طردى.

لم يكن سور برلين قد بنى بعد، وكان من السهل الانتقال بالمترو بين شرق برلين وغربها. رغم أن ذلك كان يتم تحت رقابة شديدة من بوليس المانيا الشرقية. ركبنا المترو من برلين الشرقية وانتقلنا إلى برلين الغربية، حيث كانت تقطن صديقة يوسف حلمى الألمانية. ومن هناك اشترينا تذكرتى طائرة إلى جنيف لى وليوسف حلمى.

كان هناك فرق كبير بين برلين الشرقية والغربية. فبينما كان يسود برلين الشرقية جو من التقشف الشديد. كانت برلين الغربية مليئة بالأضواء والبضائع التى تملأ المحلات. وكان الغرب يحرص على أن يحولها إلى لوحة اعلانات لجذب سكان المانيا الشرقية والدعاية ضد نظامهم.

ركبنا الطائرة إلى زيورخ ومنها أخذنا الطائرة إلى جنيف. وبينما كنا فى الطائرة وكلانا بجواز سفر مزيف قال لى يوسف حلمى ألا تشعر بالاغتباط وأنت تخدع كل هذه الحكومات؟! وضحكنا.

فى محطة جنيف كان ينتظرنا خالد محيى الدين الذى دعانا لتمضية الليلة عنده. وكان خالد فى فترة نفيه إلى سويسرا بعد أن أختلف مع زملائه فى مجلس قيادة الثورة. وكان يسكن مع زوجته فى أحد المنازل بمدينة بجنيف وقد رحب بنا خالد وزوجته وأكرم ضيافتنا وحدثنا عن حياته فى سويسرا وكيف أنه لا يستطيع التأقلم معها وعن شوقه للعودة إلى الوطن.

وفى الصباح ركبنا معه سيارته التى قادها بنفسه وذهبنا إلى الحدود السويسرية الفرنسية. وتوجهنا إلى إحدى القرى الفرنسية الواقعة على حدود جنيف والتى اعتاد السويسريون أن يذهبوا إليها لشراء بعض حاجياتهم وعندما عبرنا الحدود لم يسألنا حرس الحدود عن جوازات السفر. وسألونا فقط إن كان كل شيء على مايرام. قلنا: نعم. ودخلنا القرية الفرنسية حيث تركنا خالد محيى الدين. وركبنا القطار إلى باريس.

عدت إلى باريس ثانية بعد غياب أربع سنوات، وبعد أن طردنى البوليس الفرنسى منها. ولكن فى هذه المرة كان معى جواز سفر.

وقد روى لى أخى، أنه ذهب إلى باريس عدة مرات بعد طردى، فكان البوليس الفرنسى يستدعيه لتشابه الأسماء، ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يثبت له أنه شخص آخر غيرى.

كان يوسف حلمى يسكن فى منزل فى منطقة فى ضواحى باريس اسمها مالاكوف وكان منزلا مستقلا مكونا من حجرتين ومطبخ ودورة مياه وحديقة. دعانى للسكن معه وكان يوسف حلمى إنسانا مرحا، ويحب أغانى سيد درويش بالذات وكان يدافع دائما عن تراث سيد درويش وكون جمعية لهذا الغرض فى مصر. وكان رجلا وطنيا وديمقراطيا. اصطدم مع جمال عبد الناصر عندما بدأ المفاوضات مع الانجليز وتقرب من الامريكان وعندما حل الأحزاب وألغى الدستور والحياة النيابية. وكان فى منفاه يكتب الرسائل لجمال عبد الناصر ينتقد فيها سياسته ومنها رسائل تتعلق بالحريات الديمقراطية وأخرى خاصة بالسلام بين مصر واسرائيل الذى كان يوسف حلمى وهو السكرتير العام لحركة السلام المصرية يؤمن بضرورة تحقيقه والتفرغ للنضال وتوجيه الطاقات من أجل تحرير البلاد من الاستعمار وتنميتها.

وقد دعا إلى مؤتمر دولى تشترك فيه مصر والدول العربية فضلا عن الدول الخمس الكبرى لبحث قضية السلام بين اسرائيل والبلاد العربية. وقد نشرت آراؤه فى بعض الصحف الاسرائيلية.

وفى أحد الأيام جاء فاروق ثابت لزيارتنا من القاهرة ولم أكن أعرفه من قبل. ولكنه كانت تربطه علاقة نسب بزوجة يوسف حلمى. وقد ساعد يوسف حلمى فى هربه وخروجه من مصر. أمضى معنا عدة أيام واتفقت معه على أن يستقبلنى فى القاهرة عند حضورى ويتولى أمور إقامتى وأمانى.

بعد حضورى إلى باريس بدأت الإعداد للعودة وكان ذلك يحتاج إلى بعض الاستعدادات استمرت لمدة عام.

وعندما كنت فى بودابست تلقيت رسالة من رفاقى تخطرنى بتحقيق الوحدة بين منظمتنا حدتو وأربع منظمات أخرى صغيرة هى حدتو ت.ث و «النجم الأحمر» و«طليعة الشيوعيين»

و«نواة الحزب الشيوعى المصرى» وانني اخترت عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الجديد الذى سمى «الحزب الشيوعى المصرى الموحد». وكان التنظيم الأكبر هو حدتو. ولكن الوحدة تمت فى ظروف كانت حدتو تتخلى فيها عن موقفها الذى اتخذته بعد قيام ثورة يوليو بتأييدها وانتقلت فى ١٩٥٣ إلى الدعوة للاطاحة بالدكتاتورية العسكرية، وهو نفس ماكانت تدعو إليه المنظمات الصغيرة الأخرى. وتمت الوحدة فى ظروف سياسية تمثل هزيمة لخط حدتو فى تأييد الثورة. وكان من تنازلات حدتو لإتمام الوحدة وقف عضوية يونس (هنرى كورييل) فى اللجنة المركزية والحزب إلى أن يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه (إشارة إلى مانشر فى جريدة الأومانيتيه بمناسبة قضية مارتى). وكان هناك شرط آخر يتعلق بكمال عبد الحليم واستبعاده من القيادة.

فى هذه الظروف وصلت إلى باريس وكنت العضو القيادى الوحيد فى مجموعة باريس والتى كانت تسمى حركيا (مجموعة روما) وكان يونس موقوفا. وكان من الطبيعى أن أكون مسئولا عن المجموعة. وأصبحت فى وضع حرج، فكان على أن أنفذ القرار الحزبى بوقف يونس رغم عدم اقتناعى بسلامته. ووسط مجموعة تعتبر يونس قائدا وموجها لها. ووجدنا حلا لذلك بأن يقتصر يونس على العمل الديمقراطى وذلك فى مجالين الأول هو «التضامن مع المسجونين السياسيين» والثانى «قضية السلام بين العرب واسرائيل» وقد قام فى هذين المجالين بعمل كبير وساعدته فى ذلك جويس بلاو. فجرى الاتصال بالكثير من القوى من مختلف الاتجاهات فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية للمطالبة بالافراج عن المسجونين والمعتقلين الشيوعيين. وجمعت من أجلهم الأموال والأدوية التى أرسلت لهم فى السجون. وقام ايضا بعمل كبير فى الاتصال بالقوى التقدمية والديمقراطية فى اسرائيل للدعوة للسلام بين العرب واسرائيل على أساس قيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الاسرائيلية، وزاد من حرج الموقف وتوتره أننى اختلفت سياسيا مع يونس حول الموقف من النظام الحاكم فى مصر. فمنذ باندونغ بدأت أعتقد بضرورة تغيير موقف المعارضة من عبد الناصر إلى تأييده. وكتبت هذا الرأى إلى زملائنا فى مصر. وكان زملاؤنا المعتقلون فى الواحات الخارجة قد بدأوا يتخذون نفس الموقف ولم يتغير الموقف الرسمى للحزب فى الخارج إلا بعد ذلك. أما يونس فكان يرى ضرورة الاستمرار فى معارضة «الدكتاتورية العسكرية» ودارت بيننا مناقشات كثيرة وخلافات ساعدت فى خلق جو من التوتر.

انتقلت للسكن مع يوسف حزان وهو عضو بارز فى المجموعة. كان يتمتع بالجنسية الفرنسية ولكنه ولد وعاش وتعلم فى مصر وكان يعتبر نفسه مصريا وهو يتكلم ويقرأ العربية كأحد أبنائها. وقد طرد من مصر عام ١٩٤٨ فجاء إلى فرنسا وانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى، إلى أن صدر قرار من مجموعة حدتو بالخارج بالانسحاب من الحزب وتكوين مجموعة خاصة بالحزب المصرى فى الخارج. فاستقال من الحزب لأنه اعتبر نفسه منتميا إلى

الشيوعيين المصريين. وهو شديد الحب لمصر والمصريين ويعانى معاناة كبيرة لأنه لا يستطيع العودة إلى مصر، وقد جاء إلى مصر فى السبعينيات مع مجموعة سياحية، وجاء مرة أخرى بعد ذلك. ولكنه بعد وصوله إلى الفندق جاءت قوات المباحث التى أبلغته بأنه ممنوع من دخول الأراضي المصرية. وجرت مناقشة بينه وبين الضابط الذى أبلغه بذلك، فاعتذر له باحتمال وجود خطأ أو تشابه أسماء. ورحل فى نفس اليوم إلى فرنسا. ومازال يعيش فى فرنسا ويعتبر محطا للقاء المصريين من مختلف الاتجاهات الذين يعتبرونه صديقا. وله اصدقاء كثيرون من الفلسطينين وقد منحه ياسر عرفات هو وهنرى كورييل وساما لمساعداتهم العديدة للقضية الفلسطينية. وإلى جانب المصريين فهو مازال مستمرا فى مساعدة الشيوعيين السودانيين بكل الوسائل استمرارا للقضية التى كرس كورييل حياته لها. ومن المعروف أن عبد الخالق محجوب السكرتير العام السابق للحزب الشيوعى السوداني والذى أعدمه نميرى كان عضوا قياديا فى حدتو قبل انتقاله إلى السودان وتكوين الحركة السودانية للتحرر الوطنى ثم الحزب الشيوعى السودانى.

عشت مع يوسف حزان فى حجرة بمرافقها بالدور الأرضى بشارع باتينيول بباريس وبدأت معه الترتيب لعودتى إلى القاهرة اختيار جواز السفر. ترتيب خط السير. الاتفاق مع زملائنا فى القاهرة وقد رتبت الأمر مع فاروق ثابت فى مصر. ومع الزملاء فى السودان. وكان أحد الرفاق السودانيين موجودا فى باريس فرتبت معه أمر هربى إلى السودان.

وفى أثناء سكنى مع يوسف حزان أو (سوسو) كما اعتاد أصدقاؤه أن يطلقوا عليه. تكونت بيننا علاقة صداقة وثيقة وألفة. كانت شقته عبارة حجرة للنوم والاستقبال ودورة مياه ومطبخ. وكانت هناك كنبة يستخدمها كسرير فى المساء. وسرير سفرى أستخدمه لنومى فى نفس الحجرة. وكان يخرج مبكرا للعمل ولا يأتى إلا فى المساء. وكنت أقوم بتحضير غدائى. فأشترى شريحة من اللحم أشويها ومعها بعض الخضروات فى العلب المحفوظة وبعض السلاطة. وكثيرا ما كنت أتناول عشائى فى محلات السجق المنتشرة فى بيجال. كنت أشترى سندوتشا من السجق وبعض البطاطس المحمرة فى علبة من الورق وكان المنزل يقع قريبا من حى بيجال.

أعد معى سوسو بدقة مشروع سفرى وأعد لى جواز السفر. وسافر معى بالقطار إلى روما. وعند الحدود جاء ضابط الجوازات الايطالى وحملق طويلا فى جواز سفرى وقال بالإيطالية «عشرون سنة» وهي سن صاحب الجواز الذى أعطاه لى. وتأملانى بدقة ثم أعطيانى الجواز. وكان سوسو وأنا بالطبع فى حالة من التوتر وقد حبسنا أنفاسنا فى انتظار نتيجة الفحص، وعندما سلمنى الجواز تنفست الصعداء وكذلك سوسو. وقد كنت وقتها فى الثلاثين من عمرى ولكننى كنت أبدو أصغر سنا. وقد يظن الكثيرون أننى فى العشرين. وكانت هذه هى نقطة الضعف فى هذا الجواز. ولكننا لم نجد شخصا آخر فى سن مقاربة لى يتطوع لى بجوازه.

ووصلت إلى روما وافترقت عن سوسو الذى كان متوجها إلى ميلانو. وكنت قد حصلت على اسم أحد الفنادق القريبة من محطة القطار وأخذت تاكسى وأعطيته اسم الفندق، ولكن سائق التاكسى سار بى مسافة طويلة ووصل أخيرا إلى الفندق ليأخذ أجرا أعلى. وكانت هذه أول تجربة لى مع سائقى التاكسى الايطاليين فى النصب.

ذهبت إلى شركة الطيران لأحجز مكانا فى طائرة تذهب إلى الخرطوم ولا تتوقف فى القاهرة. ولم أجد ألا طائرة تقوم بعد أسبوع ولكن الأماكن كلها كانت مشغولة. وضعت اسمى على قائمة الانتظار. وكان على أن أمضى أسبوعا كاملا فى روما بمفردى انتهزته لكى أشاهد معالم روما. تلك المدينة الجميلة ذات التماثيل والآثار التى ترجع إلى عصور قديمة. وقد بهرتنى المدينة وأعجبت بها. واستخدمت مواصلاتها وتجولت فى شوارعها. وكنت أمر كل يوم على شركة الطيران عسى أن أجد مكانا لى على الطائرة المتجهة مباشرة إلى الخرطوم.

وفى اليوم المحدد أخبرونى فى شركة الطيران أن الأماكن كلها مشغولة، ولكن على أن أذهب إلى المطار فقد أجد مكانا فى آخر لحظة.

وذهبت إلى المطار وفى اللحظة الأخيرة نادونى لأقوم بإجراءات السفر. فأسرعت ودخلت وركبت الطائرة وأنا فى غاية الانفعال. فقد كنت أريد الإسراع بالسفر، وكنت متوترا لأننى أحمل جواز سفر مزورا. ومررت بالجوازات وتركونى أمر دون أن ينظروا إلى جوازى. ولم أشعر إلا وأنا أجلس على مقعدى فى الطائرة. وحل ميعاد قيام الطائرة ولم تقم. وبدأ يدور الهمس بين الركاب. ثم صعد إلى الطائرة أحد العاملين بالجوازات وطلبوا جوازى. ودق قلبى سريعا. وطلبوا منى الخروج معهم فذهبت إلى ضابط الجوازات حيث ختم الجواز وتبين أن تعطل قيام الطائرة يرجع إلى أن راكبا بالطائرة هو أنا لم يختم جوازه وعدت إلى مكانى فى الطائرة بين نظرات الركاب. وتحركت الطائرة أخيرا وطارت فى الجو وكان خط سيرها هو الخرطوم ثم جنوب أفريقيا. وكنت أجلس فى كابين به أربعة أشخاص من البيض فى جنوب أفريقيا كانوا ينظرون إلى شذرا.

ووصلت أخيرا إلى الخرطوم. وكنت الوحيد الذى ينزل فى الخرطوم. أما الباقون فكانوا متوجهين إلى جنوب أفريقيا. وكان مطار الخرطوم فى ذلك الوقت شديد التواضع. استقبلنى موظف المطار. وهو سودانى. وكان يتحدث معى بالانجليزية وأعطانى ورقة بيانات لأملأها مكتوبة باللغة الانجليزية. وقد رحب بى وعرض على أسماء الفنادق التى يمكن أن أنزل بها وأوصانى بفندق «جراند هوتيل» ركبت أتوبيس المطار إليه.

وكان معلوما لى أن بعض العاملين فى هذا الفندق أعضاء فى الحزب الشيوعى السودانى. كان الوقت أغسطس، وكان الجو شديد الحرارة. وكانت المراوح تعمل باستمرار.

وكان الماء ينزل حارا من الصنبور، فلم أكن فى حاجة لأى ماء ساخن. بل كنت أملا

البانيو وأغوص فى ماء حار.

ذهبت فى اليوم التالى إلى «جريدة الميدان» صحيفة الحزب الشيوعى السودانى وسألت عن عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب فلم أجده. ولكن اتصل بى أحد أعضاء الحزب بعد ذلك ووجهوا لى نقدا شديدا للذهاب إلى الميدان، فإن ذلك يتعارض مع الأمان نظرا لأوضاعى. وطلبوا منى عدم زيارة هذه الأماكن العامة. وسيدبر الحزب باستمرار طريقة الاتصال بى.

كان الحزب يتمتع ببعض الحريات. فكانت له جريدته وكان له بعض النشاط القانونى. ولكن هذه الحريات كانت مهددة بالسلب فى أى وقت ورتب لى ميعادا مع عبد الخالق محجوب. وكنت أعرفه من القاهرة. وأذكر يوم خروجه من المصحة من بعد أن أجرى عملية فى صدره بعد إصابته بالسل. وكان باقى رفاقنا فى المعتقل، التقيت به مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وكان فى حاجة للسفر إلى الخرطوم. وكان لابد من تدبير المال لذلك. وقد قمت بتدبيره.

وكان عبد الخالق قبل مرضه عضوا فى اللجنة المركزية لحدتو فى وقت كان الصراع على أشده بين «اليونسيين نسبة إلى يونس (هنرى كورييل) والعادليين نسبة إلى عادل (عبد المعبود الجبيلى). واعتقل هنرى كورييل وعبد المعبود الجبيلي وكان عبد الخالق محجوب من أعنف المعارضين للعادليين. وكان لليونسيين أغلبية ضئيلة فاتخذوا قرارا بطرد العادليين أثناء غياب يونس. وحدث الانقسام.

عاد عبد الخالق إلى السودان بعد خروجه من المصحة واستقلت الحركة السودانية للتحرر الوطنى التى تحولت بعد ذلك إلى الحزب الشيوعى السودانى.

التقيت فى السودان أيضا بالتيجانى الطيب وتعددت لقاءاتنا وسألته عن الصديق والزميل القديم عبد القيوم محمد سعد. فقال لى أن علاقته بالحزب قد أصبحت هامشية. وأنه يعمل مدرسا. ورتب لى لقاء معه. وتذاكرنا معا ذكريات الأيام القديمة التى عملنا فيها معا فى قيادة «حدتو». وأذكر أن عبد القيوم عندما قابلته فى بودابست كان كثير الانتقاد لعبد الخالق محجوب ولا أعرف إن كان وضعه الجديد نتيجة لخلافات بينه وبين عبد الخالق محجوب أم أن عبد القيوم بعد أن أمضى عقوبة السجن وأبعد إلى السودان آثر أن يخفف من نشاطه أم أن السبب هو خلافات بينه وبين القيادة. لم يحدثنى عبد القيوم فى الخرطوم عن أى شيء من ذلك.

وتعددت لقاءاتى مع عبد الخالق. وناقشنا الأوضاع فى مصر والأوضاع فى السودان. والتقيت مع الشفيع ومع غيره.

الحملة التى شنها جمال عبد الناصر ضد الشيوعيين وأمضى خمس سنوات فى السجن. وقد واصل الدكتور ممدوح بعد خروجه من السجن عمله كطبيب. عمل فترة فى ميت غمر ثم انتقل للعمل فى مستشفى دار الشفاء بالقاهرة. وكان محبوبا فى أى مكان يعمل فيه لخلقه الرفيع وطيبته الشديدة وحرصه على مساعدة الجميع. وقد انضم إلى حزب «التجمع» عند تأسيسه وكان يعمل فى قيادة منطقة القاهرة، وكان نشاطه الأساسى فى الوايلى حيث مقر مستشفى دار الشفا. وكما كان مخلصا لعمله المهنى فقد أخلص أيضا فى العمل السياسى دون ادعاء أو ضجيج، وكان معروفا بتواضعه الجم وحبه للناس ومساعدتهم. وقد توفى بعد الأربعين بقليل إثر أزمة قلبية كانت الأزمة الثانية التى داهمته. وكانت الأولى عندما كان يقوم بدراسات عليا فى انجلترا فى السبعينيات.

أما أبوه عبد العزيز فقد كان طبيبا وقد توفى أيضا فى سن مبكرة. قبل أن يعرف أن ابنه التحق بالحركة الشيوعية. ولا أعتقد أنه كان سيسعد بذلك، لأننى أذكر فى عام ١٩٤٨ وكنت قد سجنت أسبوعا فى سجن طنطا فى قضية شيوعية أنه عند الإفراج عنى جاء لاستلامى من السجن وكان مستاء لنشاطى، وأذكر محاولاته وقتها للضغط علىّ لترك هذا النشاط.

وأذكر أننى ذهبت معه فى سيارته إلى القاهرة. وأوصلنى إلى منزلى، وعندما أنهى زيارته لنا أردت النزول معه فى سيارته إلى منتصف الطريق للقاء فى وسط القاهرة فرفض. وقد تأثرت وقتها من ذلك الموقف. ثم جاءنى خبر وفاته بعد ذلك وأنا فى سجن الإسكندرية أواخر عام ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠.

وأنا أكبر من ممدوح بحوالى عشر سنوات. ولكن تكونت بيننا صداقة خاصة بسبب التقائنا فى الأفكار وفى العمل السياسى. ووضعه كطبيب مكنه من أن يقدم خدمات كثيرة. فإذا قصده أحد من الزملاء أو الأصدقاء فى مستشفى دار الشفاء كان ينشغل به ويقدم له كل ما يستطيعه من مساعدة. ولهذا كانت وفاته المبكرة صدمة للكثيرين ممن يعرفونه. وقد ترك زوجة وولدا اسمه عبد العزيز. تخرج من كلية الفنون الجميلة وأصبح معيدا بها. وهو فنان أقيم له معرض لوحات فى دار الأوبرا المصرية. وله رسومات بمجلة روز اليوسف.

كان ممدوح طفلا صغيرا عندما كنت أذهب مع أسرتى إلى زفتى فى أثناء الحرب العالمية الثانية فى الصيف. إذ كنا نحاول الابتعاد عن القاهرة التى كثرت عليها الغارات الجوية من جانب الطائرات الألمانية والإيطالية أثناء الحرب.

أما نحن – أنا وأحمد – فكنا نتردد على نادى الشباب ونقوم بنشاط ثقافى، وأذكر وقتها أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين عن «الاشتراكية والإسلام» وكنت قد بدأت أتعرف على الأفكار الاشتراكية وكان أبى يقول لزواره من أهل زفتى إن أولادى اشتراكيون

وطلبوا منى ترك فندق جراند اوتيل لغلو ثمنه ورتبوا لى الإقامة فى فندق آخر رخيص الثمن ومناسب وناقشت معهم ترتيبات عودتى إلى القاهرة.

وقد استغرقت الترتيبات مدة شهر كامل عانيت فيها من الوحدة. لم أكن ألتقى بهم كل يوم. وأذكر أننى التقيت يوما مع عبد الخالق محجوب واحمد سليمان فى سيارته الكبيرة وتناولنا الغذاء فى منزله فى أم درمان. وكنت أعرف احمد سليمان أيضا من القاهرة. وقد أنشق بعد ذلك فى السبعينات عن الحزب الشيوعى السودانى بعد انقلاب النميرى الذى أيده وأصبح فيه وزيرا ثم سفيرا فى موسكو حيث التقيت به وأصبح بعد ذلك يهاجم الشيوعيين وانضم إلى الجماعات الاسلامية.

تعودت على مواعيد السودانين يتواعدون على اللقاء ويأتون فى اليوم التالى. ولا يجدون أى غرابة فى أن يأتوا بعد ذلك بيومين أو ثلاثة.

كان الجو حارا. وكانت الأسرة فى الفندق موضوعة فى الخلاء بدون أغطية. وبسبب الحرارة الشديدة كنت أضطر لأخذ دش عدة مرات فى اليوم.

وكنت أمضى وقتى فى التجول فى مدينة الخرطوم. وفى إحدى المرات رأيت سيارة تحمل لافتة «هيئة سياسية» تسير بمحاذاتى ثم تتوقف. وينزل منها شخص يتجه إليّ ونأخذ بعضنا بالأحضان. لقد كان صديقى عز العرب أمين. وكان يعمل دبلوماسيا فى السفارة المصرية بالخرطوم. لم يسألنى طويلا عن تفاصيل حضورى إلى السودان. ولكننى لم أقل له بالطبع الأسباب الحقيقية. ودعانى إلى منزله والتقينا بعد ذلك مرة أو مرتين.

التقيت لقاء أخيرا مع عبد الخالق والشفيع والتيجانى فى أحد الكازينوهات على النيل بالخرطوم. ورغم أننا كنا فى شهر أغسطس إلا أن المساء كان باردا. وتعشينا معا وطلب عبد الخالق الكبدة النيئة والشطة وهى الأكلة السودانية المفضلة. وقال لى الشفيع أنهم رتبوا لى أوراقا سودانية للسفر بها إلى مصر ولكن عيبها الوحيد أن المهنة المسجلة هي «عامل» وضحك الشفيع وقال «حتبقى عامل عامل».

وكان من الممكن للسودانيين فى ذلك الوقت أن يسافروا إلى مصر بأوراق سودانية (دون حاجة لجواز سفر) ورأينا أنه من الأفضل أن أسافر بهذ الأوراق بدلا من جواز السفر المزيف.

وسافرت بالقطار من الخرطوم واتجهت شمالا إلى مصر وعبرت فى الطريق الأقاليم السودانية المختلفة .. وفى إحد المناطق رأيت من نافذة القطار امرأة عارية تماماً فى الطريق وكان منظرا عاديا فى بعض أقاليم السودان فقد كانوا من الفقر بحيث لايمتلكون الملابس التى تستر عوراتهم.

***

(٨)

العودة إلى الوطن

وصلت بالقطار إلى حلفا وأخذت المركب إلى الشلال. وفى الشلال وقفت المركب عدة ساعات حتى يسمح لها بالدخول. وكان الجو شديد الحرارة بشكل لم أشعر به من قبل. كانت الحرارة من الشدة بحيث أن أى قطعة من الاثاث أو السرير كانت شديدة السخونة. وتناولت كميات كبيرة من المياه إلى أن تحركت المركب أخيرا ودخلنا الحدود المصرية.

ووصلت إلى الجمارك وقدمت أوراقى فلم يهتم المختص بها كثيرا ولكنه ركز اهتمامه على الحقيبة التى كنت أحملها وفتشها تفتيشا دقيقا. فأخرج كل الملابس منها ولم يكتف بذلك بل أخذ يحفر فى قاعها باحثا عن مخبأ بها. ولكنه لم يجد شيئا بالطبع وتركنى. وتنفست الصعداء. دخلت أخيرا أرض الوطن.

وكنت فى غاية السرور وذهبت إلى محطة القطار وكان على أن أنتظر كثيرا قدومه فجلست فى أحد المقاهى وطلبت من العامل زجاجة من المياه الغازية. وفوجئت فى قاع الزجاجة بمشبك غسيل. نبهت العامل إلى ذلك فأخذ الزجاجة ببساطة شديدة وأعطانى غيرها.

اشتريت الصحف المصرية. وقرأت خبرا أن الغد ١٥ أغسطس تحدد اضراب عام تضامنا مع ثورة الجزائر.

وكانت قيادة الحزب الشيوعى الموحد قد غيرت منذ فترة موقفها من المعارضة إلى تأييد عبد الناصر فى موقفه الوطنى ضد الامبريالية والاستعمار وكان هذا كله يتفق مع موقفى الذى اقتنعت به بعد باندونج بالذات.

فقد اضطررت ومع تأييدى لعبد الناصر الذى كان رئيسا للدولة ورئيسا للنظام أن أدخل

الوطن سرا ومتخفيا بسبب الحكم الصادر ضدى قبل الثورة وفى ظل الحكم الملكى.

وكان مجلس قيادة الثورة قد أصدر قرارا فى ١٩٥٢ بالعفو عن المسجونين السياسيين، ولكن وبناء على فتوى من سليمان حافظ الذى كان نائبا لرئيس الوزراء استثنى المسجونين الشيوعيين بزعم أن الشيوعية ليست جريمة سياسية وإنما جريمة اقتصادية اجتماعية. ولهذا لم يقبل وقتها تظلمى وتظلم زملائى الآخرين الذين استمروا فى السجن وأمضوا عقوبتهم كاملة.

ورغم أننى دخلت البلاد سرا وكان على أن أعيش متخفيا إلا أننى كنت أشعر أن البلاد قد تغيرت، وأن المد الوطنى المتصاعد يخلق أرضية للعمل المشترك بين الشيوعيين وبين نظام عبد الناصر.

كنت قد اتفقت مع فاروق ثابت أن يتولى تأمين اقامتى عند حضورى إلى القاهرة وبعثت له من السودان برقية باسم مستعار بموعد وصولى.

وصلت إلى محطة مصر ولم أجد فاروق فى انتظارى. فماذا أفعل؟ القاهرة فى حالة اضراب والمواصلات متوقفة. ذهبت إلى مقهى المحطة واتصلت برقم منزلنا فى قصر العينى. لكن الرقم تغير. كنت أراسل أختى سعاد باسم مستعار هو «يحيى السمالوطى» وكنت عرفت أنها تزوجت من محام اسمه عصمت سيف الدولة فبحثت عن اسمه فى دليل التليفون ووجدت رقمه وأدرت الرقم فردت على «الشغالة»، سألت عن الست فسألتنى عن اسمى قلت «يحيى السمالوطى» فنادت على عصمت. لم أكن أعرفه ولم أكن رأيته من قبل. قلت له أننى فى مقهى محطة مصر. قال سأحضر حالا وبعد قليل وصل . وتعرف على. وذهبنا معا إلى منزله ومنزل اختى.

كانت مفاجأة شديدة لأختى ولكنها استقبلتنى بفرح. واتفقنا ألا تخطر أحدا بوجودى باستثناء إخوتى. واتفقنا وبناء على رأى أختى «عايدة» ألا تخطر زوجها «أنور وحش» الذى كان يعمل وقتها رئيسا للنيابة.

اتصلت بفاروق ثابت وظهر أنه لم يحضر إلى المحطة لأنه كان فى الاسكندرية. وعن طريقه اتصلت بالحزب فدبر لى لقاء مع محمود أمين العالم. ورتب لى لقاء مع كمال عبد الحليم الذى كان مبعدا وفقا لشروط الوحدة. وكان المعتقلون قد أفرج عنهم عام ١٩٥٥ ومنهم ابراهيم عبد الحليم الذى أسس «دار الفكر»، وكان كمال وغيره من المثقفين المرموقين مثل فؤاد حداد وصلاح جاهين وحسن فؤاد وعبد الرحمن الشرقاوى يتعاونون معه تعاونا وثيقا فى عمل دار الفكر. وقام كمال عبد الحليم بالاشتراك مع عبد القادر التلمسانى وغيره بتأسيس «أفلام النور» التى نجحت فى عرض فيلم الأم لماكسيم جوركى بسينما أوديون. ولكن عملها لم ينجح بعد ذلك. وقد قمت بترجمة سيناريو الأم من الروسية إلى العربية وذهبت إلى معامل أنيس عبيد وصدرت الترجمة في كتاب عن دار الفكر وجاء فيه أن الترجمة قام بها كمال عبد

الحليم. واستأت من ذلك. فقال لى إبراهيم عبد الحليم أنه لايمكن وضع اسمى بسبب وضعى الخاص.

كان هناك صراع واضح بين دار الفكر وبين الحزب. وكان نشاط دار الفكر وكمال عبد الحليم بين المثقفين واسعا وكان تأثيرهم أكبر.

بدأت أحضر اجتماعات اللجنة المركزية وانتخبت عضوا فى المكتب السياسى والسكرتارية المركزية. وتعرفت برفاق جدد لم أكن أعرفهم من قبل.

ورغم أننى كنت مختلفا مع يونس فى الموقف السياسى من عبد الناصر عندما كنت فى الخارج إلا أننى كنت مقتنعا بظلم الموقف المتخذ منه فى شروط الوحدة. ولهذا خضت معركة لإلغاء هذا القرار ونجحت فى ذلك واتخذ قرار بالأغلبية بإلغائه. وعاد عضوا فى قيادة الحزب الشيوعى الموحد. وخضت معركة أيضا لعودة كمال إلى قيادة الحزب وكانت معركة أسهل وقد عاد معه ابراهيم عبد الحليم الذى لعب دورا هاما فى قيادة دارالفكر.

كان الجو السياسى مشحونا. وكانت التهديدات فى الغرب تتصاعد ضد عبد الناصر بعد تأميم القناة. وقد وقف الحزب الشيوعى الموحد بثبات مع عبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار.

وفى أكتوبر ١٩٥٦ كان العدوان الثلاثى وركز الحزب كل نشاطه لخدمة المعركة وسافر عدد من القياديين مثل أحمد الرفاعى وسعد رحمى وعبد المنعم شتلة إلى بورسعيد ذهبوا إلى هناك بالاتفاق مع عدد من الضباط مثل كمال رفعت وغيره.

وعمل الشيوعيون داخل بورسعيد أثناء الاحتلال البريطانى والفرنسى ونظموا المقاومة وأصدروا مجلة «الانتصار». وكان لهم دور بطولى.

وذلك فى الوقت الذى تخاذل فيه المحافظ وغيره من كبار الموظفين الإداريين. ورغم أننى كنت أعيش فى السرية فقد تطوعت للتدريب على إطلاق النار في أحد معسكرات التدريب التي أنشئت في القاهرة واجتزت الامتحان بدرجة ممتاز.

وفى أثناء الحرب قللت من درجة اختفائى واستأجرت حجرة بسطوح إحدى العمارات بالجيزة ثم انتقلت إلى شقة بإحدى العمارات بالجيزة سكنت فيها فترة مع فاروق ثابت.

كان الشعور الوطنى جارفا عند الجماهير المصرية والعربية. وكان للإنذار السوفيتى وقع كبير. وفشل العدوان الثلاثى بسبب الإصرار على المقاومة والتضامن الدولى. وذلك رغم أن مصر لم تكن فى قوة الدول الثلاث المعتدية، ورغم الهزيمة العسكرية.

ولم يتحدث الإعلام عن أى هزيمة عسكرية، وتحدث فقط عن الانتصار ضد قوى العدوان والواقع أن التقدم العسكرى فى سيناء واحتلال بورسعيد لم يحقق أى نصر للمعتدين

الذين كانوا يتوقعون أن تستسلم القيادة السياسية، وهذا ما كان يطالب به نفر من الساسة القدامى الذين قدموا مذكرة لعبد الناصر يقولون فيها أنه لاقدرة لنا لمحاربة انجلترا وفرنسا واسرائيل، ولكن عبد الناصر قال أننا سنحارب ولن نستسلم ولقى تأييدا كاملا من الجماهير المصرية. ووقف معه الشيوعيون ووقفت معه الجماهير المصرية والشعوب والحكومات الاشتراكية والحركات الشعبية والتقدمية فى البلاد الرأسمالية وبلاد العالم الثالث. ولم تساند أمريكا انجلترا وفرنسا. كل ذلك أدى إلى فشل العدوان الثلاثى. وكان لزملائنا فى باريس بقيادة كورييل دور فى كشف الإعداد للعدوان قبل حدوثه وكتبوا تلك المعلومات لعبد الناصر عن طريق ثروت عكاشة الملحق العسكرى فى باريس فى ذلك الوقت والذى كانوا على اتصال به.

فى هذه الفترة كانت أحداث دامية تحدث فى المجر. وظهرت أخبار اليوم تبرز أخبار المجر وتردد الدعايات الغربية حول العدوان السوفيتى، أما باقى الصحف وأما الموقف الحكومى الرسمى وأما نحن الشيوعيين فقد وقفنا ضد موقف أخبار اليوم. فقد كان ما يربطنا بالاتحاد السوفيتى هو موقفه الحازم معنا ضد العدوان الثلاثى والإنذار الذى سمى فى ذلك الوقت بإنذار بولجانين. ولم يكن يتصور أحد فى ذلك الوقت أن يقف أى وطنى ليهاجم الاتحاد السوفيتى على تدخله فى المجر. وإذا كانت بعض الأحزاب الشيوعية فى الغرب قد أدانت هذا التدخل، وإذا كانت بعض الأحزاب الشيوعية الآن بما فيها أحزاب عربية بعد أن غير الاتحاد السوفيتى موقفه، أصبحت تدين مواقفها السابقة. فإننى لم أكن لأتصور أن ندين الاتحاد السوفيتى فى الوقت الذي نتعرض فيه للعدوان ويقف هو معنا ضده.

وليس معنى ذلك القول أن التدخل السوفيتى كان سليما وأنه يجب الدفاع عنه فلم تكن القضية بالنسبة لنا هى تقييم هذا التدخل والحكم عليه. بل كانت قضيتنا هى مواجهة العدوان الثلاثى وكسب الأصدقاء والتأييد العالمى ضد هذا التدخل. وقد كانت المساندة السوفيتية عنصرا حاسما فى هذه المواجهة.

الزواج الأول:

كنت قد تجاززت الثلاثين من عمرى وأحسست بالحاجة إلى رفيقة فى حياتى بعد هذه السنوات من السجن والاغتراب والتخفى. ولم يكن وضعى طبيعيا. فأنا هارب من حكم بالسجن خمس سنوات. ولا أستطيع الظهور فى الحياة العامة باسمى الحقيقى. وكان على أن أتخذ إجراءات أمنية لإبعاد ملاحقة البوليس ولم أكن أعيش حياة طبيعية، فى هذه الظروف كان عليّ أن أبحث عن رفيقة تقبل أن تشاركنى هذه الحياة.

وتحدثت فى هذا الأمر مع أحد الزملاء الذى قال لى أنه تعرف على فتاة فى المقاومة

الشعبية اسمها ليلى يرشحها لأتزوج منها. وطلب منى أن يتحدث معها أولا. تحدث معها فقبلت ونظم لقاء بيننا فى منزله.

قالت أن والدها قاس وشديد. ولايجب أن أطلعه على اسمى الحقيقى ووضعى فهى لا تأمن له. وكان لابد من التآمر.

اتفقنا أن أتقدم له باسم محمد يوسف أحمد وأننى حائز على ليسانس الحقوق. وأننى أعمل فى مؤسسة أفلام النور.

أخبرت إخوتى بهذا المشروع فرحبوا، فقد كانوا يشفقون على من استمرار تلك الحياة الجدبة، وكانوا يريدون أن توجد بجانبى انسانة تسهل لى تلك الحياة.

وكان لابد أن أقدم أحد أقاربى. واتفقت مع خالتى ومع أخى حسن. ومع فاروق ثابت على أنه ابن خالتى.

وزارنى والد ليلى فى مؤسسة أفلام النور ولكنه لم يكتف بذلك، بل ذهب إلى كلية الحقوق وبحث فى السجلات عن اسمى بين المتخرجين عام ١٩٤٧ فلم يجد وأخذ الشك يتسرب إليه.

ومع ذلك فقد عقد القران فى منزله بالحلمية وحضر معى شاهدان هما صلاح جاهين وسيد مكاوى. وكانا يعرفان بوضعى. طلب منى المأذون تقديم بطاقتى الشخصية. ولم يكن معى بطاقة. وتصدى سيد مكاوى فورا للدفاع عنى وقال إنه يعمل فى الإذاعة ولا يملك بطاقة شخصية.

كان اليوم هو ٨ يناير ١٩٥٨، وكنت قد عدت لتوى من اجتماع اللجنة المركزية للحزب الجديد الذى تكون نتيجة لوحدة ثلاثة أحزاب هي الحزب الشيوعى المصرى الموحد والحزب الشيوعى المصرى (الراية) وحزب العمال والفلاحين وتكوين الحزب الشيوعى المصرى.

لأول مرة بعد سنين طويلة من الانقسامات والصراعات توصلت أكبر تنظيمات شيوعية فى مصر إلى تكوين حزب شيوعى واحد.

وقد سبقت هذه الوحدة بعام الوحدة التى تمت بين الحزب الشيوعى المصرى الموحد والذى كان يغلب عليه عناصر حدتو وبين «الراية» وهو ما كان يسمى نفسه الحزب الشيوعى المصرى والذى كان يقوده د. فؤاد مرسى. وانتخبت عضوا فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى لهذا الحزب الجديد الذى أصبح يسمى الحزب الشيوعى المصرى المتحد. وواصل هذا الحزب الجديد مساعيه لتحقيق الوحدة مع الفصيل الكبير المتبقى خارج الوحدة وهو حزب العمال والفلاحين الذى استمر يشترط شروطا متعنتة لتحقيق الوحدة وأصبح يضع العقبات. ولم يقبلوا الوحدة إلا بعد أن عقدوا اتفاقا سريا مع الراية للنضال فى الحزب الجديد ضد حدتو. وطالبوا

بنسب كبيرة لتمثيلهم فى قيادة الحزب الجديد بحيث أصبح ممثلو حدتو أو الحزب الموحد أقلية فى القيادة وأصبحت الغالبية لعناصر العمال والفلاحين والراية.

ولهذا فلم تكن الوحدة التى تحققت فى ٨ يناير وحدة حقيقية وذلك رغم الكلمات الحماسية التى ألقيت فى الاجتماع الأول. ولهذا فلم تستمر أكثر من ستة شهور ثم حدث الانقسام. حدث خلاف فى الموقف السياسى واستكمل بانقسام تنظيمى.

وكان القسم الذى تسيطر عليه عناصر الراية والعمال والفلاحين يسمى القسم الثانى الذى تسيطر عليه عناصر حدتو «الانقسام». وكلا القسمين كان يتسمى باسم الحزب الشيوعى المصرى. وكان القسم الذى تسيطر عليه عناصر حدتو يسمى القسم الآخر «التكتل».

واختلفت المواقف السياسية. فكان القسم الأول (الراية والعمال والفلاحين) يعتبر نظام عبد الناصر ممثلا لرأسمالية الدولة الاحتكارية ويعتبره متعاونا مع الاستعمار. أما القسم الثانى (حدتو) فكان يغلب على موقفه تأييد عبد الناصر وسياسته التى تصاعدت بعد ذلك إلى اعتبار وجود مجموعة اشتراكية غير علمية فى قمة السلطة. فى هذه الظروف الحزبية بالإضافة إلى ظروفى الشخصية غير الطبيعية عقد قرانى على ليلى عويس. وكانت تعمل مدرسة للغة الانجليزية فى احدى المدارس الإعدادية واستأجرنا شقة فى روكسى بمصر الجديدة. واتفقنا فى اليوم التالى للزواج على أن نسافر لقضاء شهر العسل فى الفيوم.

وكانت الشكوك تتزايد عند والد ليلى ولا يستطيع أن يحل لغز هذا الشاب الذى تزوج بابنته، ولم يتوقف عن البحث والتقصى.

ولم نقل له أننا سنذهب إلى الفيوم بل قلنا أننا ذاهبون إلى الأقصر. وركبنا القطار من محطة مصر ونزلنا فى الجيزة وتوجهنا إلى الفيوم، وكان كمال أخو ليلى يتعقبنا بتكليف من والده. ولم نشعر به وعرف أننا نزلنا فى الجيزة وأمضينا أسبوعا فى الفيوم. ولم يهدأ أبو ليلى وتصور أن ابنته وقعت ضحية عصابة غامضة اختطفتها.

ذهب يشكو إلى صلاح جاهين وذهب إلى ابراهيم عبد الحليم. وهدد بإبلاغ البوليس.

وابراهيم عبد الحليم حاد وصريح فاندفع بحرارة وقال له كل شيء وذكر له اسمى الحقيقى ووضعى وظروفى والحكم والظروف التى أدت إلى إخفاء الحقيقة عنه.

فقال الأب على الفور: ولماذا لم يقل هذا لى، أنا أحميه. وأنا سرت فى جنازة والده.

وظهر أن حسابات ليلى بالنسبة لوالدها لم تكن صحيحة. إن أسلوب التآمر كاد أن يؤدى إلى كوارث.

وكان اللقاء بعد ذلك بالوالد وأصبح كل شيء واضحا وتحسنت علاقاتنا وبدأنا نحيا حياة زوجية هادئة لا ينغصها إلا ظروفى غير الطبيعية، وإلا أننى اضطررت بسبب عملى بالحزب إلى

التغيب كثيرا فى الأقاليم منذ أيام الزواج الأولى. كنت أعمل فى منطقة القنال ثم انتقلت للعمل فى الوجه البحرى، وعشنا فترة فى المنصورة واستأجرت شقة هناك. كانت ليلى تأتى إليها فى أجازة الصيف.

هكذا تم الزواج. لم يكن زواجا عن حب ولكن عن احساس منى بأننى أريد أن أحيا حياة طبيعية بعد سنوات السجن والمنفى والرغبة فى وجود انسانة إلى جانبى. ولم أكن أتصور أن أقيم علاقة ثابتة مع امرأة دون زواج. ولم تكن ظروفى أو طبيعتى تسمح لى بأن أقيم علاقات عابرة.

ولم تتزوجنى ليلى أيضا عن حب، فقد كانت تعتبر الزواج تخلصا لها من سطوة أبيها وقسوته وكانت انسانة تميل إلى التحرر وترفض القيود. بل لقد قالت هذا المعنى لإحدى صديقاتها الصحفيات فى روز اليوسف. وقالته بحضورى لكننا حاولنا أن يكون زواجا ناجحا وكنت جادا فى ذلك. وأخذت تتكون عندى العاطفة نحو زوجتى بعد الزواج.

وكانت ظروفنا المعيشية صعبة. فلم أكن أستطيع العمل. وكنت أحصل من أخى أحمد على ٣٠ جنيها شهريا وكانت زوجتى تعمل مدرسة بمرتب ضئيل وكنت اعتبر فى الحزب محترفا ثوريا، لكننى لم أكن أحصل على مرتب حزبى على اعتبار أن أخى كان يساعدنا، بل وكنت أقدم المساعدات والتبرعات للحزب إذا توافرت لى أى مبالغ.

كان سكننا فى مصر الجديدة بعيدا عن مكان عمل ليلى. ووجدنا شقة فى شارع إسماعيل اباظة بوسط البلد وقريبا من العمل. وكان العقد باسم ليلى بسبب ظروفى. وبعد سكننا الجديد بقليل قامت حملة يناير ١٩٥٩ ضد الشيوعية. واعتقل عدد كبير من الشيوعيين. وصدر أمر باعتقالى ولكن مكانى لم يكن معروفا.

اتفقت مع ليلى أن تسكن مع عائلتها فى الحلمية وذلك حتى لا يتوصل البوليس إلى مكانى بتعقبها. وعشت بمفردى بالشقة وكانت ليلى تزورنى فى مواعيد متباعدة.

وكنت لا أخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى أو للقاءات حزبية قليلة. وكان فاروق ثابت يزورنى من وقت لآخر للمساعدة هذه الاتصالات. لم يبق من القياديين فى الخارج غيرى وغير كمال عبد الحليم الذى كنت ألتقى معه من وقت الآخر وبإجراءات أمن مشددة. انقطع كمال كليا تقريبا عن جسم الحزب. وواصلت الاتصالات لربط البقية الباقية. وإذا كانت حملة الاعتقالات فى يناير قد شملت كادر الصف الأول فقد شملت حملة مارس ١٩٥٩ دائرة أوسع بما فى ذلك بعض العناصر اليسارية غير المرتبطة تنظيميا بالحركة الشيوعية مثل لويس عوض الذى كان وكيلا لوزارة الثقافة وعبد الرازق حسن وحسن فؤاد وغيرهم. اعتقل فاروق ثابت فى حملة مارس. وأصبح العمل أكثر صعوبة.

وفى ١٢ مايو ١٩٥٩ كنت أسير مع محمد على الخياط على كورنيش النيل عندما شعرت فجأة بأذرع تقبض على كتفى من الخلف وقبضوا علينا وأخذونا إلى وزارة الداخلية وعرضونى على حسن طلعت، وعندما رآنى تناول سماعة التليفون وتحدث مع شخص آخر لم أعرف من هو. قال: «مسكنا محمد يوسف الجندى» ثم رد: «الله يبارك فيك».

وأخذونى إلى سجن القلعة، وحبست حبسا انفراديا. وأخذت فى اليوم التالى إلى النيابة وبدأ صلاح نصار يحقق معى. وكان وجهه معروفا لى. وحاول أن يبدو ودودا، ولكنه كان من أسوأ المحققين فى أسلوبه فى التحقيق وفى الأسئلة التى قام بتوجيهها والتى لم تكن تتسم بالموضوعية. وبعد الإفراج عنى التقيت بأحد الأشخاص فى الاسكندرية الذى ذكرنى بأنه كان فى إحدى مجموعات التنظيم فى كلية الحقوق وأنه كان معنا صلاح نصار.

حاول صلاح نصار أن يقول على لسان زوجتى أقوالا غير صحيحة، ويحاول ايهامى بأنها قالت اعترافات ضدى ثم عرفت أنها اعتقلت وواجهونى بها وتأكدت بعد ذلك من كذبه ومن استخدامه لأسلوب رخيص فى التحقيق معى. وعرفت بعد ذلك أن زوجتى حجزت يوما كاملا فى القسم وأنهم اعتقلوها من بيت والدها الذى كانت تقيم فيه واقتادوها إلى منزلنا فى شارع اسماعيل اباظة. وقالت لى أن رجال المباحث والمخبرين احتلوا المنزل بعض الوقت وانها اكتشفت بعد ذلك سرقة إسورة ذهبية كانت هى الشبكة التى كنت قدمتها لها عند الزواج.

أفرج عن زوجتى بعد ذلك. ولكنى تألمت جدا لاعتقالها وتلقيت منها بعد ذلك خطابا عن طريق أحد الحراس أرضانى بعض الشيء. التقيت بباقى زملائى المعتقلين فى سجن القلعة. كانت مجموعتنا (مجموعة حدتو) تؤيد جمال عبد الناصر وكنا نختلف مع المجموعة الأخرى التى كانت تسمى نفسها مجموعة الحزب الشيوعى المصرى وكنا نرفض ذلك إذ كنا نعتبر أنفسنا الحزب الشيوعى المصرى ولتمييز أنفسنا كنا نكتب بين قوسين (حدتو). وكنا نسميهم «التكتل» ويسموننا «الانقسام» وعرفنا باسم «المؤيدين» وعرفوا باسم «المعارضين». وكنا نختلف معهم فى الموقف من جمال عبد الناصر فبينما كانوا يعارضون الوحدة المصرية السورية ويعارضون الاتحاد القومى ويعتبرونه حزب البورجوازية ويبرزون الخلافات بالنسبة للقضايا الاجتماعية فقط. وكنا نرى أن ظروف المعركة الوطنية ضد الاستعمار تفرض التركيز على قضايا الوحدة والاتفاق أما الخلافات الأخرى فلا يجب إبرازها. أما بالنسبة لقضية الوحدة العربية فكنا نرى أن محاولة إشعال التناقضات بين مصر والعراق وبين ناصر وقاسم إنما هى لعبة الاستعمار التى وقع فيها الحزب الشيوعى العراقى والحزب الشيوعى السورى وبدلا من اثارة التناقض بين ناصر وقاسم كنا نرى أن ناصر وقاسم يجب أن يقفا فى جبهة واحدة ضد الاستعمار.

وكانت بياناتنا سواء قبل اعتقالات يناير أو بعدها من خارج السجن أو من داخله هى فى

هذا الاطار.

ومن داخل السجن كتبنا رسائل بهذا المعنى إلى جمال عبد الناصر وإلى عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وكذلك إلى الصحف والصحفيين. ورغم الاعتقال لم نتخل عن موقفنا المبدئى.

مكثت فى السجن والاعتقال خمس سنوات انتقلت خلالها إلى العديد من السجون بدءا من سجن القلعة إلى سجن مصر وسجن الإسكندرية ثم سجن أبو زعبل والقناطر ثم الواحات الخارجة أخيرا حيث أمضيت أغلب مدة السجن.

وفى عام ١٩٦٠ صدر قرار بتأميم بنك مصر والبنك الأهلى وبدأ جمال عبد الناصر يتحدث عن «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية» وخفت ثم توقفت الحملة الضارية ضد الشيوعية والشيوعيين فى أجهزة الاعلام الرسمية. وتوقف السجال مع قادة الاتحاد السوفيتى وأخذت تتأزم العلاقات مع أمريكا وكنا فى سجننا نتابع ذلك كله، ونعتبره تأكيدا لموقفنا من عبد الناصر وسياسته الوطنية والاجتماعية. وفى حديث لعبد الناصر مع محمد حسنين هيكل فى أواخر ١٩٥٩ تحدث فيه عن المحاولات المتعددة لدفع الرأسمالية المصرية وتشجيعها على المساهمة فى عملية الإنتاج دون نجاح. وأن الرأسماليين يركزون على العمليات السريعة التى تأتى بربح سريع مثل المقاولات والبناء الخ.

وصلنا هذا الحديث وكنا فى سجن القلعة وكان هذا مؤشرا جديدا على التوجه الاجتماعى لسياسة عبد الناصر. وكان دليلا جديدا دفعنا إلى تأكيد سلامة خطنا السياسى فى تأييده رغم معارضتنا لسياسة معاداة الشيوعية التى كنا نرى أنها لاتخدم إلا المصالح الاستعمارية والرجعية فى تقسيم القوى الوطنية وإضعافها. وكنا نرسل من داخل المعتقل رسائل بهذا المعنى إلى جمال عبد الناصر وإلى الصحفيين البارزين التى كنا ننجح فى تسريبها إلى خارج المعتقل.

سجن مصر:

نقلت من القلعة إلى سجن مصر وقد التقيت هناك بابن عمى الدكتور ممدوح الجندى الذى اعتقل فى شهر مارس مع عدد أكبر ممن اعتقلوا فى أول يناير فيما عرف باسم «حملة مارس» ضد الشيوعية.

وكان الدكتور ممدوح الجندى يقوم بعلاج زملائه المعتقلين. وكنا نلجأ إليه دائما. وكان حريصا على تقديم المساعدة فى أى وقت.

وأذكر أنه كان يقولها بفخر، ولكننى أذكر أنه كان من بين قراءاتنا كتاب لنيتشه «هكذا تكلم زرادشت» فكان أبى يناقش أحمد معترضا على أفكار نيتشه وكنت فى ذلك الوقت فى بداية الشباب (الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة)

وكان لعمى عوض شقيق والدى أرض زراعية فى «الحجبى» مركز ميت غمر. وكثيرا ما كان يدعونى أنا واحمد لتقضية بعض الأيام هناك. وكان يزرعها فاكهة. وكان البطيخ شديد الحلاوة. ولكننا كنا نكتفى بيومين أو ثلاثة ونشعر بالملل، ولكن عمى كان يصر أن نبقى مدة أطول. فنبدأ فى التذمر وطلب العودة إلى زفتى ونحس أننا مسجونون. وكنا أطفالا نرفض أن يفرض علينا وضع دون إرادتنا. وكنا نمضى الوقت مع أبناء عمى. وكانا فى ذلك الوقت اثنين، الكبيرة بنت أكبر منى وأصغر من أحمد بسنة. أما الولد «سيد» الذى أصبح الآن جراحا شهيرا للأعصاب وهو د. سيد الجندى فكان أصغر سنا وكان يفصل بينه وبين أخته عدة سنوات.

وكان عمى عوض بخلاف أبى ينفعل سريعا. وكان عضوا فى الهيئة الوفدية ولكنه لم تكن له نفس شعبية أبى. وكانت انفعالاته وكثرة شجاراته تفقده الشعبية. ولهذا كان أبى يترك له أحيانا دائرة زفتى ليرشح نفسه فيها ويساعده.

تلك بعض الذكريات الصغيرة التى أذكرها عن زفتى.

ولكن أغلب حياتى ودراستى وعملى بعد ذلك كان ومازال فى القاهرة. فبعد كوبرى القبة والزيتون استأجرنا منزلا من شخص يدعى أحمد بدر الدين وهو من أقارب أمى- وهو منزل من دورين غير سطوح وبدروم وحديقة وجراج. ويقع بين شارعين أحدهما اسمه معمل البارود والآخر بستان الخشاب يتفرعان من شارع قصر العينى فى مواجهة مستشفى قصر العينى وقريب من حى المنيرة والسيدة زينب. كان المنزل قريبا من خط قطار حلوان الذى اعتدنا على ضوضائه. وقريبا أيضا من مشرحة القصر العينى فكنا نسمع من وقت لآخر صراخ النساء وولولتهن على الموتى. وبخلاف الصالة والفراندة الكبيرة كان المطبخ فى البدروم. والطباخ اسمه «الأسطى أمين». عرفت بعد ذلك أنه أصبح يعمل فى مطعم أبو شقرة.

وكنا نسكن بالدور العلوى. أما الدور الأسفل فكانت تسكن فيه خالاتى وجدتى لوالدتى. وكان لدى ثلاث خالات وخالان، أما الخال الثالث فقد توفى قبل انتقالنا للسكن فى هذا المنزل. أما الخال الثانى فلم يسكن معنا لأنه تزوج واستقل بشقة قريبة منا وقد تركت الخالات والخال المنزل عندما تزوجوا إلا أن زواج الخالة الأكبر لم يوفق وانفصلت عن زوجها وعادت للسكن معنا، وكذلك الخالة الأصغر. وبعد إخلاء الدور الأسفل استقلت به أختى بعد زواجها.

مرت علينا فى هذا المنزل جميع مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية ثم التخرج وبدأ الإخوة والأخوات يتزوجون ويتركون المنزل ويبقى فيه خالتى وأخواى الأصغر حسن

كان باقى المعتقلين الذين اعتقلوا موجودين فى الواحات الخارجة وبدأت هناك أول تجربة للتعذيب والأعمال الشاقة الإجبارية.

وصدرت تعليمات بمعاملة خاصة للمعتقلين (وهى أن يلبسوا ملابس السجن الخاصة بمن هم تحت التحقيق) وحرموا من حق شراء أحذية أو ملابس داخلية بل فرض عليهم أن يسيروا حفاة وكان قرارا لا معنى له إلا فرض التعذيب المنظم رغم أنف كل القوانين.

سجن الحضرة (الاسكندرية)

أصدرت النيابة قرار اتهام فى قضيتين عرفت الأولى باسم قضية الحزب الشيوعى المصرى وكانت تضم ٦٤ متهما من أبرزهم د. فؤاد مرسى و د. اسماعيل صبرى عبد الله وأبو سيف يوسف ومحمود أمين العالم. أما القضية الثانية فكانت تعرف باسم قضية «حدتو» وكان المتهم الأول فيها شهدى عطية الشافعى وكنت المتهم السادس فى هذه القضية. وكان من بين المتهمين مبارك عبده فضل وابراهيم عبد الحليم وكمال عبد الحليم (وكان هاربا لم يقبض عليه) ومصطفى بهيج نصار وعادل حسين وغيرهم.

وفى البداية نقل المتهمون فى قضية «الحزب الشيوعى المصرى» إلى الاسكندرية استعداد للمحاكمة أمام المجلس العسكرى الذى شكل خصيصا لذلك برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال.

وفى إحدى الزيارات التى قام بها اخوتى لى فى سجن مصر سألونى عن المحامى الذى أختاره للدفاع عنى. اقترحت جمال العطيفى وعندما نقلوا اليه هذه الرغبة أبدىٰ اهتماما كبيرا وبذل جهدا مكثفا. وكان دفاعه أمام المحكمة رائعا. ورفض أن يحصل منى على أى اتعاب رغم تحمله كل المصاريف بما فيها مصاريف السفر. وكان ذلك تأكيدا منه على علاقات الصداقة القديمة والمشاركة فى الفكر والتوجه السياسى الذى بدأناه معا فى فترات الشباب الأولى. وقد افترقت بنا الطرق بعد ذلك واختلفت الاهتمامات وشق له طريقا آخر، وتدرج فى الوظائف فعمل فى النيابة، بما فى ذلك نيابة الصحافة قبل الثورة وحقق مع الشيوعيين ثم اشتغل بعد ذلك بالمحاماة وارتبط بالحزب الحاكم وأصبح وزيرا فى عهد السادات. وأصبح من المتحدثين باسم الحزب الحاكم والسلطة رغم أنه كانت له بعض الملاحظات الانتقادية فى مجلس الشعب عندما هاجم «القوانين سيئة السمعة». وفى عهد عبد الناصر عمل مستشارا قانونيا لجريدة الأهرام وحاول مساعدتى بعد انتهاء فترة اعتقالي عام ١٩٦٤ وسعى لدى محمد حسنين هيكل كى أعين فى الأهرام. ولكن هيكل تجاهل كل هذه المحاولات رغم صداقته القديمة مع أخى أحمد. والحقيقة أن هيكل رغم تعاطفه مع المجموعة الأخرىٰ التى كانت تسمى بمجموعة

«الحزب الشيوعى المصرى» والتى ساعد أعضاءها كثيرا بعد الخروج من السجن. إلا أنه كان يحجم دائما عن التعاون مع مجموعتنا «حدتو». وكان جمال العطيفى بعد خروجى من السجن عام ١٩٦٤ يقول لى عن نفسه «أنه اختار الطريق السهل أما أنا فقد اخترت الطريق الصعب». وكان الحكم فى هذا الوقت يتحدث عن الاشتراكية وكان كل المسئولين والصحافة والعناصر البارزة تدافع عن الاشتراكية للتقرب من الحكام.

نقلنا إلى سجن الاسكندرية فى أوائل عام ١٩٦٠. وفى هذه الفترة وصلتنا أنباء عن تأميم بنك مصر والبنك الأهلى. وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الحديث عن «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية» وكانت هذه التطورات تتسق مع مسار تفكيرنا قبل اعتقالنا وبعده وتقييمنا لدور جمال عبد الناصر الايجابى. وأضيف إلى تقييمنا له كرجل وطنى معاد للامبريالية والاستعمار عنصر جديد هو موقفه الاجتماعى وبدأنا نناقش وجود «مجموعة اشتراكية» بقيادة عبد الناصر فى السلطة. وكنا نرى أن لهذه المجموعة توجهات اشتراكية، ولكننا ميزنا اشتراكيتها عن اشتراكيتنا بأنها اشتراكية غير علمية.

وكان عبد الناصر أيضا حريصا على تمييز اشتراكيته عن الماركسية اللينينية. وكان يؤكد هذه الفروق فى «الموقف من تأميم الأرض والموقف من الدين والقومية». لم يكن كل مايذكره فى هذا الخصوص دقيقا فمثلا لم يناد الشيوعيون بتأميم الأرض ولم يكن لهم موقف ضد الدين ولم يكن حديثه عن موقفهم من القومية دقيقا.

ومع ذلك فقد أكدنا من ناحيتنا أيضا أن اشتراكيته ليست علمية، ولكن رأينا هذه المجموعة تتجه رويدا رويدا نحو الماركسية اللينينية. ودعونا إلى عقد كونفرنس ضم الكادر الأساسي فى حدتو. نوقش فيه موضوع وجود مجموعة اشتراكية فى السلطة وواجباتنا حيال ذلك، استمر هذا الكونفرنس لمدة تسعة شهور. استمرت المناقشات فى سجن الاسكندرية ثم فى أوردى أبو زعبل وانتهى الكونفرنس فى سجن القناطر الذى انتلقنا إليه بعد أبو زعبل.

واتخذ القرار بأغلبية كبيرة ولم يعترض عليه إلا ثلاثة هم محمد عباس فهمى وطاهر البدرى وعبد الحميد السحرتى.

ولا يتوفر لدى النص الحرفى للقرار الذى اتخذ، ولكننى أستطيع أن أحدد خطوطه الرئيسية.

أولا – أن التغيرات الدولية والتقدم والانتصارات التى تحرزها الاشتراكية فى العالم وبالذات مجموعة الدول الاشتراكية كان لها تأثيرها فى صعود الافكار والتوجهات الاشتراكية وبالذات فى البلدان التى حصلت على استقلالها بما فيها مصر.

ثانيا – أن النضال ضد الامبريالية والاستعمار فى العالم والتوجه الوطنى لقيادة ثورة يوليو

يدفع قيادتها لاتخاذ مواقف راديكالية فى سعيها للبحث عن طريق مستقل للتنمية ودعم الاستقلال الوطنى والتطلع إلى الطريق الاشتراكى متأثرة بنجاحات الاشتراكية فى العالم.

ثالثا - أن هذه المجموعة الراديكالية تخلط أفكارها الاشتراكية ببعض التوجهات القومية وغيرها ولهذا فقد اختارت نوعا من الاشتراكية ليست هى الاشتراكية العلمية.

رابعا - ما هو موقفنا من هذا التوجه الاشتراكى غير العلمى؟ يجب أن يكون موقفا إيجابيا لأن هذه المجموعة تنطلق فى هذا التوجه من منطلقات اجتماعية تتفق مع مصالح الغالبية الكادحة.

خامسا - رأينا أن الظروف الداخلية (المعركة ضد الاستعمار وأعوانه من أجل التنمية والاستقلال) والظروف الخارجية التى تتحدد فى الصراع بين المعسكرين ووقوف المعسكر الاشتراكى إلى جانب بلادنا فى معركتها ضد الاستعمار، تدفع هذه المجموعة الراديكالية (الاشتراكية) إلى الاقتراب أكثر فأكثر من الاشتراكية العلمية.

سادسا - انطلاقا مما سبق حددنا واجباتنا فى السعى نحو تحقيق وحدة العمل مع المجموعة الاشتراكية «فى النضال من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى».

عندما أعلنا قرارات المؤتمر قوبلنا بهجوم شديد من المجموعة الأخرى التى كانت تسمى نفسها «الحزب الشيوعى المصرى» وكنا نسميها «بالتكتل». وكانت هذه المجموعة تنقسم إلى عدة أقسام. القسم الأكبر منها كان يتهم عبد الناصر بالخيانة وبأنه عميل للاستعمار الأمريكى و ممثل لرأسمالية الدولة الاحتكارية.

وكانت هناك اتجاهات أخرى بين هذه المجموعة ولكن لم تؤيد أى مجموعة منهم فى هذه الفترة موقفنا من «المجموعة الاشتراكية».

واتهمنا بالخيانة واليمينية والذيلية والعمالة للسلطة وكل أنواع الاتهامات المنتشرة فى تاريخ الحزكة الشيوعية المصرية.

ولكن الشيء المميز أن كل هذه المناقشات دارت فى ظروف غريبة فقد بدأت فى سجن الاسكندرية، وكنا قد تعرضنا فى السجن إلى تجريدة قام بها مأمور السجن «الحلوانى» ضدنا. فقد فؤجئنا فى صباح أحد الأيام بالسجانين يحملون الشوم ويقتحمون كل زنزانة بالدور وينهالون علينا بالضرب المبرح. وقد أصيب البعض فى رأسه وفى جسمه مثل زميل لنا من الزقازيق كان قد تعدى الستين من عمره.

والغريب أننا ذهبنا إلى المحاكمة. وقد كانت الإصابات واضحة على الكثيرين منا. واشتكينا إلى هيئة المحكمة (المجلس العسكرى) الذى لم يحرك ساكنا.

وكانت الحجة عند مأمور السجن وأسمه الحلوانى فى القيام بهذه التجريدة هو شجار بين

أحد الزملاء المسجونين «حمدى مرسى» وضابط السجن.

والغريب أيضا أن الحلوانى قد ذهب معنا إلى أوردى أبو زعبل وشاهد باستمتاع عملية تعذيبنا عند استقبالنا الذى سيأتى ذكره فيما بعد.

رغم التعذيب والمعاملة السيئة واصلنا النقاش. ولم نستطع أن نغفل التحولات الايجابية التى تجرى فى الخارج، ولم تستطع ظروف السجن والمعاملة السيئة أن تؤثر على النظرة الموضوعية للأمور. وكنا نشعر أن هناك محاولات من أقسام وجهات فى السلطة لإفساد علاقاتنا مع جمال عبد الناصر وللمزيد من تدهور تلك العلاقات.

وكنا نرى أن السلطة ليست شيئا واحدا متجانسا. وأن جمال عبد الناصر رغم أنه كان على رأس السلطة، إلا أنه لم يكن يمثل كل السلطة. وأنه رغم كونه يمثل الجناح الراديكالى والمتقدم، إلا أنه بصفته الرئيس كان يمثل عنصر توازن بين الأجنحة المختلفة التى كانت تتكون منها السلطة وكنا نشعر سواء قبل اعتقالنا أو بعده أن هناك قوى فى الاتحاد القومى وفى السلطة تجتهد لتحقيق تأزم في العلاقات بين عبد الناصر والشيوعيين المصريين والعرب. وكنا نرى أن أخطاء بعض الشيوعيين المصريين والعرب تلعب دورها وتسهم أيضا فى تحقيق هذا التأزم.

وبدأت المحاكمة. وكانت شهادة حسن المصيلحى رئيس المباحث العامة تقوم على أن المؤيدين من الشيوعيين أخطر من المعارضين، وأننا فى نهاية الأمر نهدف إلى قلب نظام الحكم لإقامة نظام شيوعى وأن التأييد هو مجرد تاكتيك للوصول إلى هذا الهدف.

ورتبنا الدفاع. وأوكلنا إلى شهدى القيام بالدفاع الرئيسى. ولم ينف الشيوعية بل دافع عنها، وقال أنه رغم كوننا شيوعيين بل ولاننا شيوعيون فإننا نؤيد عبد الناصر وبرنامجه الوطنى والاجتماعى. وشرح مواقف الشيوعيين الطويلة فى مختلف المراحل ومختلف المجالات.

وتحدث ابراهيم عبد الحليم عن دار الفكر والدور الثقافى الوطنى الذى قامت به. وتحدثت عن نضالى الوطنى منذ أيام الملكية وكيف أن النظام الملكى فى ذلك الوقت كان يتهم الوطنيين بالشيوعية وتحدثت عن حملة صدقى فى ١١يوليو ١٩٤٦ وذكرت أسماء الكثيرين من العناصر الوطنية التى اعتقلت باسم الشيوعية مثل محمد مندور وزكى نجيب محمود وغيرهما، وتحدثت عن مصير من كانوا يحاكموننا ويحققون معنا فى ذلك الوقت مثل حسين طنطاوى ومحمد كامل القاويش. وفى رد «سمير ناجى» ممثل النيابة على فقد دافع عن هؤلاء وقال أنهم لم يأكلوا على مائدة الأجنبى كما فعلت على حد زعمه. وكان المصيلحى فى شهادته قد أشار إلى أننى بعد هربى من السجن ذهبت إلى المجر وعشت فيها فترة، ودافع عنى جمال العطيفى وكان دفاعه جيدا بشهادة جميع زملائى.

وقد اختلف دفاعنا عن دفاع المجموعة الأخرى «الحزب الشيوعى المصرى» فى أنه لم يعترف أحد منا بعضوية الحزب الشيوعى، فقد حرصنا على ألا نقدم للمحكمة الحجة القانونية لإدانتنا، ولكننا دافعنا عن شيوعيتنا وعن مبادئنا وأفكارنا.

تركت المحكمة لنا حرية الكلام والدفاع عن أنفسنا واستمرت المحاكمة عدة أيام. وكانت الأحكام جاهزة. وهى لم تصدر فورا ولكنها أعلنت لنا فى السجن بعد عدة أسابيع. وكنا وقتها قد نقلنا إلى سجن القناطر بعد مذبحة أوردى أبو زعبل وكانت أقسى الأحكام على شهدى عطية وابراهيم عبد الحليم بالأشغال الشاقة عشر سنوات وصدرت الأحكام على كثير من زملائنا فى القضية بالأشغال الشاقة أو السجن عدة سنوات.

أما أنا فقد صدر الحكم ببراءتى من التهمة. وقد تساوى الأمر بين من صدرت ضدهم أحكام وبين من صدر الحكم ببراءتهم. فقد تحول الجميع إلى معتقلين وخرجوا فى نفس الوقت تقريبا فالمعتقلون أفرج عنهم فى ابريل ١٩٦٤ أما المحكوم عليهم فقد تم الإفراج عنهم فى مايو.

وكانت معاملة المحكوم عليهم فى السجن أفضل من المعتقلين فكانوا على عكس المعتقلين يسمح لهم بالزيارات وتطبق عليهم لائحة السجن. ولهذا قدمت فى السجن طلبا بتطبيق الحكم الصادر على عام ١٩٤٩ حتى أستفيد من تطبيق لائحة السجن على فلم يردوا على طلبى. وظهر بعد ذلك أن ملف القضية قد ضاع.

أوردى أبو زعبل:

فى إحدى ليالى يونيو ١٩٦٠ نودى علينا ليلا للترحيل من سجن الاسكندرية. ولم يقولوا لنا أين سنرحل. وشحنونا فى سيارتين لورى وسارت بنا السيارات وفى الطريق عندما اقتربنا من القاهرة فهمنا أننا سننقل إلى «أوردى أبو زعبل». وكانت تصلنا بعض الأخبار غير المؤكدة عن عمليات التعذيب التى تجرى هناك للمعتقلين الشيوعيين.

وصلنا إلى أبو زعبل ورأينا حشدا من الضباط والعساكر. أمرنا الضباط بالنزول من السيارات والجلوس «مقرفصين» على الأرض. وكان الضباط يحملون عصيانا من الجريد وكانوا يقرنون أوامرهم بشتائم بذيئة وبالضرب بالجريد على أى مكان من أجسادنا.

وكان الضرب مؤلما والجلسة كانت متعبة. ولم أكن أحسن الجلوس بهذه الطريقة. عرفنا بعد ذلك أن الضابط الذى يقود هذه الحملة يدعى «يونس مرعى» وكان يقوم بالضرب بنفسه يعاونه ضباط وعساكر آخرون.

وعندما كان يونس مرعى يلحظ أى حركة أو تململ من أى من زملائنا كان ينهال

عليه بالضرب. وأعجبته «صلعة» ابراهيم عبد الحليم فكان ينهال عليها بالضرب. وكنت أحاول ألا أتحرك ومع ذلك فقد اقترب منى يونس مرعى وقال «كويس ياوله» وانهال علي بالضرب. وفى أثناء جلوسنا يسأل يونس مرعى: أين شهدى عطية؟ فرد شهدى معرفا بنفسه، فانهالوا عليه بالضرب.

وفى بداية جلوسنا طالب منا مبارك عبده فضل بألانصرخ أو نعبر عن ألمنا.

وكنا ٤٨ وفى بداية جلوسنا نودى على أربعة هم صنع الله ابراهيم وابراهيم المانسترلى وعبد الحميد السحرتى وسعد بهجت. ويبدو أنه كانت هناك توصية عليهم وأوقفوا فى مكان يرقبون فيه كل عمليات الضرب والتعذيب. وقالوا لنا بعد ذلك أن هذه العملية كانت لاتقل إيلاما.

ظللنا بهذه الطريقة حوالى ساعة أو أكثر، ثم طلبوا على التوالى من كل أربعة أشخاص أن يحملوا حاجياتهم ويذهبوا جريا إلى ميدان يبعد حوالى كيلومتر أو أكثر عن هذا المكان بين صفين من الجنود بعضهم مترجلون وبعضهم على الخيل. وقال يونس مرعى اللى يجرى أسرع لن يضرب ولكن لم يسلم أحد من الضرب. جاء دورى مع ثلاثة آخرين من زملائى. وجريت وكنت ألبس «بنصا» فخرجت «فردة» من رجلى ولم أستطع العودة لأخذها ووصلت إلى الميدان الذى كانت به منصة يجلس عليها « اللواء همت» المعروف عنه فى مصلحة السجون تنظيم عمليات التعذيب وجلس إلى جانبه «الحلوانى» مأمور سجن الحضرة بالاسكندرية وغيره من ضباط السجون وضباط مباحث أمن الدولة ولم أكن أستطيع تبين الوجوه من شدة الضرب وفى الميدان الذى كان يحتشد بالجنود والضباط كان هناك كاتب يسجل الأسماء وحلاق. وكانت عملية التسجيل وحلاقة الرأس تتم مع الضرب الشديد على كل أجزاء الجسم التى كانت تصحبها الأوامر بأن نخلع كل ملابسنا ونصبح عارين كما ولدتنا أمهاتنا. ثم يسلم كل منا بورشا وبطانية ونؤمر بأن نستلقى على ظهرنا ونضع كل هذه الأشياء (البورش والبطانية) على بطننا ونسحل إلى داخل السجن وعند بوابة السجن يستقبلنا أحد الضباط بالضرب المميت ثم تستكمل المسيرة بهذه الطريقة.

وعند باب العنبر يستقبلنا أحد الصولات اسمه «مطاوع» وينهال على كل منا بالضرب ويقول «قول أنا مرة» «قول أنا مش شيوعى» ثم يطلب منا أن نقف ووجهنا إلى الحائط وبقينا كذلك فترة وكلنا مصاب بجروح مختلفة. ثم أغلق العنبر ولاحظنا غياب خمسة من زملائنا هم شهدى عطية ومبارك عبده فضل ومحمد عباس فهمى وجمال غالى ونور الدين سليمان». ونظرنا إلى بعضنا البعض. ورأيت ابراهيم عبد الحليم ورأسه يعلوه ما يشبه الأهرامات من أثر الضرب وبدأنا نتحادث وضحكنا على منظر رأس ابراهيم وبدأ يضحك معنا.

وكان يجلس جانبى بهيج نصار وكان معنا عادل حسين فى نفس العنبر.

بعد التمام فى المغرب سمعنا نداءات من العنبر المجاور. وبدأنا نسمع أخبارا غير مؤكدة عن طريقة تعذيب زميلنا شهدى عطية وكيف أنه استقبل استقبالا خاصا وكان يضرب ويرمى فى الترعة ثم يعاد ضربه من جديد. وأنهم يشكون فى أنه قتل.

ثم حكوا لنا عن بعض عمليات التعذيب التى يلاقونها. وأنهم يوميا يبدأون اليوم «باللف للتفتيش» وكانت كما يلى: عليهم أن يفكوا سراويلهم ويدورون حول أنفسهم كما يؤمرون ويلتف حولهم السجان بالضرب. ثم يخرجون للرياضة وهى فى الحقيقة تعذيب وليست رياضة فيؤمرون. مثلا بتمرين الضغط لمدة مائة مرة ومن يتوقف يضرب ثم يصعدون إلى الجبل لتكسير الزلط وعلى كل معتقل أن يكسر معدلا مطلوبا يملأ به غلقه. وإن قصر فى ذلك يعاقب بالضرب و «المد» على قدميه.

لم يكن يسمح للمعتقلين بشراء أى شيء من الكانتين ولا يسمح لهم إلا بغذاء السجن والسجائر ممنوعة والطرود الخارجية ممنوعة وكذلك أى نوع من الاتصال بالخارج مثل الصحف أو الاذاعة أو الزيارات.

استمر هذا الوضع لمدة سبعة شهور كان من بين المعتقلين شخصيات مثل الدكتور لويس عوض و د. اسماعيل صبرى عبد الله و د. فؤاد مرسى و د. عبد الرازق حسن والفنان حسن فؤاد ومحمود أمين العالم وغيرهم.

ويذكر أن الضابط يونس مرعى سأل مرة الدكتور لويس عوض بعد أن لاحظ أنه يبدو مثقفا «كنت بتعمل إيه بره ياوله» فأجاب: وكيل وزارة الثقافة فكان تعليق يونس مرعى «عبارة بذيئة» وأمره بمسح العنبر.

وعوقب د. اسماعيل صبرى مرة بالمد على قدميه. وروايات كثيرة. وقتل من التعذيب الدكتور فريد حداد عند استقبال مجموعته.

عرفنا بعد ذلك أن أربعة من زملائنا فى العيادة بين الحياة والموت هم «مبارك عبده فضل وجمال غالى ومحمد عباس فهمى ونور الدين سليمان» فقد أصيبوا بصدمة عصبية. وضم الينا بعد ذلك الأربعة الذين لم يعذبوا.

وفى اليوم التالى جاء الطبيب مع الممرض وكان الطبيب متعاونا مع إدارة السجن. وبعد يومين فتحت أبواب العنبر ودخل شخص يسأل: من كان مع شهدى فى السيارة. فهمنا أن ماتردد عن قتله صحيح وانهار بعضنا فى البكاء وأخذنا نكشف عن ظهورنا ورأى السائل مناظر بشعة فوضع يده على وجهه وخرج على الفور. لم أستطع تبين ملامح هذا الشخص إذ أننى فقدت نظارتى أثناء التعذيب. ولكننى بعد الإفراج عنى عرفت أنه أنور وحش زوج أختى وأنه كان رئيس نيابة المنطقة وأنه جاء للتحقيق بتكليف من النائب العام.

وعرفنا بعد ذلك أن جمال عبد الناصر كان فى يوغوسلافيا فى زيارة رسمية حضر فيها مؤتمر الحزب هناك. ووصل إلى هناك خبر مقتل شهدى عطية إلى الحاضرين وكان والد شهدى عطية قد بعث ببرقية بالخبر إلى جمال عبد الناصر فأمر بالتحقيق. هل كان عبد الناصر على علم بكل تفاصيل هذا التعذيب الذى كنا نمر به. كنا نأمل أنه لايعرف. فقد كنا نؤيد سياسته وكنا نؤكد ذلك فى التحقيق بل وأثناء التعذيب. وكان الضباط الذين يقومون بعملية التعذيب يرددون بأن عبد الناصر هو الذى أمر بتعذيبنا. ومع ذلك فسواء كان يعرف أو لا يعرف وإذا فكرنا فى هذا الموضوع الآن فلايمكن اعفاؤه من المسئولية.

وفى اليوم التالى أخذوا يستدعوننا للتحقيق أمام النيابة. فقد تشكل فريق من وكلاء نيابة منطقة أبو زعبل للتحقيق فى واقعة مقتل شهدى عطية وسألونا فردا فردا. وحاول ضباط السجن ويونس مرعى بالتحديد الضغط على الأربعة الذين لم يضربوا بأن يقولوا أنهم لم يضربوا وأنهم لم يشاهدوا عملية التعذيب. ولكنهم شهدوا بما رأوه وذكرنا فى التحقيق عمليات الضرب والتعذيب، وأكدنا فى نفس الوقت موقفنا السياسى وهو تأييدنا لجمال عبد الناصر. وقامت النيابة بعملية عرض لضباط السجن وللصول فقمنا بإخراجهم من الصف.

أما الضابط وإدارة السجن ومعهم أطباء السجن فقد قالوا أنه لم يحدث أى تعذيب وقالوا أننا دخلنا السجن بمظاهرة وهتافات وأننا اعتدينا عليهم وقال الأطباء أن شهدى مات بسبب هبوط فى القلب.

وتفاصيل التحقيق مع عدد كبير من زملائنا مسجلة فى الكتاب الذى ألفه رفعت السعيد وصدر عن دار شهدى باسم «الجريمة». وقف التعذيب فى أوردى أبو زعبل ودفعنا مقابل ذلك ثمنا باهظا هو حياة شهدى. بقينا فى أوردى أبو زعبل أسبوعا ثم نقلنا (مجموعتنا) إلى سجن القناطر الخيرية. وبقى الآخرون فى سجن أبو زعبل وتغيرت المعاملة.

أما فى القناطر فقد واصلنا مناقشات الكونفرس وصيغ قرار «المجموعة الاشتراكية» وصدر بأغلبية كبيرة ومعارضة الثلاثة الذين سبق ذكرهم.

وفى سجن القناطر وفى أحد الأيام استدعينا فردا فردا إلى إدارة السجن وأبلغنا بأحكام المجلس العسكرى، أما أنا فقد أبلغت مع نور سليمان وعدد قليل آخر لا أذكره بالحكم بالبراءة. نقل من صدر ضدهم الحكم بالعقوبة إلى سجن الواحات الخارجة. أما نحن (أصحاب البراءة) فقد نقلنا إلى أوردى أبو زعبل انتظارا للبت فى أمرنا (الاعتقال أو الافراج).

بقينا أياما فى أبو زعبل وكان ذلك فى صيف ١٩٦١ وسمعنا وقتها عن القرارات التى سميت «القرارات الاشتراكية» واعتبرناها تأكيدا لخطنا. وأحدثت هذه القرارات ارتباكا شديدا لدى المجموعة الأخرى. وبدأ عدد منهم يتبنى موقفنا ومنهم محمود أمين العالم ود. عبد العظيم أنيس وغيرهم، وأعلنوا فيما بعد انضمامهم إلينا.

انتظرنا عدة أيام فى «أوردى أبو زعبل» وصدر قرار باعتقالنا ونقلنا إلى «سجن الواحات الخارجة» كمعتقلين. وكانت طريقة النقل هى ربطنا جميعا فى حجلات، وكان الطريق طويلا من أبو زعبل الى الواحات الخارجة.

وكانت المباحث العامة قد بدأت أسلوب اللقاء مع من يصدر حكم ببراءتهم وتطلب منهم «استنكار الشيوعية وكتابة تعهد بعدم الاشتغال بالعمل السياسى» فمن يقبل يفرج عنه ومن يرفض يعتقل. ولكن حتى هذا لم يجرب معنا. فقد صدر قرار اعتقالنا ونفذ الاعتقال دون أن نلتقى بأحد.

الواحات الخارجة:

أمضيت فى الواحات الخارجة ثلاث سنوات كاملة.

وقد التقيت هناك بزملائنا من المسجونين الموجودين منذ الخمسينيات (منذ الأحكام التى صدرت ضدهم بالأشغال الشاقة والسجن فى عامى ٥٣، ٥٤، وكانت هناك أحكام تصل إلى عشر سنوات). التقينا هناك بزملاء أعزاء مثل زكى مراد ومحمد شطا ومحمد خليل قاسم وصلاح حافظ وسيد سليمان الرفاعى و د. شريف حتاتة وعبد الجابر خلاف وحليم طوسون وغيرهم.

مر المعتقلون بسجن الواحات الخارجة بعدة مراحل. وأتكلم فقط عن المعتقلين لأن المسجونين كان لهم نظام خاص، وكانت تطبق عليهم لائحة مصلحة السجون. وكانوا فى البداية فى مكان اسمه المحاريق إلى أن بنى سجن الواحات الخارجة ونقلوا إليه.

رتبت للمعتقلين معاملة خاصة بأوامر من اللواء همت. وبدأت بزيارة منه وعمليات ضرب وتعذيب ثم أمروا جميعا بالعمل فى مزرعة السجن. ويروى عن هذه الفترة التى لم أعاصرها حكايات كثيرة. منها قصص عن الكاتب «محمود السعدنى» الذى اعتقل أيضا بتهمة الشيوعية ولم يكن له أى علاقة بها.. ويحكى أيضا أن بعض المعتقلين فى المزرعة وجدوا نباتا ففرحوا به وبدأوا يأكلونه. وعندما أخبروا د. حمزة البسيونى أحد الأطباء المعتقلين بذلك قال لهم أنه سام. وبدأت عليهم بالفعل أعراض التسمم ولكنهم أنقذوا بعد علاج مكثف.

وبعد ترحيل المعتقلين إلى الواحات الخارجة حاولت مصلحة السجون بتوجيه من المباحث العامة تطبيق نظام شديد، وممارسة عمليات تعذيب فمنعوا من الاتصال بالمسجونين الشيوعيين، الذين كانت إدارة السجن ملزمة بتطبيق لوائح السجون عليهم، أما المعتقلون فقد بدأ نظام القيود وعمليات التعذيب والضرب والإهانة بالنسبة لهم بعد زيارة قام بها اللواء همت. وكان هو المتخصص فى عمليات التعذيب داخل السجون وفرض عليهم العمل الإجبارى داخل المزرعة

كما سبق الحديث.

ولكن بعد ذلك وبالتدريج استطاع الشيوعيون مسجونين ومعتقلين أن يغيروا هذه المعاملة. وخصوصا أن اللواء همت أو المباحث العامة لا يستطيعون البقاء فى الواحات الخارجة إلا فترة قليلة. وكان التصرف بعد ذلك موكولا إلى منير شاش مأمور السجن والذى كان يعرف بالشدة وقد أخذ يمارس هذه الشدة لفترة ولكن حادثة ألمت به بعد ذلك غيرته تماما تجاه مسجونيه ومعتقليه. فقد أصيب ابنه بتسمم وكان عليه أن يلجأ إلى الأطباء الموجودين، الدكتور شريف حتاتة والدكتورحمزة البسيونى وصلاح حافظ الذى كان قد وصل إلى السنة النهائية فى كلية الطب ولكنه لم يكمل الدراسة. واستطاع الأطباء الشيوعيون أن ينقذوا ابنه وشفى تماما. فحمل لهم منير شاش هذا الجميل وتغيرت المعاملة، وأصبح يستجيب للمطالب التى يستطيع أن يتصرف بالنسبة لها.

بدأ جو من الحريات داخل السجن فأبواب الزنازين تفتح من الصباح حتى المغرب. وأصبح الاتصال مكفولا بين المسجونين والمعتقلين.

وفى هذا الجو أمكن خلق حياة جديدة مليئة بالنشاط سواء البدنى أو الفكرى أو الثقافى.

فقسم المسجونون والمعتقلون الشيوعيون بينهم المسئوليات فى العمل لتحسين حياتهم. فأصبح البعض يعمل فى المزرعة تحت إشراف زميلهم العامل الزراعى احمد سليم وبعض زملائهم الآخرين الذين لديهم معرفة بالشئون الزراعية مما كان يساعدهم فى تحسين غذائهم. فكنا نزرع مثلا الملوخية والبامية والجرجير والخيار والبطيخ. وكان لذلك أثر كبير خصوصا أن الغذاء الذى تقدمه إدارة السجن كان يقتصر على العدس والفول. وكان من حق المسجونين أن يحصلوا على بعض المشتريات من الكانتين وكانوا يقتسمونها مع المعتقلين الذين كانوا محرومين من التعامل مع الكانتين. وكانوا محرومين أيضا من الزيارات ولكن أسرهم كانت تحصل على زيارات باسم المسجونين. وأذكر أن زوجتى جاءت لزيارتى عدة مرات باسم محمد عمارة الذى كان مسجونا معنا. وكانت تأتى إليه مع خطيبته. فأعرف منه أخبارها وأخبار ولدى يوسف الذى كان قد بلغ الثانية من عمره وكان يزورنى فى سجن مصر واعتاد أن يرانى من وراء القضبان. مما أثر عليه بعد ذلك. وأصبح بعد ذلك يخطط على الورق رسم القضبان.

وكنت أشتاق كثيرا لرؤية أول ابن لى. ولم تسمح لى ظروف السجن أن أحضر ولادته. فقد ولد فى ٢٣ اكتوبر ١٩٥٩ وقد قبض على فى ١٢ مايو قبل ولادته بخمسة شهور.

وفى الواحات بدأت أمارس الرياضة بانتظام. وقد كنت نحيفا واقترح على زميلنا عبده عباس أن ألتحق بالفرقة الرياضية التى كونها - وكانت هناك فرقة أخرى بقيادة زميلنا سعد الساعى. وكان سعد الساعى إنسانا شديد الطيبة ويحبه الجميع. وقد كان ملاكما حصل على بطولات عدة وكان الزملاء يحبون مداعبته فيداعبهم أيضا ويهددهم بقبضة الملاكم.

وصلاح، أما أنا فكنت قد سبقت الجميع فى ترك المنزل عام ١٩٤٧. وتلك قصة أخرى سأعود إليها فيما بعد.

ولم يكن المنزل ملكاً لنا ولكننا كنا نستأجره إلا أن استقرارنا به كان يوحى بأنه ملكنا.

فى هذا المنزل بدأت الدراسة الابتدائية فى مدرسة المنيرة الابتدائية. ولا أذكر بالضبط العام الذى بدأنا نسكن فيه فى هذا المنزل، ولكننى أرجح أنه عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، وكان أخى أحمد أيضا يدرس فى هذه المدرسة ولكنه كان يسبقنى بسنتين. وكان معه فى نفس السنة جمال العطيفى الذى كان يسكن فى الشارع الموازى لشارعنا من ناحية أبو الريش وحى المنيرة. ومن هنا نشأت بيننا صداقة استمرت منذ ذلك الوقت. وتكونت أيضا صداقة مع أخويه وأخته التى صادقت أختى. وكنا نلعب معا كل أنواع لعب الأطفال، وكنا فى كل سن نلعب الألعاب التى تناسبها ونضيف إليها من خيالاتنا ألعابا أخرى. ولاشك أن تكويننا ونشأتنا وظروفنا كانت تحدد تلك الألعاب. وكان منزلنا الواسع والحديقة الواسعة التى تحيط به تساعدنا على التفنن فى مختلف الأشكال من الألعاب.

وأذكر مرة أننا فكرنا فى إنشاء دولة خيالية واختلفت أنا وأخى أحمد كيف تكون الدولة ملكية أم جمهورية، وكان أحمد يرى أن تكون ملكية وأن يكون هو ملكا أما أنا فكنت أراها جمهورية. واستطاع كل منا أن يعبئ معه عددا من الأطفال وهم عبارة عن الإخوة والأصدقاء واحتدم الخلاف بيننا فسار أنصارى فى حديقة المنزل يهتفون «يسقط الملك» واستمر هذا اللعب إلى أن نبهنا الكبار إلى خطورة هذه اللعبة. وفى مرة أخرى أنشأنا برلمانا وكان أحمد رئيسا للحكومة وجمال العطيفى زعيما للمعارضة فكتب خطابا قدمه للبرلمان ضد الحكومة بعنوان «إنى أتهم».

وكنا نستفيد من دراساتنا المدرسية أو من قراءاتنا المختلفة لنمارس بعض الألعاب الثقافية، فأقمنا مسرحا عرضنا فيه بعض المسرحيات مثل «مجنون ليلى» و«كليوباترا» لأحمد شوقى وحفظنا أشعاره. وكان أحمد يمثل ليلى وجمال العطيفى مجنون ليلى أما أنا فكنت أمثل زينون ودعونا الأطفال من الأصدقاء والجيران لمشاهدة المسرحية.

وعندما أنهى أخى أحمد وصديقنا جمال المدرسة الابتدائية دخلا مدرستين مختلفتين فذهب أحمد إلى المدرسة الإبراهمية فى جاردن سيتى وهى التى دخلتها أنا أيضا بعد ذلك، أما جمال العطيفى فقد دخل مدرسة الخديوى إسماعيل ومع ذلك فقد بقيت الصداقة. وتعاقب علينا الأصدقاء فى الفترات المختلفة ولكن بقيت الصداقة مع جمال أطولها وأقواها، وبقيت مع أخى بالذات وثيقة حتى وفاة جمال.

ومازالت الصداقة حتى الآن قائمة بين شقيقتى وهى زوجة وأم وجدة وبين شقيقة جمال العطيفى وهى أيضا زوجة وأم وجدة. وشقيقتى هى زوجة الدكتور عصمت سيف الدولة أما

لم أتغيب يوما واحدا عن فرقة عبده عباس واعتدت أن أقوم بالتمرينات الرياضية التى مازلت أمارس أغلبها حتى اليوم وإن كنت قد أضفت بعض التمارين الأخرى عرفتها فى بعض المصحات التى ترددت عليها أثناء وجودى بعد ذلك فى الاتحاد السوفيتى، فضلا عن بعض تمارين اليوجا التى تزودت بها من قراءاتى. وقد ساعدتنى الرياضة كثيراً. لا فى أن أتخلى عن النحافة، ولكن ساعدتنى فى التغلب على كثير من المتاعب الصحية التى كنت أشعر بها من قبل، مثل الآلام الروماتيزمية وغيرها.

وبعد التمارين الرياضية كنت أتوجه للعمل فى المزرعة، وأحببت العمل هناك وخصوصا أننى اعتدت بعد العمل أن أرقد فى عين ماء دافئة أغتسل فيها وأستريح.

وبعد العمل أعود للغذاء مع زملائى فى الزنزانة. وكنا نقوم بتحسين غذائنا وإعادة طبخه على «التوتو» وهى أداة عرفت فى السجون ومن اختراع المساجين تستخدم للطبخ واعداد الطعام وهى من الممنوعات ولكن كل أصحاب المدد الطويلة فى السجن يستخدمونها.

وبعد الظهر يبدأ النشاط الفكرى والحزبى والثقافى.

فكنا نعقد الاجتماعات ونقيم الندوات والمناظرات والفصول الدراسية. وكنت أقود فصلا لدراسة اللغة الروسية التحق به عدد من زملائنا الذين بدأت دراستهم اللغة الروسية فى السجن.

وكانت تصلنا الأخبار عن طريق الراديو الترانزستور الذى كان يحوزه زميلنا صلاح حافظ وغيره. وقد أسس عبد الستار الطويلة وكالة أنباء سماها «واس» أي وكالة أنباء سياسية. فعندما تتجمع لديه بعض الأخبار ينادى «واس .. واس» فنجتمع حوله ويذيع علينا الأخبار التى عنده.

وكانت تصلنا الصحف أحيانا. وكل ذلك كان يعتبر من الممنوعات. وكانت الزيارات مناسبات هامة نتلقى منها الأخبار من أسرنا. وكذلك كان أى « «ايراد» جديد من الزملاء أو عودة البعض من المستشفى أو المحاكمة أو خلافه مناسبات هامة للحصول على المعلومات.

ولهذا لم ننقطع عن العالم بل كنا نعرف أخباره أولا بأول واستطعنا تكوين مكتبة جيدة من كتب نجحنا فى تهريبها الى داخل السجن. وكان علينا أن نؤمن كل هذه الأشياء ونخبئها. وبهذا استطعنا أيضا أن نقرأ ونزيد ثقافتنا.

وكنا نراسل الخارج وكونا لجنة «للحملة من أجل الإفراج عنا» فكنا نرسل الرسائل للصحفيين والمسئولين والكتاب والمثقفين والشخصيات الهامة نبين فيها موقفنا ونطالب بالعمل من أجل الإفراج عنا. وعندما صدر «ميثاق العمل الوطنى» درسناه وكتبنا رأينا فيه وكتبنا تقييمنا له وصاغ صلاح حافظ هذا التقييم وأرسلناه من داخل السجن إلى جمال عبد الناصر. وأبلغنا بعد ذلك أن عبد الناصر اعتبر ما كتبناه أفضل تقييم كتب عن الميثاق.

وكانت هناك جريدتان أسبوعيتان ناطقتان إحداهما اسمها «الجريدة الناطقة» وكان يرأس

تحريرها زميلنا بهيج نصار وكانت تشتمل على مقال أسبوعى يلقيه صلاح حافظ. وكانت هذه الجريدة تصدر عن تنظيمنا «حدتو».

وكانت هناك جريدة أخرى يصدرها التنظيم الآخر. وكان يتحدث فيها أديب ديمترى الذى كان يرأس تحريرها على ما أذكر. وكان يتحدث فيها د. فوزى منصور وغيره. وكانت تتميز بالمواقف المتشددة ضد عبد الناصر واتهامه بالخيانة والعمالة لأمريكا وتمثيل رأسمالية الدولة الاحتكارية الخ.

وكانت مواقف الجريدتين على طرفي نقيض. فالجريدة الناطقة تؤيد جمال عبد الناصر ومواقفه الوطنية والاجتماعية التى كانت تتجه باستمرار يسارا نحو الارتباط أكثر بجماهير العمال والفلاحين.

وكنا فى سجننا نتابع ما يحدث فى العالم وسمعنا عن «جاجارين» أول رائد فضاء سوفيتى ففرحنا فرحا كبيرا، فكنا نعتبر أن أى انتصار يحققه الاتحاد السوفيتى أو أى بلد اشتراكى هو انتصار للاشتراكية فى العالم، وهو انتصار لنا. وقام زميلنا العامل محمد على عامر بنظم أغنية كان يغنيها اسمها «ملك الفضا اسمه جاجارين».

وكانت الحرب الكلامية التى تصاعدت عام ١٩٥٩ بين جمال عبد الناصر وخروشوف قد توقفت. وبدأت العلاقات تتوثق بين مصر والاتحاد السوفيتى الذى قدم مساعدات كبيرة فى بناء السد العالى الذى أصبح رمزا ماديا للصداقة بين البلدين. فكما ساعدنا الاتحاد السوفيتى فى الوقوف ضد العدوان الثلاثى، وضد المحاولات الامبريالية بعد ذلك للانتقاص من الاستقلال المصرى ساعدنا أيضا فى تدعيم استقلالنا الاقتصادى. وكان بناء السد العالى بمساعدة الخبرة السوفيتة والخبراء السوفييت دليلا عمليا على ذلك.

وكنا نتعاطف مع الاتحاد السوفيتى باعتباره سندنا فى النضال من أجل الحفاظ على استقلالنا وتدعيمه فضلا عن أنه أول بلد اشتراكى ونجاحه يعنى نجاح للاشتراكية فى العالم وانتصاراته تعتبر انتصارات لنا ونضالنا.

وكانت تصلنا بعض الكتابات السوفيتية وبعض الصحف الأجنبية وكنا نوليها اهتماما كبيرا. وكان للمقالات التى تساند التطورات التقدمية فى مسيرة عبد الناصر أثر معنوى كبير علينا خصوصا فى نضالنا الفكرى ضد التنظيم الآخر.

كان الإنتاج الفكرى والثقافى فى فترة سجننا كبيرا.

وقد طورنا تفكيرنا السياسى وتحليلاتنا للأوضاع السياسية فى بلادنا. وكانت التطورات السياسية والاجتماعية ومواقف عبد الناصر ومجموعته تزداد تقدما وتزداد اقترابا من افكارنا. فبعد أن كان عبد الناصر يتحدث فى البداية عن الاشتراكية الديمقراطية التعاونية، تحدث فى الميثاق

عن الاشتراكية العلمية. وفى احاديث عبد الناصر المختلفة بدأ يرفض مايقال عن الاشتراكية العربية واكد أن الاشتراكية واحدة ولكن تطبيقاتها مختلفة، لكنه كان يحرص على التمييز بين اشتراكيته وبين الماركسية اللينينية.

ولم نكن نعتبر أن هذه الخلافات حقيقية فلم نكن نطالب أبدا بتأميم الأرض. ولم نر تناقضا بين الدعوة للقومية العربية والمواقف الأممية. وكذلك لم نعتبر أننا الشيوعيين نناضل ضد الدين، بل كنا نرى الدور الايجابى للدين فى النضال من اجل القضايا الوطنية والاجتماعية.

وفى نفس الوقت كنا نرى أن المسيرة العملية لجمال عبد الناصر تتفق مع توجهاتنا ومع هذه المفاهيم.

وتلقفنا بترحاب دعوة جمال عبد الناصر فى احدى خطبه إلى وحدة كل القوى الاشتراكية وكنا نرى أن علينا أن نبذل الجهود لخلق أسس الثقة معه فى الوقت الذى كنا نلحظ الجهود التى تبذلها القوى الرجعية لتوسيع الشقاق والخلاف بيننا، وأنهم قد نجحوا عام ١٩٥٩ فى ذلك وفى التأثير على عبد الناصر ليقوم بحملته الواسعة ضد الشيوعية.

كنا نتألم لسجننا، ولعمليات التعذيب التى مورست ضدنا ، وللشهداء الذين سقطوا. ولكننا كنا نرى أن أمامنا أهدافا أكبر من ذواتنا وآلامنا، وأن علينا أن نبذل الجهد الاكبر فى التغلب على توجهات النظام اليمينية، وأن نساند بكل قوة الدعوة إلى وحدة كل القوى الاشتراكية ضد القوى الرجعية واليمينية.

وبعد قرار المجموعة الاشتراكية أسفرت مناقشاتنا عن الاتفاق على تقرير يقول أننا نمر بفترة انتقالية وذلك فى مواجهة توجهين الأول كان يقول بأننا فى مرحلة بناء رأسمالى (وكان يدافع عنه محمد عباس فهمى وطاهر البدرى) وتوجه آخر كان يقول بأننا فى مرحلة بناء اشتراكى (وكانت وجهة نظر عادل حسين).

وعقدنا المؤتمر الأول للحزب (حدتو) فى الواحات. وأقرت هذه المواقف وأقر أيضا تقرير يدعو إلى بناء تنظيم مشترك مع المجموعة الاشتراكية مع احتفاظ كل منا باستقلاله التنظيمى.

وليس صحيحا مايقال من أننا توصلنا إلى حل التنظيم ونحن فى السجن. وجدت بعض الآراء الفردية بهذا المعنى. ولكنه لم يكن رأينا كحزب ولم يكن رأى غالبية زملائنا.

وإلى جانب النشاط الفكرى والسياسى كان هناك نشاط ثقافى كبير. ولا عجب فقد وجد بين صفوفنا نخبة من أفضل مثقفى مصر مثل حسن فؤاد ود.فؤاد مرسى وفؤاد حداد ود. اسماعيل صبرى وصلاح حافظ وابراهيم عبد الحليم .ود. فوزى منصور ومحمد خليل قاسم وغيرهم ولا نعجب أن يخرج منهم إنتاج ثقافى كبير مثل «الشاطر حسن» لفؤاد حداد ومتولى عبد اللطيف وأعمال فنية لحسن فؤاد و «الشمندورة» لمحمد خليل قاسم

وغيرهم.

وبنى الشيوعيون مسرحا داخل السجن بنوه بأيديهم طوبة طوبة ومثلوا عليه بعض الروائع مثل «عيلة الدوغرى» و «الناس إللى فوق» وبرز فى السجن بعض المواهب فى التمثيل مثل على الشريف.

وظهرت فى السجن موهبة الفنان المطرب محمد حمام الذى كان يشجينا بأغانيه.

وذلك فضلا عن العديد من المؤلفات والتراجم التى نجحنا فى اخراج البعض منها وفقد البعض الآخر.

وقام الشيوعيون ببناء مسجد سماه المسجونون العاديون غير السياسيين مسجد الشيوعيين. وإلى جانب عنبرى الشيوعيين وجدت عنابر المسجونين من الاخوان المسلمين ولكنهم لم يقدموا أى اسهام فى بناء ذلك المسجد.

قام الشيوعيون من عمال ومثقفين بعمليات البناء هذه بأيديهم وقد وضع التصميم المهندسون الشيوعيون المسجونون خصوصا المهندس فوزى حبشى.

كانت فترة سجن واعتقال طويلة (٥ سنوات كاملة) وكان هناك مساجين شيوعيون ينفذون عقوبات بدأت قبل ذلك بست سنوات. ولم يخرجوا إلى النور هذه الفترة كلها.

وكثير منهم كانوا ينهون مدة عقوبتهم ويرحلون إلى المباحث العامة فى القاهرة ويعودون أدراجهم معتقلين لأنهم رفضوا أن يتعهدوا بالامتناع عن العمل السياسى. فيعودون إلى الواحات معتقلين لمدة مجهولة أخرى.

كنا نقاوم السجن بالرياضة والعمل وتحسين غذائنا من المحصولات الزراعية التى نزرعها بأنفسنا. وبالاطلاع والدراسة والندوات والعمل السياسى والفكرى والثقافى والانتاج الثقافى والحرص على الصلة المستمرة بالعالم الخارجى. وكان هذا يتطلب منا عملا وجهدا وفكرا مستمرا لكى لاينجح سجانونا فى عزلنا عن العالم وتحطيمنا جسديا وفكريا.

وكانت مجموعتنا (حدتو) لاتعارض جمال عبد الناصر بل تؤيد توجهاته الوطنية والاجتماعية ولكنها تتمسك بشيوعيتها وانتمائها الفكرى المستقل. وكان عليها فى هذه الظروف ألا تنزلق إلى التخلى عن أفكارها ومبادئها أو تتحول إلى العداء لعبد الناصر وتوجهاته. وكان الحفاظ على هذا الموقف يحتاج عزيمة وجهدا كبيرا لايقدر عليه الا من امتلك ذلك القدر من الوضوح والعزيمة.

وكانت تصلنا أخبار عن المعارك الخارجية ضد قوى الرجعية والاستعمار. عشنا محنة انفصال سوريا. ووقفنا ضد الانفصاليين وساندنا موقف عبد الناصر ضد القوى الرجعية التى تعشش داخل الاتحاد الاشتراكى فى مصر وسوريا. وكتبنا مواقفنا وآراءنا وبعثناها إلى عبد الناصر

وإلى الكتاب والصحفيين.

وفى أواخر عام ١٩٦٣ وصلنا ونحن فى السجن حديث جمال عبد الناصر مع اريك رولو الصحفى الفرنسى فى جريدة الموند والذى وعد فيه جمال عبد الناصر بالافراج عن الشيوعيين قبل نهاية العام. وانتهى العام ولم يفرج عنا. وتبينا أن هناك قوى تريد لنا أن نبقى فى السجن وتقاوم الافراج عنا. ولم نيأس، ولم تتغير مواقفنا، بل استمرت دراستنا وتحليلاتنا وتأكدت ثقتنا فى ضرورة وحدة جميع القوى الاشتراكية بمختلف اتجاهاتها وتحت قيادة جمال عبد الناصر.

وسمعنا ونحن فى السجن عن تكوين تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى وسمعنا بأن بعض زملائنا عند الافراج عنهم اختيروا لعضوية هذا التنظيم الطليعى.

بدأ الافراج عنا - نحن المعتقلين فى ابريل ١٩٦٤ - أما المسجونون فقد تم الافراج عنهم فى مايو من نفس العام. وقيل إن الإفراج عنا كان مرتبطا بالزيارة التى كان خروشوف ينوى القيام بها إلى مصر. وأعتقد أن قرار الإفراج قد اتخذ قبل ذلك بدليل حديث عبد الناصر مع اريك رولو ووعده بذلك وأنه سيتم قبل نهاية ١٩٦٣ . ولكنه لم يتم فى هذا الموعد، وأعتقد أنه اختير موعد زيارة خروشوف لتحقيق هذا الوعد قبله بقليل كجزء من الاعداد لهذه الزيارة.

وكان خروشوف قد تحدث أكثر من مرة فى عام ١٩٥٩ عن المعتقلين الشيوعيين فى مصر وأبدى تعاطفه معهم.

رحلت مع باقي المعتقلين الشيوعيين إلى السجن الحربى في القاهرة. وهكذا كانت تبدأ إجراءات الافراج.

أمضيت هناك ليلة ونودى عليّ وخرجت إلى الحرية لأول مرة بعد خمس سنوات. وللمرة الأولى بعد أكثر من خمسة عشر عاما من السجن والهرب والمنفى ودخول البلاد سرا والعيش متخفيا وهاربا ومطاردا أتوقع القبض عليّ في أى لحظة. أكثر من خمسة عشر عاما لم أعش فيها حياة طبيعية، فأحمل أسماء مختلفة في مصر وفى مختلف البلاد. وحتى فى المجر حيث كنت أعيش حياة طبيعية، فقد كنت أشعر بالغربة الشديدة. ومع ذلك فقد استطعت أن أحصل على شهادة جامعية من المعهد العالى للغات الأجنبية من جامعة بودابست وتعلمت اللغة الروسية وحصلت على دبلوم فى الترجمة منها. وبقيت عليّ مهمة أن أحصل على ليسانس الحقوق الذى لم أنه امتحاناتى فيه منذ عام ١٩٤٧ .



هذا الكتاب

ليس قصة حياة شخصية بقدر ما هو عرض لتاريخ حركة وتيار ومواقف ورأي مؤلف هذا الكتاب في هذا كله.

وقيمة هذه المسيرة أنها حول حياة لم تسر في الطريق المألوف، ورغم ارتباطها الكامل بالقضايا والأهداف العامة، إلا أنها تتضمن أيضا بعض الأحداث المثيرة التي تجتذب القارئ لمتابعتها حتى وإن لم يتفق مع الكاتب في الطريق الذي اختاره والآراء التي يبديها.

وهي تمثل أيضا حياة امتدت أكثر من سبعين عاما بدأت في ظروف مختلفة عن ظروف اليوم بمعايير تختلف كثيرا عن المعايير السائدة حاليا. وهي تجربة قد يستفيد منها ويهتم بها شباب اليوم قبل غيره ويثير لديه التفكير والتأمل عندما يريد البحث عن طريقه وخياره للمستقبل.

والمؤلف هو صاحب ومدير دار الثقافة الجديدة ومدير دار العالم الثالث للنشر. وهو كاتب وصحفي له عدد من المؤلفات منها:

- « اليسار والحركة الوطنية في مصر ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ ».
- « ٢١ فبراير توجه جديد للحركة الوطنية المصرية ».
- « سقطة ـ رد على التشهير باليسار المصري».
- « ماذا يحدث في العالم الاشتراكي ؟ ».
- « العولمة والأممية »

إلى جانب عدد من الكتب المترجمة.

شقيقة جمال العطيفى فهى زوجة الدكتور صوفى أبو طالب. ورغم تفرق السبل واختلاف السياسات فمازالت الصداقة قائمة بين كل منهن.

وكان أبى رجلا شرقيا محافظا فزوجته لاتظهر على أصدقاهة من الرجال. وكذلك باقى النساء فى المنزل (خالاتى وشقيقتاي). ورغم أن شقيقتيّ كانتا يشتركان معنا فى اللعب. وكان لدينا فى الدور الأسفل حجرة للضيوف وحجرة للمكتب. ثم الحديقة والبدروم وهى الأماكن التى يمكن للضيوف من الرجال أو الأولاد التواجد فيها، أما الدور العلوى فيمنع صعودهم إليه. إلا إذا كانوا من الأقارب القريبين (أعمام أو أولاد العم). وأذكر أننا دعونا مرة جمال العطيفى وهو طفل للصعود للدور العلوى فغضب أبى غضبا شديدا عندما عرف بذلك.

وأذكر مرة أننا دعونا جمال العطيفى وصديقا آخر إلى زفتى وأمضينا الليل فى المنزل الصغير الذى كان مكتبا لعمى عوض والذى كان مستقلا تماما عن منزلنا إلا أنه غضب أيضا لدعوتنا أصدقاء للمبيت. وعندما تزوجت أختى عايدة وهى أصغر منى بسنة ولم تكن بلغت بعد السادسة عشرة من عمرها. وقد تقدم محام شاب اسمه أنور وحش من عائلة وحش ببشلا مركز ميت غمر. خطبها من والدى الذى وافق على الخطبة وزوج أختى دون أخذ رأيها.

ولم يكن هذا أمرا شاذا بالنسبة لوالدى، فقد كانت هذه هى التقاليد بالنسبة للغالبية الساحقة من أسر الطبقة الوسطى فى مصر فى هذه الفترة (الثلاثينيات والأربعينيات). وقد تغير الأمر كثيرا بعد ذلك. فتغيرت التقاليد وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر حرية وانفتاحا مع خروج المرأة للعمل. ومزاملتها الرجل فى العمل والدراسة.

وقد كنا جميعا نحب أبانا ونخشاه فى نفس الوقت. فكان هو سيد المنزل الذى لا يتواجد فيه كثيرا، فهو فى الصباح يذهب إلى العمل ويأتى بعد الظهر بقليل للغداء حيث نجتمع جميعا على مائدة الغداء وعلى الغداء نتبادل الحديث حول الأمور المنزلية أو أمور الدراسة وغيرها، أما غير ذلك فله عالمه الخاص الذى لم نكن نعرف عنه الكثير إلا أنه كان يذهب لمكتبه بعد الظهر، وبعده يسهر مع أصدقائه فى ناد. ويأتى متأخرا ليلا وأذكر أنه على الغداء كان يكثر من تناول الليمون الذى يعصره حتى علىّ الأرز، أما بالنسبة لنا فكان شديدا فى رفق. فكان يرفض أن يقول أى من أبنائه أنه لايحب أى شيء من الطعام الذى يقدم. وفى المساء كانت أمى تعد له عشاء خفيفا يشتمل أساسا على اللبن الزبادى وأحيانا البطارخ والجبن. وتتركه له على المائدة إلى أن يعود.

وكان يعامل والدتى برقة شديدة، ولا أذكر أنهما تشاجرا، أو أنه عنفها إلا مرة واحدة عاد من عمله ولم يكن المنزل قد انتهى تنظيفه وترتيبه بعد، فثار وغضب ولكنه لم يوجه حديثه مباشرة إلى أمى. ولكنها تأثرت ونزلت دموعها فى صمت. وكثيرا ما كنت أراها حزينه تبكى بهدوء عندما كان أبى يتأخر فى الخارج. ولكنها لا تحدثنا بأى شيء رغم أننا كنا نتبادل معها

الأحاديث فى كل شيء بشكل مفتوح، ولم نكن نخشاها كما كنا نخشى أبى. فنلعب أمامها ونمارس «شقاوتنا» دون خوف من أى زجر. وهو الأمر الذى لم نكن نفعله مع أبى. رغم أنه كان يحبنا جدا ويتلاطف معنا ويداعبنا. وأذكر عندما مرضت أختى الصغيرة بالتيفود أنه كان شديد القلق عليها. وكان يحبها جدا. وأذكر أنه كان معى عطوفا جدا وملاطفا ولم يكن شديدا معى كما كان مع أخى أحمد. وكان هو وباقى الأسرة يستخدمون معنا أسماء التدليل.

وكان يرفض أن يعامل أولاده بشكل مميز. ففى إحدى المرات ذكر الخادم فى حديثه إلى أبى «حمادة بك» إشارة إلى أخى أحمد فعنفه وقال له هذا طفل فكيف تقول حمادة بك. وكان أحمد وقتها فى حوالى الرابعة عشرة من عمره.

كنا أكثر انفتاحا على أمنا نمضى معها أغلب الوقت، وهى التى كانت تعتنى بنا مباشرة. ونشعر بحرصها الشديد علينا وكنا أهم شيء فى حياتها. ولم تكن لها أى متعة أخرى، وما أذكره عنها أنها كانت شديدة الطيبة.

فرض على الجو العائلى الذى أعيش فيه أن أهتم بالسياسة منذ طفولتى الأولى. فأسمع دائما الأحاديث والمناقشات السياسية، وأخبار تبديل الوزارات وكان التعاطف بالطبع مع حزب الوفد ورفض أحزاب الأقليات وحكوماتها.

لذا كنت أهتم منذ الطفولة بقراءة الصحف والكتب السياسية. وأذكر عام ١٩٣٥ ومظاهرات الطلبة من أجل القضية الوطنية التى أعقبها مجيء حكومة الوفد سنه ١٩٣٦. وكان أبى قد اختير مع آخرين عضوا قياديا فى حزب الوفد ثم اختير مع ثلاثة آخرين هم صبرى أبو علم وممدوح رياض وعبد الفتاح الطويل وكلاء برلمانيين، وهو منصب جديد لم يكن موجودا من قبل. وعين أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية وكان النحاس باشا هو وزير الداخلية ولهذا كان أبى هو المتصرف الفعلى فى شئون وزارة الداخلية.

وكان أبى قبل ذلك بسنة قد اشترى سيارة ماركة «بليموث كريزلر». وهو لم يكن يستطيع قيادة السيارة فعين سائقا اسمه «الأسطى عوض». وعندما اختير وكيلا برلمانيا أصبح لديه سيارة حكومية بسائقها وعسكرى يحرس المنزل. فأصبحنا نستخدم السيارة الخاصة فى شئون الأسرة، ونذهب إلى مدارسنا فى السيارة، وكنت أنا وأحمد نستقلها للذهاب إلى مدرسة المنيرة وكانت السيارة توصل أختى الأكبر إلى مدرسة السنية والأصغر إلى مدرسة الليسيه. وعندما بلغ حسن سن الدراسة ذهب أيضا لمدة عام إلى مدرسة الليسيه فى روضة الأطفال.

وهكذا تغيرت حياتنا.

وأعيد تشكيل الوزارة عام ١٩٣٧ واختار النحاس الوكلاء البرلمانيين الأربعة وزراء فى وزارته. واختير أبى وزيرا للمعارف (وهو اسم وزارة التربية والتعليم في ذلك الوقت) ونشرت كل

الصحف أسماء المرشحين للوزارة وصورهم بما فيها صورة أبى. واستدعى المرشحون إلى السراى لحلف اليمين. وأذكر ذلك اليوم وكيف لبس أبى ملابس التشريفة (ملابس الردنجوت) وتوافد المهنئون. وعاد أبى من السراى دون أن يحلف اليمين. وعرفنا بعد ذلك أن الملك فاروق رفض تعيينه وزيرا وخيم على المنزل جو قاتم، وبدلا من توافد المهنئين توافد المتضامنون. ولم يرد القصر أن يقول الأسباب الحقيقية. ولكن الجميع تأكدوا أن السبب فى ذلك هو دور أبى فى ثورة ١٩١٩ وجمهورية زفتى فضلا عن أنه كان له موقف ضد الأوقاف الملكية واعترض أكثر من مرة فى البرلمان وصوت ضد المخصصات الملكية.

وقد أدى موقف السراى إلى أزمة بين القصر والوفد. رفض الوفد موقف السراى سوى والأمر بعد عدة شهور بأن عاد أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية كما كان. وكان ذلك ترضية له وإلغاء لكل الاتهامات والمحاولات لتلويث سمعته.

وقد حاولت السراى فى فترة لاحقة استرضاءه فعينته عضوا فى مجلس الشيوخ وكان الدستور السارى وقتها يعطى الملك حقا فى تعيين ثلث أعضاء مجلس الشيوخ. وقد اعتاد الملك أن يعين أغلبهم من الحزب الحاكم ولكنه عين أبى من بين من عينهم. وكانت السراى تحاول دائما إحداث انشقاقات داخل الوفد وتحاول اللعب على أى خلافات داخلية كما فعلت بالنسبة لانقسام احمد ماهر والنقراشى وكما فعلت بعد ذلك بالنسبة لمكرم عبيد وانقسام الكتلة الوفدية، ولكن أبى ظل على انتمائه لحزب الوفد رغم وجود بعض الخلافات بينه وبين قيادة الوفد التى كانت تريد أن يستقيل كل النواب والشيوخ الوفديين ويقاطعون البرلمان. وكان لأبى رأى آخر.

وكانت حكومة الأقلية قد زورت الانتخابات بحيث لم ينجح غير عدد قليل من النواب الوفديين. وكان أبى وعدد قليل من الوفديين يمثلون المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ. وكان محمود بسيونى زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ وأبى نائبا لزعيم المعارضة. ولكن الواقع أنه كان الزعيم الفعلى للمعارضة فى مجلس الشيوخ. واستطاع من خلال منبر المعارضة أن يرفع رأي المعارضة ضد الحكومة ويستخدم ذلك لكشف الممارسات الحكومية وقد اكتسب فى ذلك الموقع احترام الجميع. وأذكر من كلمات أنطون الجميل فى حفل تأبينه بعد وفاته قول إنه لم يكن فى الوزارة وزيرا ولكنه كان الوزير الفعلى وإنه لم يكن فى المعارضة زعيما لها ولكنه كان الزعيم الفعلى.

حصل الوزراء الثلاثة الذين كانوا وكلاء برلمانيين مع أبى على الباشوية أما أبى فقد كان وكيلا برلمانيا فلم يحصل على أى لقب.

***

اعتدنا فى طفولتنا على تمضية الصيف فى زفتى وأحيانا كنا نذهب إلى رأس البر وكانت تذهب معنا فى نفس الوقت أسرة صبرى أبو علم. وكان صبرى أبو علم محاميا مثل أبى يشتركان معا فى نفس المكتب ونشأت بينهما صداقة وكذلك بين الأسرتين.

وأذكر فى أول مرة نذهب فيها إلى رأس البر وكان عمرى وقتها حوالى السادسة أو السابعة وكان أولاد صبرى أبو علم بنتين الكبرى سنها مقاربة لسن أحمد والتالية سنها مقاربة لسنى وكانت هناك بنت ثالثة أصغر منهما ثم ولد صغير. ونشأت صداقة بيننا وبين البنات وبين أمهم وأمى وكنا نحن الأطفال نلعب معا ونمضى طوال الوقت معا. وانجذب أخى أحمد للابنة الكبرى وانجذبت أنا للابنة الثانية وكان هذا بالنسبة لى شعورا لم أعهده من قبل.

وتوالت بعد ذلك سفريات الصيف إلى رأس البر ثم إلى الإسكندرية فى سيدى بشر حيث كنا نصيف معا.

ولكننى بعد أن دخلت بعد ذلك فى فترة المراهقة تحولت إلى ولد خجول منطوٍ أتهيب من لقاءهن عندما يأتين لزيارتنا.

أنهيت دراستى الابتدائية ودخلت مدرسة الإبراهيمية الثانوية حيث كان يدرس أخى وأذكر فى نهاية الدراسة الابتدائية وبداية الدراسة الثانوية أن تكونت لنا صداقات مع أطفال الحى.. وبخلاف جمال العطيفى أذكر من أصدقائنا فى ذلك الوقت فؤاد محيى الدين وإسماعيل السيوفى. وكنا نلعب معا. من ذلك لعبة كرة القدم فى الشارع المجاور. وكنا نكون فريقين متنافسين ونقيم مباريات لكرة القدم وغيرها من الألعاب. وكنا ننظم الرحلات وحصلنا على خيمة ذهبنا مرة إلى مصر الجديدة سيرا على الأقدام وأقمنا معسكرا هناك فى الصحراء ولم تكن مصر الجديدة قد بنيت بعد بشكلها الحالى.

وقررنا مرة أن نذهب إلى الأهرام سيرا على الأقدام. وعندما وصلنا إلى أهرامات الجيزة لمحنا فى الصحراء هرم سقارة عن بعد فقررنا مواصلة رحلتنا عبر الصحراء وفى الطريق اختفى هرم سقارة عن أنظارنا. وكنا قد بدأنا رحلتنا الساعة السادسة صباحا. واصلنا الطريق فى الصحراء ونفد منا الماء وحل بنا التعب والعطش وكنا أطفالا. واستطعنا عند حلول الليل أن نصل أخيرا إلى هرم سقارة. لم نبق هناك طويلا وقررنا العودة من الطريق الزراعى، واستضافنا بعض الأعراب وقدموا لنا الشاى واستوقفوا إحدى السيارات التى أقلتنا إلى القاهرة. وصلنا إلى الأهل حوالى الثانية عشرة مساء. وكانوا فى غاية الفزع، أبلغوا أقسام الشرطة للبحث عنا. وتلقينا توبيخ أمى وخالاتى. ولكن أبى عندما عرف بذلك فى الصباح كان فخورا بمغامرتنا.

فرضت على نشأتى الاهتمام منذ الطفولة بالقضايا السياسية، وأن يكون توجهى معاديا للاستعمار فى أى مكان. وأذكر فى عام ١٩٣٦ أثناء الحرب الحبشية الايطالية، أن كنا ونحن أطفال نسير فى حديقة منزلنا متظاهرين وهاتفين «يحيا النجاشي هيلاسلاسى» تعبيرا عن

تعاطفنا مع الحبشة ضد ايطاليا. وكنت متعاطفا مع الوفد ضد أحزاب الأقلية متأثرا بانتماء والدى الوفدى. وكنت مع مبادئ الحرية والمساواة والدفاع عن مصالح العاملين، مع الفلاحين والعمال ومع الطلبة فى مظاهراتهم الوطنية من أجل الاستقلال. وكانت مشاعرى ضد انجلترا باعتبارها المستعمر لبلادى. وكنت أرفض الظلم من أى نوع بما فيه الظلم الاجتماعى. وكان صديقنا جمال العطيفى يتعاطف وينتمى بعض الوقت إلى مصر الفتاة. وكنا نختلف ونتناقش. وفى المدرسة الثانوية بدأت اهتماماتى تتحدد أكثر. وأصبحت أكثر من القراءة. وكنت أقرأ كل شيء ومن القراءات التى كنت أواظب عليها فى الطفولة «روايات الجيب». وكان هناك الكثير من الروايات عن الثورة الفرنسية التى كنت أنجذب لقراءتها.

وفى السنة الأولى الثانوية مررت بتجربة صعبة كانت تمثل صدمة لى. إذ أننى لم أنجح فى اجتياز امتحان النقل إلى السنة الثانية. فقد اجتذبنى اللعب أكثر من اللازم مما جعلنى أهمل دروسى. وكان أبى يتشدد معى عادة فى متابعة تحصيل الدروس، ولكننى أحسست منه موقفا آخر عند رسوبى، فقد أحس بأننى فى محنة وأننى شديد التأثر لرسوبى. فكان يخفف عنى، ويقول رب ضارة نافعة. وقد بذلت مع خالتى (وكانت تعمل مدرسة ثم ناظرة مدرسة) جهدا كبيرا بالمرور على مختلف المدارس الأهلية للموافقة على نقلى إلى السنة الثانية. ولكننى فشلت فى هذه المحاولات. فاضطررت لإعادة السنة. وحرصت بعد ذلك على الاهتمام بالنجاح المتفوق فى كل عام. ولكننى تأثرت كثيرا من أن زملائى سبقونى. وأننى تخلفت وأن أخى أحمد وصديقى جمال اللذين كانا يسبقانى بسنتين أصبحا يسبقانى بثلاث سنوات، فقد انتقلا إلى السنة الرابعة الثانوية وبقيت فى السنة الأولى.

***

(٢)

التوجه السياسي

أخذت أقرأ أى كتب تقع عليها يدى من مكتبة أبى. وعثرت فى هذه الفترة على كتاب اسمه «ألمانيا اليوم» ومؤلفه اسمه ثابت ثابت زار ألمانيا وعاد ليشيد بالنظام هناك. وكان الحكم النازى يسمى نفسه بالاشتراكية الوطنية. ولهذا فإنه عندما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ كنت متعاطفا مع ألمانيا لأنها كانت تعادى انجلترا التى تستعمر مصر. وكان هذا هو شعور كثير من الشباب الوطنى فى ذلك الوقت. وأذكر أننى تناقشت كثيرا مع أحد زملائى فى الدراسة الذى كان يختلف معى فى الرأى ويعارض النازية.

وكنت فى نفس الوقت أقرأ عن الاتحاد السوفيتى وأتعاطف معه. وعندما عقد ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى ظننت فى البداية أنه تحالف بين الاشتراكيين. وعندما هاجمت ألمانيا النازية الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤١ بدأت اقتناعاتى تهتز. ولم أفهم الأمر فى البداية. وظللت فترة أستمع لإذاعة ألمانيا باللغة العربية وكنت أتعاطف وأتأثر بما يقوله المذيع، وهجومه على الاستعمار البريطانى وإشادته بدور ألمانيا التى ستساعدنا على التحرر من الاستعمار البريطانى.

وفى المدرسة الإبراهيمية وعندما كنت فى السنة الأولى كان يتزعم المدرسة شاب فى السنة الخامسة، كان يحسن الخطابة ويقود المظاهرات اسمه محمد زكى هاشم. وكان وقتها ذا توجه وفدى وقد أعجبت به كثيرا. ونشأت بيننا علاقة بعد ذلك، خصوصا بعد أن عرف أننى واحمد من ابناء يوسف الجندى، وقد كان وفديا فى ذلك الوقت.

كنا فى الصيف نذهب إلى زفتى وكنت أنا وأخى أحمد نلتقى بالشباب هناك وتعرفنا بعدد منهم كنا نتبادل معهم الآراء والأفكار وعندما أعود إلى القاهرة كنت أتبادل معهم الرسائل.

وبدأت أنا وأخى نفكر مع بعض الشباب لتنظيم زيارات للفلاحين لحل مشاكلهم

ومساعدتهم. وفكرنا فى إصدار مجلة. وأذكر بعد ذلك أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين فى السيدة زينب تتضمن نفس المعانى بعنوان «التضامن الاجتماعى والإسلام». وبعد المحاضرة دعانى الإخوان أنا وأخى إلى المقر الرئيسى للاخوان المسلمين للقاء مع حسن البنا الذى عرف أننا أولاد يوسف الجندى فأخذ يشيد بأبينا.

كانت لنا علاقات طيبة بالإخوان المسلمين وخصوصا بشعبة السيدة زينب. ولكننا لم ننضم إليهم رغم محاولاتهم.

وبينما انتقلت إلى السنة الثالثة الثانوية دخل أخى وجمال العطيفى كلية الحقوق بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) وأصبحا طالبين جامعيين ولم يعودا ملزمين بلبس الطربوش الذى كنا نجبر على لبسه فى المرحلة الثانوية.

وكانت علاقتى بجمال العطيفى وثيقة جدا رغم أنه كان يسبقنى فى الدراسة. وكنا نتناقش معا ونلتقى فى كثير من الأفكار. وتحدثنا معا عن الاشتراكية. وكان كلانا يعبر عن انتمائه للفكر الاشتراكى. وكنا نقرأ بعض الأدبيات مثل «المجلة الجديدة»، وحاولنا الكتابة فيها. ومن الغريب أن كتابا فى الاقتصاد السياسى للدكتور عبد الحكيم الرفاعى وزكى عبد المتعال قرأته فى ذلك الوقت وكان له تأثير على. ورغم أن الكتاب فى مجموعه كان يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها إلا أنه عندما تعرض لمشروع السنوات الخمسة الأولى فى الاتحاد السوفيتى ذكر أن الاتحاد السوفيتى هو البلد الوحيد الذى لم يعان من أزمة ١٩٢٩ التى شملت العالم الرأسمالى، وكان لذلك تأثير كبير عليّ. إذ فكرت أن مثل هذا النظام لابد أن له أفضلية على النظام الرأسمالى.

وكان انتماؤنا للفكر الاشتراكى لايرتبط بمذهب معين، ولكنه كان انعطافا نحو الكادحين ورفض الاستغلال والظلم الاجتماعى والرغبة فى تحقيق العدل الاجتماعى، وكنا نؤمن أننا يجب أن نكرس أنفسنا للعمل من أجل هذه الأهداف. أما صفاء شقيق جمال الأكبر وكان أيضا من دارسى الحقوق ويسبقه بعدة سنوات فكان يرى أنه يجب لكى ننجح فى تحقيق هذه الأهداف أن نصل إلى مراكز مرموقة فى المجتمع فتصبح كلمتنا ذات أثر بين الناس.

أما نحن فكنا نرى أننا يجب أن نعمل شيئا. وفى الصيف طرأت لنا فكرة أن نبحث عن عمل لنصبح عمالا. فتقدمنا إلى مكتب القوى العاملة الخاص بتشغيل العمال وقدمنا طلبا للعمل، ولكن لم يطلبنا أحد ولم يردوا علينا.

وفى بداية الأربعينيات اتصل بنا زكى هاشم. ولم يعد هو الطالب الوفدى الذى عرفناه بل أصبح ماركسيا، واقترح علينا أن ندرس كارل ماركس. واتفقنا على مواعيد وكان يحاول تكوين مجموعة منى ومن أخى أحمد وجمال العطيفى واثنين آخرين من الأصدقاء أحدهما يدعى عزمى نجيب والآخر جورج زنانيرى، ولم يستمر ذلك لأن زكى هاشم نفسه لم يواصل معنا.

(٣)

العمل السياسي

ولكننا لم نتوقف فقد قررنا تكوين جماعة سميناها «البعث الاجتماعى» وضعنا لها برنامجا اشتراكيا كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج». وقمنا بمناقشات مع الكثيرين حول هذا البرنامج. وممن ناقشناهم أفراد من الإخوان المسلمين أصروا على إضافة بند عن تطبيق الشريعة الإسلامية، أضفناه فى نهايـــة البرنامـــج.

وجمعت هذه الجمعية حوالى ٣٠ شابا كانوا كلهم طلبة فى الجامعة أو المدارس الثانوية. وكنت طالبا فى المدرسة الثانوية انتخبت سكرتيرا للجمعية، كنا نجتمع عند عز العرب أمين عضو الجمعية الذى أصبح فيما بعد سفيرا بوزارة الخارجية. وكان منهم فؤاد محيى الدين وإسماعيل السيوفى وجمال العطيفى وفتحى غانم وأخى أحمد وغيرهم.

طبعنا البرنامج فى إحدى المطابع ووزعناه فى المدارس والجامعة. ووقع فى أيدى البوليس السياسى. وكان ذلك عام ١٩٤٢ وكانت حكومة الوفد فى السلطة فاتصلوا، بأخى أحمد وحذروه.

وفاة أبى

كان أبى قد توفى يوم الجمعة ١٢ ديسمبر ١٩٤١. وكان يبلغ من العمر ٤٨ عاما أو كان مفروضا أن يبلغ ٤٩ عاما بعد شهرين.

فقد ولد فى فبراير ١٨٩٣ فى مدينة زفتى. وأتم دراسته الابتدائية بها ثم التحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية وفى هذه الفترة عمل ومعه جماعة من الطلاب على إنشاء

«لجنة التأليف والترجمة والنشر»، وقد نمت هذه اللجنة بعد ذلك. وقد عمل معه فى هذه اللجنة زميله وصديقه محمد فريد أبو حديد وقد استمرت صداقتهما حتى وفاته، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها سنة ١٩١٥. وأثناء دراسته فى كلية الحقوق فصل هو وعدد من الطلبة لمدة عام لنشاطهم الوطنى واحتجاجهم على إعلان الحماية البريطانية عقب إعلان الحرب. وبعد تخرجه عمل فى مكتب المحامى محمد عفيفى فى ميت غمر فترة من الزمن ثم استقل بمكتب خاص فى ميت غمر ظل فيه حتى عين محاميا بقلم قضايا وزارة الأوقاف. ومنذ ذلك الوقت بدأ يهتم بقضايا الأوقاف وقدم مشروعا بإلغائها.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ارتفعت الأصوات للمطالبة بالاستقلال واسترداد الحقوق الوطنية. ومن بين هذه الأصوات كان نضال يوسف الجندى مع غيره فى زفتى وميت غمر. ولم يتحدث معنا والدنا عن دوره فى الثورة هناك، ولكننا كنا نسمع أخبارا من هنا وهناك. وقد عكف بعض الكتاب على تجميع المعلومات عما عرف باسم «جمهورية زفتى» ومنهم أحمد بهاء الدين فى كتابه «أيام لها تاريخ». يقول «ومنذ بدأت حركة الوفد والاثنان يوسف وعوض الجندى يترددان بين القاهرة والريف. ولمع يوسف بالذات فى جلسات ثائرة فى محلات (جروبى) ومجادلات فى حديقة بيت الأمة، وفى خطب عنيفة على منبر الأزهر.. الذى كان قاعدة الثورة، وعرفه سعد، والكبار من أعضاء الوفد .. عرفوه ثائرا لا يهدأ، ليس فى وجهه الأسمر إلا شيء واحد .. العناد . ولا يخرج من كيانه النحيل إلا أفكار متطرفة.

وانفجرت الثورة ويوسف الجندى فى بلدته زفتى. واتجهت اليه أنظار القرويين ينتظرون منه أن يصنع شيئا. ولكن ها هنا فى جوف الريف لا يوجد إنجليز يقاتلهم الفلاحون. والسكك الحديدية قد قطعها الفلاحون من القرى المجاورة فعلا. ومع ذلك فلابد من عمل شيء خطير، ينطوى على معنى الثورة.

وقرر أن تعلن زفتى وميت غمر استقلالهما وأن ترفضا الخضوع لأية سلطة أخرى.. ثم ليأت الانجليز..

وبدأ الثائر الصغير يعمل. أعلن عن تشكيل لجنة للثورة من بعض الأعيان، والأفندية المتعلمين، والتجار الصغار، عرفنا من أسمائهم عوض الكفراوى، الشيخ مصطفى عمايم، إبراهيم خير الدين، ادمون بردا، محمد السيد، محمود حسن.. واتخذت لجنة الثورة مقرا لها قاعة واسعة فى الدور الثانى من مقهى يملكه يونانى عجوز، اسمه مستوكلى (قهوة مستوكلى).

واجتمعت لجنة الثورة وقررت أن تبدأ بوضع يدها على السلطة الفعلية بالاستيلاء على مركز البوليس. وزحف يوسف الجندى إلى المركز على رأس مظاهرة ضخمة ضمت كل الرجال وجيوش الصبية الصغار .. القليلون منهم حملوا بنادقهم القديمة وتسلح الآخرون

بالعصى وفروع الأشجار والفئوس.. وساعدت الظروف أن تجنب الدولة الجديدة إراقة الدماء .. إذ كان مأمور المركز رجلا وطنيا اسمه «إسماعيل حمد» ومعه معاون بوليس اسمه «احمد جمعة» وخرج المأمور إلى المظاهرة وسلم يوسف الجندى المركز، والسلاح، وقيادة الجنود والخفراء.. ثم عرض خدماته عليه.. كمستشار للدولة الجديدة يشير عليها بوصفه خبيرا بأحوال الإدارة فيها ..

واتجهت المظاهرة إلى محطة السكة الحديدية والتلغراف فسيطرت على التلغراف فورا، واستولت على عربات السكة الحديد التى كانت واقفة مشحونة بالقمح، ينتظر إرسالها إلى السلطات الإنجليزية.

وبات على الدولة الجديدة أن تواجه مشاكلها الداخلية!.. وجمع يوسف الأعيان ودعاهم إلى التبرع ليصبح للدولة خزانة .. وكانت هناك حركة تبرعات أخرى جارية لتمويل الوفد، وكان يجيء إلى زفتى كل أسبوع مهندس من طنطا يتسلم التبرعات المتجمعة، اسمه عثمان محرم! وتبرع الأعيان أيضا للدولة الجديدة. وكان قصد يوسف الجندى من ذلك أن يوجد عملا للأيدى الكثيرة التى تعطلت لظروف الثورة، فلا تتحول إلى السرقة والنهب .. فاستخدم الأموال المتجمعة ليوجههم إلى بعض الأعمال المفيدة..

ردموا البرك والمستنقعات التى تحيط بالقرية، والتى يئس الأهالى من مطالبة الحكومة بردمها منذ عشرات السنين.

وردموا الشوارع التى كانت تنشع بالماء إذا حدث الفيضان. وأصلحوا الجسور القريبة .. بل لقد أقامت «الدولة» كشكا خشبيا على ضفة النيل لتعزف فيه الموسيقى!

ثم جندت لجنة الثورة كل التلاميذ والمتعلمين الموجودين فى زفتى وقسمتهم إلى فرق: فرقة تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الأمن .. وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسرب مواد التموين أو دخول الجواسيس ! وفرقة تشرف على عمليات الرى وتزويد الأرض بالماء.

وظهر أن فى قلب زفتى توجد مطبعة! مطبعة صغيرة يملكها محمد أفندى «عجينة» أخذت تطبع قرارات لجنة الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس .. وقد ظلت هذه المطبعة بعد ذلك مؤسسة وطنية خطيرة فى حياة زفتى .. تطبع المنشورات السرية فى مختلف عهود الأقليات .. ولا تزال موجودة إلى اليوم.

وطارت الأنباء إلى القاهرة.. وعبرت البحار إلى لندن .. ونشرت «التيمس» فى صدرها أن زفتى قد أعلنت استقلالها .. ورفعت على مبنى المركز علما جديدا !

ولم يكن نفوذ زفتى مقصورا على حدودها .. فقد كان بريق مقاومتها يرسل ضوءه إلى القرى المجاورة فى صور أخرى .. فنحن نجد أن أحد البلاغات الانجليزية الرسمية يعلق على مذبحة ميت القرشى التى راح ضحيتها مائة قتيل بقوله إن «ميت غمر لا تزال مع زفتى وميت

القرشى مركزا للتمرد والفتن فى هذه المنطقة».

وأعلن فى القاهرة أن فرقة كبيرة من الجنود الاستراليين سوف تذهب إلى زفتى لتخضع المدينة الثائرة .. وأدرك رجال الوفد مدى الخطر الذى يتعرض له يوسف، فأرسلوا له الرسل والرسائل لكى يعود إلى القاهرة.. وسافر إلى زفتى أخوه عوض الجندى - وكان فى القاهرة- ولما كانت المواصلات مقطوعة والتنقل داخل القطر ممنوعا لم تمنحه السلطات الانجليزية جواز سفر! فقد ركب عربة كارو إلى قليوب، ثم مركبا نيليا إلى بنها، ثم عربة حنطور إلى زفتى.

وصل إلى زفتى ليجد قاعة الثورة فى مقهى مستوكلى يسبح فى جوها دخان السجائر. وليرى أخاه الصغير يوسف قد زاد نحولا، واستطالت لحيته .. والأوامر تصدر من الغرفة متتابعة .. ويرى الفلاحين يحفرون حول دولتهم الخنادق. وينقلون إليها البنادق القليلة والذخيرة العتيقة التى لم تستعمل منذ زمان بعيد .. يستعدون للقاء الإنجليز ..

وكان الإنجليز قد أذعنوا لثورة مصر .. فأعلنوا إطلاق سراح سعد وصحبه، والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا للمطالبة بالاستقلال .. ولكن لجنة الثورة ظلت فى زفتى قائمة ..

وأشرق الصبح على مدافع الاستراليين منصوبة، وفوهاتها مسددة إلى بيوت القرية. وقد احتلوا فعلا محلج «رينهارت» ومدرسة «كشك» الواقعين عند أطراف القرية ..

ومرة أخرى .. خرج إسماعيل حمد يسير إلى خطوط الاستراليين.. وقال لهم: أن الثورة فى مصر كلها تهدأ ومظاهرات الابتهاج قد حلت فى القاهرة محل إطلاق النار .. وأى طلقة الآن سوف تؤدى إلى اشتباك. والموقف فى زفتى هادئ تماما .. فإذا ظل الجنود معسكرين خارج زفتى، وتركوا حركة التبرعات للوفد ماضية، فهذا كفيل بألا يقع من الفلاحين شيء.

وكانت لجنة الثورة قد عرفت أن الفرقة الآتية استرالية، فأعدت لهم منشورات بالانجليزية تقول لهم: إنكم مثلنا ونحن نثور على الإنجليز لا عليكم، والإنجليز الذين يستخدمونكم فى استعبادنا يجب أن يكونوا خصومكم أيضا!

وأرسلت المنشورات إلى الاستراليين، وقررت الفرقة ألا تدخل المدينة، وأن تبقى معسكرة بجوارها.

وإذ سكنت الثورة فى مصر كلها. وباتت زفتى تحت رحمة المدافع الإنجليزية استيقظ الخونة، الذين خافوا مغبة دخول الإنجليز فأرادوا أن يتنصلوا من الآن، والذين يريدون الكيد لمن تصدوا لقيادة الحركة، أخذ هؤلاء وهؤلاء يرسلون خطابات إلى السلطات فى مصر يبلغون عن أسماء الزعماء، وكل من حمل معولا أو ألقى خطابا أو طبع بيانا أو ألهب السخط فى صدر فلاح، وكان إسماعيل حمد - بخبرته الإدارية - يعرف ماسوف يحدث .. فكان ينفرد بالخطابات البريدية كل ليلة فى حجرة مغلقة، يفضها واحدا واحدا، ويتخلص من كل رسالة

تنطوى على وشاية أو كيد..

وعلم الإنجليز أن الفرقة الاسترالية عند حدود زفتى لم تدخلها، وكانت المحاكمات قد بدأت تدور فى شتى أنحاء القطر لعقاب الثائرين، فأرسلوا إليها تعليمات جديدة، وطلب الاستراليون تسليم ٢٠ رجلا من أهالى زفتى لجلدهم عقابا على العصيان. وانعقدت اللجنة لتواجه المأزق: أن تسلم - وبعد فوز الثورة - عشرين رجلا من أبنائها أو أن ترفض وتقاوم فتهلك كلها تحت مدافع الإنجليز. وبعد بحث طويل أخذت اللجنة باقتراح لإسماعيل حمد، وسلمت عشرين رجلا .. اختارتهم من الذين كانوا يرسلون خطابات الوشاية والخيانة إلى الإنجليز.

وجلد الإنجليز .. عملاءهم!

وتلقت الفرقة من القاهرة أوامر أخرى .. تطلب هذه المرة تسليم يوسف الجندى. وقال أعضاء اللجنة ليوسف الجندى: اذهب إلى مكان ولا تخبرنا به!

وتحت جنح الليل تسلل الثائر إلى قرية (دماص) المجاورة. وقبض الإنجليز على بعض الأعضاء .. واحتجزوا عوض الجندى رهينة حتى يقول لهم أين يوسف .. فلم يطلقوا سراحه إلا بعد أن تأكدوا من أنه لايعرف مكان أخيه.

وانسحب الاستراليون عائدين.

أما يوسف الجندى فقد ظهر بعد خمسة عشر يوما من فراره فى القاهرة يخطب فى «جروبى» الذى كان من منتديات الثورة ويحرض على استمرار النضال.

وأما قهوة «مستوكلى» فقد اندثرت مع الزمن، وقامت مكانها بعض المحلات التجارية. وأما كشك الموسيقى فقد ظل هناك قائما فى مكانه القديم مدة طويلة. وقد حدث مرة واحدة أن فكرت الحكومة فى هدمه لغرض من أغراض التنظيم فاحتج أهالى زفتى بشدة، وطلبوا الاحتفاظ بهذا الأثر الخالد من آثار ثورتهم. (أما الآن فتقوم مكانه مستشفى زفتى).

ومضت الأيام والناس يتناقلون قصة زفتى فيما يتناقلون من قصص الثورة ويضيفون إليها .. حتى تلقف القصة ممثل كوميدى -على الكسار- فنسج حولها مسرحية ناجحة، وأعطاها الاسم الذى اقترن بالقصة بعد ذلك .. اسم فيه ضحكة ابن البلد واعتزازه: «امبراطورية زفتى» !..

- ذلك هو ماذكره احمد بهاء الدين وقد عرفت أنه لكى يجمع هذه المعلومات التقى بعدد ممن عاصروا تلك الأحداث ومنهم عمى عوض الجندى الذين أمدوه بهذه المعلومات.

وهناك العديد من الروايات تدور حتى الآن على لسان أهالى زفتى ولكن لم يبق - للأسف - حتى الآن أحد حيا ممن عاصر تلك الأحداث. فإذا وجد فإنه من الكبر بحيث لا

يستطيع تذكر التفاصيل. ولكن ذلك لم يمنع البعض من عمل مسرحيات أذيعت فى التليفزيون عن جمهورية زفتى، ولم يمنع الكاتب الروائي مجيد طوبيا أن يصدر رواية باسم «كشك الموسيقى» يروى فيها أحداث ثورة زفتى ويقدمها درسا للشباب والأطفال وقد أذاع التليفزيون على ٢٥ حلقة مسلسلا «باسم جمهورية زفتى» كتب له السيناريو الكاتب يسرى الجندى وأخرجه اسماعيل عبد الحافظ واشترك فيه عدد من كبار الممثلين وقد لقى نجاحا كبيرا وحصل على عدة جوائز.

وقد احتفل أهالى زفتى منذ حوالى سنة بذكرى جمهورية زفتى باعتبارها إحدى أبرز مفاخر تاريخ بلدتهم.

وقد كان لدور يوسف الجندى فى ثورة زفتى أثره فى التفاف أهالى زفتى حوله بحيث إنه لم يجد أى مشقة فى نجاحه فى كل الانتخابات التى تقدم اليها لمجلس النواب عن دائرة زفتى. وكان ذلك منذ أول انتخابات نيابية بعد صدور دستور ١٩٢٣. فانتخب نائبا فى الأعوام ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦ ثم ١٩٣٠ ثم ١٩٣٦ وكان عمى عوض يرشح نفسه فى دائرة سند بسط.

وفرضت ظروف العمل على والدى الانتقال إلى القاهرة وفتح مكتبا للمحاماة مع صبرى أبو علم وعبد الحميد عبد الحق.

وفى ١٩٢٧ قدم إلى مجلس النواب مشروعا بإلغاء الأوقاف الأهلية.

وفى عام ١٩٣٦ وفى وزارة الوفد عين وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية وعند التعديل الوزارى عام ١٩٣٧ رشح وزيرا للمعارف ولكن فاروق رفض تعيينه وحدثت أزمة بين الوفد والسراى ثم سوى الأمر بعد فترة بإعادته لمنصبه السابق وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية. وبقى فى الوزارة إلى أن أقيلت حكومة الوفد عام ١٩٣٨، وجاءت حكومة محمد محمود باشا وتعاقبت حكومات.

وفى عام ١٩٣٦ عين مع عدد من الشخصيات عضوا فى الوفد المصرى وهى الهيئة القيادية للوفد وظل فيه حتى وفاته.

وفى ١٩٣٨ جاءت إلى الحكم حكومة محمد محمود باشا. وأذكر فى تلك الفترة أننى وأخى أحمد كنا نذهب لجلسات مجلس الشيوخ لنشاهده وهو يلقى خطاباته واستجواباته التى كانت تتميز بالدراسة وقوة الحجة والإقناع باعتراف أصدقائه وخصومه.

وبرز والدى فى هذه الفترة فى المعارضة وكانت العادة أن تجرى القرعة بين الأعضاء المعينين فى فترات دورية وتعيين عدد من الأعضاء بدلا منهم. خرج من القرعة أربعة عشر وفديا، وأعيد تعيين أبى وحده دون بقية الوفديين. وقد اعترض الوفد على ذلك وعلى رأسه النحاس باشا وطلب منه رفض هذا التعيين والاستقالة من المجلس. واختلف هو وعدد من

الأعضاء مع هذا الرأى.

لم يخف ذلك النحاس باشا فى حفل تأبينه عام ١٩٤٢ فى نقابة المحامين فقد قال:

«ولقد تجلت مواهبه، وظهرت عبقربته عندما كان نائبا لزعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ الاستاذ محمود بسيونى بك، وكان الانقلاب الدستورى فى أعلى قمته، والوفد فى كفاحه ومجالدته، فلقد صال يوسف وجال، وقاد سفينة النضال، بحصافة رأى وشدة عارضة، ورصين منطق، وإصابة مرمى، وقوة بيان، وعفة لسان، يقرع الحجة من نصر إلى نصر، ومن نجاح إلى نجاح، حتى ألزم الكل احترامه واضطرهم إلى إكباره، واكتسب رضا خصومه وأصدقائه على السواء، وسرت شهرته وارتفع صوته فى جميع الأرجاء.

ولعل أظهر صفة برزت فيه إذ ذاك هى صفة الوفاء، الوفاء الذى تغلب على كل شيء، ولم يقف دونه أى شيء، حتى حرية الرأى، وحتى الاستقلال فى الرأى، فلست أكتمكم - أيها السادة- أنه عندما أجريت القرعة فى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٤٠ وخرج منها أربعة عشر وفديا من المعينين ولم يتبع الطريق الدستورى فى إجراء الانتخابات لبقية الأعضاء كما تعلمون، ثم أعيد تعيين الفقيد وحده دون بقية اخوانه الوفديين لا أكتمكم أنى اعترضت على ذلك وأشرنا إليه أنا وبعض الزملاء فى رفق أنه من المستحسن رفض هذا التعيين والاستقالة من المجلس احتجاجا على هذا التصرف الذى يأباه الدستور، ولايقره الإنصاف، ولكنه خالف هذا الرأى، ولم يكن ليؤدى الخلاف بيننا إلى انفصاله عن الوفد أو خروجه على وعلى إخوانه الوفديين كما فعل غيره من قبل، ومن بعد.. لأن وفاءه لمبدئه، وحرصه على رضا زعيمه وزملائه، ارتفعا به عن أن يكون بزعيمه وإخوانه غادرا، وبمبدئه كافرا، ولفضل الوفد عليه ناكرا، ولم يتردد عن إعلان هذا فى كل مكان، والتحدث به لكل إنسان».

والحقيقة أنه كان هناك خلاف حقيقى حول هذا الموضوع. وكان أبى يرى أنه مع وجوده فى مجلس الشيوخ يستطيع أن يلعب دورا أكبر من مجرد الاستقالة والمقاطعة.

وقد حاولت السراى استغلال هذا الخلاف فى هذا الوقت. فمع أن إعادة تعيينه كانت بمثابة اعتذار عن الموقف السابق برفض تعيينه وزيرا، وإطلاق الشائعات حول نزاهته، إلا أنها حاولت أيضا الاستفادة من الخلاف بينه وبين قيادة الوفد فى صراعها ضد الوفد. إلا أنه رفض ان يستغل، وبقى حتى آخر أيامه معارضا وفديا، واكتسب بذلك احترام أصدقائه وزملائه فى الحزب وخصومه.

وقد عبرت جنازته عن هذا الإجماع. وكان قبل وفاته فى وضع مالى متعسر. وعندما أصابه التعب يوم وفاته، وأحس بالنهاية، كتب بطاقة لصديقه أحمد حمزة جاء فيها (أوصيك بأولادى). لأنه كان بتعيش أساسا من عمله فى المحاماة. وكان قد اشترى فى آخر أيامه أرضا زراعية صغيرة فى أبو الصير مركز السنبلاوين كانت تؤجر للمزارعين. ولم يكن عائدها يكفى

١٠

مسيرة حياتي

بعد وفاته لإعالة الأسرة وقد قررت حكومة حسين سرى باشا معاشا استثنائيا لأسرته قدره ١٠٠ جنيه ثم سمى أحد شوارع القاهرة باسمه وهو الشارع الذى كان يسمى سابقا شارع الحواياتى فى باب اللوق وأصبح الآن يسمى شارع يوسف الجندى.

وقبل وفاته بشهور وفى ٩ سبتمبر ١٩٤١ كان قد صدر قرار من مجلس إدارة بنك مصر بتعيينه عضوا فى مجلس إدارة البنك.

فوجئنا نحن والأسرة بوفاة والدى التي لم نكن نتوقعها وكنت وقتها لم أصل بعد إلى السادسة عشرة، وكنت طالبا بالسنة الرابعة الثانوية بمدرسة الابراهيمية وكان لوفاة أبى وقع شديد على أمى التى أغمى عليها ولما أفاقت ظلت لفترة متأثرة بالصدمة.

وكنا جميعا قصر. فقد كان احمد أكبرنا. ولم يكن قد بلغ بعد الثامنة عشرة من عمره، أما أصغرنا وهو صلاح فقد كان فى العاشرة. وكان هو وحسن يدرسان فى المدارس الابتدائية. ووجهت أمى بوضع جديد لم تكن مستعدة له فقد أصبحت هى المسئولة الوحيدة عنا. وهى لم تعتد ذلك. وبدأ أحمد وهو فى هذه السن الصغيرة يتحمل مسئوليات كثيرة وتعلم قيادة السيارة التى أصبحت عمليا تحت يده.

وكان أبى قد مرض بالسكر قبل وفاته بعدة سنوات ويبدو أن زيادة المرض فضلا عن الإجهاد العصبى الشديد فى السنوات الأخيرة قد أثرا عليه، فأصيب بأزمة قلبية أدت إلى وفاته.

ولم تعش أمى بعده سوى أربع سنوات إذ تراكمت عليها امراض ضغط الدم والكلى ثم القلب وتوفيت عام ١٩٤٥. وكان أخى قد بلغ سن الرشد وأصبح وصيا علينا.

وواصل بعض أصدقاء أبى إقامة علاقات مع أحمد مثل عبد الحميد عبد الحق وتكونت صداقة بينهما رغم فارق السن. أما أحمد حمزة فقد اعتاد أن يدعونى أنا وأحمد إلى الإفطار فى رمضان وتكونت علاقة أيضا مع ابراهيم فرج.

وقد تخرج أحمد من كلية الحقوق عام ١٩٤٤ وتخرج أيضا من أصدقائنا جمال العطيفى وفتحى غانم وعز العرب أمين وعز الدين رفعت. وكانت حكومة الوفد وقتها فى السلطة، فعين بشكل استثنائي فى الدرجة الخامسة بوزارة المالية فى الادارة القانونية ولكنه لم يستمر طويلا فى الوظيفة خصوصا بعد إقالة حكومة الوفد وإلغاء الاستثناءات، وعمل بالمحاماة فى مكتب عبد الحميد عبد الحق وعندما كون عبد الحميد عبد الحق حزب العمال عمل معه، وأصبحت له اتصالات عديدة بنقابات العمال.

ومنذ عام ٤٤ كان طريقانا أنا وأخى فى السياسة قد انفصلا، فقد اتجهت للعمل اليسارى أما هو فقد اتجه توجها آخر وأذكر أنه فى ذلك الوقت كان يقول لى: طريقانا مختلفان أنت تريد أن تكون شيوعيا أما أنا فأريد أن أكون مليونيرا.

وبرغم ذلك فقد كنت أنا وأحمد أصدقاء وكانت لنا مجموعة أصدقاء مشتركين. كان أقربهم هو جمال العطيفى ثم انضم إلينا فتحى غانم وعز العرب أمين وعزمى نجيب وجورج زنانبرى ثم عز الدين رفعت.

وأذكر فى بداية الأربعينيات أن تصادفنا مع أسرة انجليزية اسمها «بارات» تتكون من مستر بارات ومسز بارات وابنة اسمها جريسى كانت تعمل فى السفارة البريطانية لها أخ أصغر منها مباشرة ثم أختان أصغر (دوروتى ووينى). كنا نتردد عليهم أنا وأخى وجمال العطيفى. وكانوا يخرجون معنا فى السيارة التى كان يقودها أحمد.

وتصادق أخى مع جريسى التى أحبته وكنا نذهب إليهم تقريبا كل مساء ونرقص معهم. وعلى أيديهم تعلمنا الرقص. وكنت أنا أيضا أحب جريس ولكنها كانت تحب أخى، وكانت تريد أن يتزوجها . وكنت أريده أن يتزوجها مادام يخرج معها. وكنت أعتب عليه أنه لايفعل ذلك.

وفى إحدى الأمسيات ذهبت أنا وجمال العطيفى كالعادة إلى عائلة بارات وكان عندهم ضيوف وعشاء وانضممنا إليهم. ثم نادانا مستر بارات وقال لنا أنه لم يدعنا فخرجنا على الفور ولم نعد إليهم بعد ذلك. ولم نفهم السبب، فقد كان دائما لطيفا هو وزوجته ويرحبون بنا دائما. ورغم انقطاعنا عن الأسرة فقد استمرت صداقة أحمد وجريس لفترة إلى أن تركها لفتاة أخرى.

كانت جريسى تكبرنى بعام. وكانت أصغر من أحمد بعام. وبعد أن انفصل عنها أحمد بقليل عرفنا أن الأسرة عادت إلى انجلترا. وقد التقى أحمد وكذلك جمال بجريسى فى لندن بعد حوالى أربعين عاماً، وكانت قد أصبحت سيدة عجوزا.

أنهيت دراستى الثانوية بتفوق والتحقت بكلية الحقوق. وكان أبى لايرغب فى دخولى كلية الحقوق، وكان يفضل لى كلية عملية. وقد جرى ذلك فى حديث بينى وبينه قبل وفاته. ولكنه توفى قبل أن أنهى دراستى الثانوية فقد كنت وقتها فى السنة الرابعة وكان على أن أحدد تخصصى فى السنة الخامسة (التوجيهية) فاخترت القسم الأدبى ثم دخلت كلية الحقوق، نفس الكلية التى كان يدرس فيها أخى احمد وصديقى جمال العطيفى. لم يكن أحمد يهتم كثيرا بالمذاكرة أو حضور المحاضرات ولكنه كان يعكف على المذاكرة بضعة أيام فى آخر العام وينجح، وهكذا أنهى كل سنوات الدراسة وحصل على الليسانس. أما جمال العطيفى فكان يهتم بالتفوق ولهذا كان يهتم بالتحصيل طوال العام ويحرص على الحصول على درجات عالية فى نهاية العام. ولقد تحقق له ذلك بالفعل. فكان متقدما دائما فى النتائج النهائية. ولهذا لم يجد صعوبة بعد تخرجه فى أن يعين فى النيابة. وقد كان خاله وكيلا للنيابة وكان يفخر به دائما. ولم يعين جمال فى النيابة مباشرة ولكنه استطاع أن يصل إلى ذلك فيما بعد.

دخلت كلية الحقوق عام ٤٣ - ٤٤ وكان أخى وجمال فى السنة الرابعة.

فى الفترة الجامعية تكونت لدينا صداقات كثيرة دفعتنا إلى تكوين جمعية سميناها «الاسرة الجامعية» كنا نعقد لقاءاتنا فى نقابة المحامين. وفيها نظمنا محاضرات وندوات. وأذكر من بين أعضاء هذه الأسرة بخلاف اخى احمد وجمال العطيفى كان معنا عز الـدين رفعت وانجى رشدى وفتحى غانم وعز العرب أمـين وعـلاء الشيتى وغيرهـم. وأذكر أننى القيت محاضرة عن «عبد الرحمن الكواكبى». وتوثقـت عـلاقتى بعز الدين رفعت الذى وجدته يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية. وكانت انجى رشدى وطالبة أخرى اسمها سميحة زميلتين لـى فى السنة الأولى بكلية الحقوق. وكنا ننظم محاضرة دورية تدور حولها المناقشة. وكانت هـناك محاضـرة لجمال العطيفـى وأخـرى لعـز الدين رفعت.

وكانت الحياة الاجتماعية فى الجامعة مختلفة تماما عنها حاليا، وبالذات بالنسبة للعلاقة بين الطلبة والطالبات. فكان عدد الطالبات قليلا يجلسن فى الصفوف الأولى. لا يختلطن بالطلبة إلا فى أضيق الحدود. وكان لهن مجتمعهن الخاص المستقل عن مجتمع الطلبة. وإذا وقف طالب مع طالبة فى فناء أو تحدث معها أصبحا مثارا للحديث فى الجامعة. وفى بعض الأحيان يتدخل ضباط الحرس.

فى ظل هذا الجو أنشأنا «الأسرة الجامعية» يهدف كسر هذا الوضع وخلق علاقات طبيعية بين الطلبة والطالبات.

وكان الوضع فى كلية الآداب أكثر تحررا منه فى كلية الحقوق. وقد يرجع ذلك لكثرة الطالبات هناك. ولهذا السبب كان كثير من طلبة الحقوق يزورون كلية الآداب والكافتيريا الموجودة هناك لإقامة علاقات أكثر حرية.

وبعد تخرج أخى توثقت علاقته أكثر بعبد الحميد عبد الحق خصوصا بعد أن عمل محاميا فى مكتبه.

وأذكر مرة أن عبد الحميد عبد الحق دعانا مع أخى إلى أوبرج الأهرام. وكان عبد الحميد عبد الحق وقتها قد عين وزيرا بعد أن اختلف مع الوفد وانفصل عنه. وعلى مائدة مجاورة كان يجلس رجل سمين أبيض ومعه ثلاث نساء أجنبيات وكان يضحك بشكل مستمر ويتحدث مع النساء باللغة الانجليزية. وفجأة التفت هذا الرجل السمين إلى عبد الحميد عبد الحق وقال له «ازيك يا عبد الحق» ففوجئت بعبد الحق ينتفض واقفا ويشكر الرجل على سؤاله. تبينت بعد ذلك أنه الملك فاروق.

كانت صورته مقززة لى خصوصا وكانت الشائعات قد ملأت مصر عن مغامرات فاروق النسائية وسهراته فى الأوبرج وكذلك كان منظر عبد الحميد عبد الحق الوزير الكبير وهو يقف فى خشوع أمام هذا الشخص الماجن.

(٤)

الارتباط بالحركة الشيوعية

في السنة الأولى بكلية الحقوق كنت أهتم بدراستى وأنهيت امتحاناتى بدرجة جيد. وتخرج أحمد وجمال العطيفى، وفى أحد أيام الصيف أخبرنى جمال العطيفى أن هناك محاضرة لزكى هاشم عن «الملكية الزراعية في مصر» فى مكان بشارع قصر العينى يدعى لجنة نشر الثقافة الحديثة. فذهبت إلى هناك ولم يذهب جمال. وأجلت المحاضرة ولكننى تعرفت برئيس اللجنة وهو سعيد خيال الذى اهتم بمجيئى ودعانى إلى الانتظام فى الحضور إلى اللجنة التي كانت تعقد فيها ندوة أسبوعية. وأعطانى بعض الكتب للقراءة.

انتظمت فى التردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة وتعرفت هناك على أشخاص جدد منهم عبد الرحمن الشرقاوى ونعمان عاشور ومصطفى كامل منيب وأسعد حليم وأحمد رشدى صالح وأحمد صادق سعد وريمون دويك وغيرهم.

وواظبت على الزيارة الأسبوعية للجنة نشر الثقافة الحديثة. وكانت قريبة من منزلنا. ولم يذهب إلى هناك جمال العطيفى ولو مرة واحدة، رغم أنه هو الذى أرشدنى إليها. واستمر سعيد خيال فى تزويدى بالكتب. كانت كتبا عن الاشتراكية. وعن الحياة فى الاتحاد السوفيتى. وكانت المحاضرات والندوات كلها تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية من منطلق يسارى. وفى أحد الأيام وفى ندوة من الندوات تعرفت بأنور عبد الملك الذى دعانى إلى دار أخرى تقع فى شارع نوبار اسمها «دار الأبحاث العلمية» جذبتنى بعد ذلك أكثر من لجنة نشر الثقافة الحديثة. فقد كان الحضور أكثر عددا والتنظيم أفضل، فإلى جانب المحاضرات والندوات الأسبوعية كانت هناك لجان مختلفة.. لجنة السياسة الداخلية ولجنة للسياسة الخارجية وأخرى للاقتصاد ولجنة لقضايا التعليم وأخرى للشباب الخ. وتعرفت هناك على شخصيات أخرى أساتذة ومدرسين ومعيدين وطلبة من الرجال والنساء والفتيات.

كانت زيارتى لدار الأبحاث العلمية تمثل نقطة تحول جذرية فى حياتى. فمن خلالها ارتبطت بالحركة الشيوعية. وهو الارتباط الذى حدد مسار حياتى كلها بعد ذلك. عز الدين رفعت يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية. أما أخى أحمد وكذلك جمال العطيفى وفتحى غانم وباقى الأصدقاء فكانت لهم اهتمامات أخرى خصوصا بعد أن أنهوا دراساتهم الجامعية. فأخى كان مشغولا بالعمل مع عبد الحميد عبد الحق. أما جمال العطيفى فقد عمل فترة فى الإدارة القانونية بإحدى الوزارات ثم عمل فى النيابة.

وتعرفت فى دار الابحاث العلمية بشخصيات جديدة منهم شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى وكانا يديران بالفعل العمل فى الدار. وكانت معهما مجموعة من المعيدين فى كلية العلوم مثل أحمد شكرى سالم وعبد الرحمن الناصر وبعض طلبة كلية العلوم مثل جمال غالى وفاطمة زكى وبعض طلبة كلية الآداب مثل لطيفة الزيات وثريا أدهم وغيرهم، وكانوا جميعا فى نشاط وحركة دائمة بهرتنى وجعلتنى أرتبط بهم وأندمج فى هذا الجو. وفى أحد الأيام دعانى أنور عبد الملك لزيارته فى منزله حيث وجدت هناك شهدى عطية الشافعى وكان يعمل مفتشا للغة الانجليزية وظريف عبد الملك وكان قد تخرج من كلية الحقوق وهو من دفعة أخى أحمد.

واقترح علينا شهدى أن نلتقى بشكل دورى لدراسة الماركسية. وبدأنا بدراسة الفلسفة الماركسية ثم الاقتصاد السياسى ثم تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى ونظرية الحزب وغير ذلك من الموضوعات. وفى كل جلسة كان أحدنا يقوم بتلخيص أحد الكتب وكانت الكتب التى نقرؤها ونلخصها كلها باللغة الانجليزية لندرة الكتب العربية الماركسية فى ذلك الوقت. استمر هذا الوضع لمدة أربعة أشهر وكانت هذه اللقاءات والقراءات والتلخيصات وترددى على دار الأبحاث العلمية تأخذ الجزء الأكبر من اهتمامى. وأصبحت أهتم بها أكثر من اهتمامى بدراستى الجامعية.

ولم تكن هذه هي اهتماماتى الأولى بالاشتراكية، وقد تحدثت قبل ذلك عن الاهتمامات السابقة، وأضيف أنه فى الماضى كنت أهتم بمطالعة «المجلة الجديدة»، وفى أثناء الحرب وأثناء انتصارات ستالينجراد، وكنت قد قرأت الدستور السوفيتى وبعض الكتب الأخرى عن الاتحاد السوفيتى. وقد أثرت الانتصارات السوفيتية فى ستالينجراد تأثيرا كبيرا عليّ فانتهزت فرصة علاقة نشأت مع مجلة «الشعلة» الوفدية، والتى كان أحمد وجمال العطيفى ينشرون بها قصصا فكتبت اليها مقالا بعنوان «روسيا السوفيتية» أكدت فيه أن انتصارات ستالينجراد هى انتصار للنظام السوفيتى، وأن النظام الاشتراكى هو الذى مكن السوفييت من تحقيق هذا الانتصار. وقد فوجئت بقيام المجلة بنشر مقالتى على صفحتين كاملتين فى مكان بارز، أثنى الكثيرون ومنهم عمى «عبد القادر» عليها. وكنت راضيا جدا عنّ ذلك.

وقد كانت هذه المقالة تعبر أيضا عن تطور فى موقفى من ألمانيا الهتلرية. وقد كنت فى السابق أعتبرها اشتراكية خصوصا بعد قراءتى كتاب ألمانيا اليوم.

لهذا فإن ذهابى إلى لجنة نشر الثقافة الحديثة ثم دار الأبحاث العلمية كانت له مقدمات، ولم يبدأ من لاشيء. ولكننى وجدت أخيرا فى دار الأبحاث العلمية ثم فى الحركة الشيوعية بعد ذلك الضالة التى كنت أبحث عنها واستطعت من خلالها أن أحدد انتمائى الحقيقى، وأن أحدد طريقى فى الحياة.

وكان ارتباطى بالحركة الشيوعية هو استمرار لجهد وبحث طويل استمر عدة سنوات، كان يحكمه إحساس عميق بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، ومراعاة مصالح الغالبية الساحقة الكادحة من الفلاحين والعمال، ورفض الاستغلال، ورفض المجتمع الذى تعيش فيه قلة مترفة على حساب الغالبية الساحقة الكادحة. وهو استمرار للموقف الوطنى الذى يدعو للتحرر من الاستعمار والاحتلال، وهو النضال الذى لا ينفصل عن النضال ضد أعوان الاستعمار الذى كنت أرى أنهم السراى وعملاؤها وحلفاؤها من كبار الملاك والمترفين المستغلين.

وقد تأثرت بوالدى وبالأسرة التى نشأت فيها. فكنت فى البداية وفديا مثل والدى ثم أصبحت اشتراكيا. وأذكر فى شبابنا المبكر أو فى طفولتنا أننى كنت أدافع عن الوفد فى مواجهة جمال العطيفى الذى كان يدافع عن مصر الفتاة التى كان يتعاطف معها. ولم أجد أى تعارض بين الاشتراكية والإسلام. فقد نشأت مسلما أومن بالله وأواظب على تأدية فرائض الصلاة والصوم وقرأت حياة محمد والخلفاء الراشدين وقصص القرآن وتأثرت بها. وكنت أرى أن مضمون الإسلام هو العدالة الاجتماعية. ولهذا كنت صادقا مع نفسى عندما قدمت محاضرة «التضامن الاجتماعى والإسلام» ومحاضرة «الاشتراكية والإسلام». ولم أجد أى تناقض عندما وضعنا برنامج جمعية البعث الاجتماعى والذى كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج» أن نضيف فى نهايته «تطبيق الشريعة الإسلامية» بعد نقاش مع أعضاء من الإخوان المسلمين. ولم أجد فى ذلك أى تنازل عن المبادئ.

صحيح أنه بعد انضمامى للحركة الشيوعية، وبعد دراستى للماركسية حدث تطور فى مفاهيمى، ولكن لم يحدث تغيير فى جوهر انتماءاتى وإنحيازى للغالبية الكادحة التى كانت تتحدد وتتعمق وتتطور وتزداد نضجا مع تقدمى فى العمر. ولم أشعر فى أى وقت من فترات عمرى بخيبة أمل فى اختياراتى الفكرية أو السياسية فى خطوطها الأساسية. قد أشعر مع تقدمى فى العمر أننى كنت أكثر اندفاعا ورومانتيكية، ومن المحتمل أننى قد أعدل بعض المسالك العملية فى طريقى وحياتى، ولكن ذلك لا يمس الاختيارات الفكرية والسياسية الأساسية.

ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة

الشرارة (اسكرا). وكان ذلك فى عام ١٩٤٥. وكنت فى التاسعة عشرة من عُمْرى. وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب. وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه الشرارة. وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض عليّ الانضمام إلى هذه المنظمة. وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن وملاحقة وتشريد واضطهاد من جانب البوليس والسلطات. وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر.

لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا. ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال.

كتب الكثير عن فترة ما قبل الثورة وشاهدنا أفلاما ومسرحيات عن هذه الفترة. وكتبت روايات وقصص، وكتب عنها المؤرخون، وهو أمر لا حاجة للإفاضة فيه. ولكنى أود هنا أن أكتب عن فترة عشتها ودفعتنى للثورة عليها والانخراط فى العمل السرى والثورى ضد نظام لم أقبله ورفضت الخضوع له. ولم أقبل أن أتعايش مع النظام أو الحلول الوسط كما فعل الأصدقاء والمقربون وأولهم أقرب أصدقائى: جمال العطيفى، الذى عمل وكيلا للنيابة ثم عمل فى نيابة الصحافة يحقق مع معارضى النظام ويتهمهم أمام المحاكم.

لقد كان المجتمع ينقسم إلى قلة ضئيلة تعيش وغالبية ساحقة على هامش الحياة. لقد كانت الغالبية الساحقة من الحفاة الجائعين الذين يكدحون طول يومهم مقابل قروش ضئيلة. كل شيء معهم مستباح: عملهم، حياتهم، نساؤهم أما الأقلية الضئيلة المترفة فكل شيء مباح بالنسبة لها. كان مجتمعا يحتقر العمل ويزدرى من يعملون رغم أنه كان يعيش على عملهم، ولايستطيع الحياة بدونه. لم أستطع إلا أن أنحاز إلى الغالبية الكادحة التى تعيش على هامش الحياة، رغم أننى لم أكن منهم.

أذكر فى هذه الفترة حديثا جرى بينى وبين محمد عصفور حول الاشتراكية وكان وقتها فى كلية الحقوق. كان يرفضها وكنت أدافع عنها وساق لى حجة ساذجة: هل تستطيع مثلا أن تركب الترام فى الدرجة الثانية. وكانت حجة ساذجة لأننى كنت فعلا أركب الدرجة الثانية. وفى القطار بالدرجة الثالثة، وأصبحت أعيش قريبا من الكادحين وأحس ببعض ما يعانونه. والدكتور محمد عصفور الآن هو من الكتاب والمفكرين الذين أحترمهم وأقرأ لهم وأتفق مع كثير مما يكتبه رغم أننى أختلف معه فى كثير من القضايا. ولكنه فى هذه الفترة كان ينتمى مثلى لطبقة متميزة عن الغالبية الكادحة، ولم يتصور إمكانية التعايش مع هذه الغالبية أو الدفاع عن مصالحها.

وأقر أن هذه الفترة التى عشتها وترعرعت فيها وعشت فيها فترة الشباب سنوات قبل

الثورة، هى التى نمت فيها مداركى وهى التى حددت انتمائى ومسار حياتى بعد ذلك.

لقد كان حجم الظلم والقهر والبؤس والغنى الفاحش والاحتلال البريطانى والاستعمار وتعاون السراى والقلة الحاكمة مع هذا الاستعمار هو الأمر الذى رفضته وقررت أن أهب كل شيء فى حياتى للكفاح ضده ولتغييره، وقررت أن أكرس حياتى لذلك، وألا يصرفنى أى شيء آخر عنه، سواء أكان مالا أو منصبا أو أسرة، ومن هذا المنطلق ارتبطت بالاشتراكية ثم بالحركة الشيوعية، التى كنت اعتقد أنها الطريق الذى يمكن أن أحقق من خلاله تلك الأهداف.

أصبحت عضوا فى منظمة اسكرا (الشرارة) واسكرا كلمة روسية معناها الشرارة. وهى مأخوذة من تاريخ الحركة الشيوعية فى روسيا حين أسس لينين جريدة سماها اسكرا، على أساس أنه من الشرارة يندلع اللهب (الثورة). وعرفت أنه توجد فى مصر منظمات شيوعية أخرى وكلها تعمل تحت الأرض. منها الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان يرأسها هنرى كورييل ويرمز إليها باسم (ح.م). ومنظمة «الديمقراطية الشعبية» ويرمز اليها باسم «د.ش» وعرفت أن مؤسسها يدعى جاكو دى كومب وكان من أعضائها احمد رشدى صالح الذى أصدر مجلة أسمها «الفجر الجديد». وكان من اعضائها البارزين احمد صادق سعد ويوسف درويش وهما يهوديان أصلا ولكنهما اسلما. ثم منظمة «تحرير الشعب» التى أسسها مارسيل اسرائيل ومن اعضائها أسعد حليم وسعيد خيال رئيس «لجنة نشر الثقافة الحديثة». وكانت هناك منظمات صغيرة أخرى مثل منظمة «القلعة» التى أسسها مصطفى هيكل والذى كان يسكن القلعة وكان من أعضائها احمد حمروش وفؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وأحمد الرفاعى. وكانت هناك منظمة صغيرة فى الاسكندرية اسمها «الطليعة» وكان من أعضائها فؤاد مرسى.

اليهود والحركة الشيوعية في مصر:

ومن الملاحظ أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية كانوا يهودا. ولم يثر ذلك عندى أو عند غيرى أى تحفظ. ففى ذلك الوقت وقبل حرب فلسطين كنا نتقبل وجود اليهود فى المجتمع المصرى، وكان لهم دور يتقبله الجميع فى المجتمع وفى المجالات السياسية والنقابية والاقتصادية.

وكان من الطبيعى فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات أن يتزعم بعض اليهود المنظمات النقابية مثل داود ناحوم أو يكون لهم دور فى الصحافة مثل يعقوب صنوع. وكان لهم دور كبير فى الحياة الاقتصادية وبين المحامين والأطباء وغيرهم. ولم يكن المصرى العادى المسلم يجد أى غضاضة فى التعامل والتعاون مع القبطى أو اليهودى. وقد تأكدت هذه الروح

أثناء ثورة ١٩١٩ التى ضمت الجميع فى النضال ضد الاستعمار البريطانى.

وقد كانت مصر قبل الغاء الامتيازات الأجنبية تضم عددا كبيرا من الأجانب منهم يهود من جنسيات أخرى أو بلا جنسية وكانت هناك جالية يونانية كبيرة وكذلك إيطالية وأرمنية. وكان الأجانب يتمتعون بامتيازات ويحاكمون أمام محاكم خاصة، ويعاملون معاملة مميزة عن المصريين، وكانت فرصتهم فى الانفتاح على أوروبا وعلى الثقافة الأوروبية أكثر من المصريين. ولهذا كان من الطبيعى أن يكون لهم ريادة فى مختلف المجالات، بما فى ذلك الحركات الثورية، والتعرف على الفكر الماركسى.

خلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء التحالف ضد المانيا النازية والذى ضم الاتحاد السوفيتى أصبح هناك تساهل فى تقبل الكتب عن الاتحاد السوفيتى وكذلك المطبوعات الماركسية. وافتتح هنرى كورييل مكتبة فى ميدان مصطفى كامل سماها «مكتبة الميدان» كانت تعرض الكتب الماركسية، وكان أغلبها باللغة الانجليزية وقد اعتاد الشباب اليسارى التردد على هذه المكتبة.

كان أبو كورييل مليونيرا، ويقال أن المكتبة كانت ملكه ولكن ابنه كان يديرها [1].

أول خلية:

كان مسئول أول خلية انضممت إليها يدعى محمد جمال الدين، وكان طالبا فى كلية الطب. وكانت الخلية تضمنى وتضم لطيفة الزيات التى كانت طالبة بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب، وكانت تسبقنى بسنة فبينما كنت فى السنة الثالثة كانت هى فى السنة الرابعة.

واصلنا الدراسة فى الخلية. وكانت تصلنا نشرة داخلية. ونناقش النشاط وتجنيد مرشحين جدد للتنظيم. وقد اجتهدت فى هذا المجال وكونت عدة مجموعات للمرشحين من طلبة كلية الحقوق أساسا. وأذكر من أوائل هؤلاء المرشحين الذين عملت معهم حوالى خمسة شهور وأتممنا دراسة الكورس النظرى الماركسى اثنين هما: بهى الدين الرشيدى (الذى أصبح فيما بعد سفيرا فى وزارة الخارجية) ومحمد فهيم الذى أصبح بعد ذلك محاميا وعضوا نشيطا فى نقابة المحامين وبعد أن أنجزت معهم البرنامج، وشعرت أنهما جديران بالترشيح للتنظيم، فاقترحت أن يقبلا كأعضاء، ولكن جاء الرد بالرفض بحجة انهما عنصران مشكوك فى علاقتهما بالبوليس السياسى. فاضطررت لقطع العلاقة بهما رغم أننى لم أكن مقتنعا بجدية تلك الشكوك. وحزنت لذلك لأننى بذلت معهما جهدا وكنت اعتبر أننى قمت بإنجاز هام معهما. ولم استطع مواجهتهما بتلك الشكوك، إلا أنهما أحسا بأن هناك شيئا غير عادى، وأصبحت

---

(١) اقرأ عن دور الأجانب فى النشأة الأولي للحركة النقابية والعمالية د. رءوف عباس «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢». وكتاب عالم التاريخ جاريا تشكين «الأقليات الأجنبية فى مصر».

فى وضع حرج ولكننى واصلت عمليات التجنيد، ومن هؤلاء الذين رشحتهم وقدمتهم للمنظمة مصطفى درويش الذى عمل بعد ذلك مستشارا فى مجلس الدولة وصار حجة فى السينما عمل فترة مديرا للرقابة على الأفلام السينمائية وحسن علام الذى زاملنى فى الدراسة وأصبح بعد ذلك مستشارا وقمت بتجنيد صلاح نصار الذى فوجئت بعد ذلك عند اعتقالى عام ١٩٥٩ بتهمة تأسيس تنظيم شيوعى بأنه رئيس النيابة الذى يحقق معنا. وكان موقفه فى التحقيق فى غاية الرداءة.

وقمت فى هذه الفترة بترجمات كثيرة منها كتاب شامل عن الماركسية لكاتب انجليزى اسمه اميل بيرنز. وكنت أعطى هذه الترجمة لعدد من زملائى الطلبة، ومن بينهم لبيب شقير الذى كان يدرس معى فى نفس السنة وكنت أشعر بأنه يمكن كسبه. ولكن تفكيرى تغير عندما سألته مرة عن رأيه فى النظام الملكى، فأخذ يردد نفس الكلام عن ميزات الملكية التى ندرسها فى كتب القانون الدستورى.

وكان من زملائي فى نفس السنة كمال عبد الحليم وكامل زهيرى وابراهيم خلاف (والذى قمت بتجنيده وترشيحه للتنظيم) وتعرفت أيضا بعز الدين فوده واسماعيل صبرى عبد الله وكانا يسبقانى بسنة وعرفت أشخاصا من مختلف التنظيمات مثل كمال عبد الحليم ((ح.م) فؤاد عبد الحليم (القلعة) احمد رشدى صالح (الديمقراطية الشعبية) سعيد خيال (تحرير الشعب). وعناصر كانت تعتبر نفسها تروتسكيه مثل عادل امين وبعض العناصر كان يشاع عنها أنها تروتسكية مثل اسماعيل صبرى عبد الله ونهيد أبو زهره اللذين كانا لا يفترقان. وتعرفت بعناصر من الأحزاب الأخرى مثل محمد كامل (حزب وطنى) وعبد المحسن حمودة ومصطفى موسى (الوفد) وحسان حتحوت (الاخوان المسلمون) وغيرهم.

وكانت تدور مناقشات مع محمد كامل. أما الاصدقاء القدامى فبعد تخرجهم بدأت تفترق السبل. فجمال العطيفى يعمل فى النيابة، أما فتحى غانم فأصبح موظفا فى إحدى الوزارات. وكان مهتما بقراءات عديدة فى الفلسفة. وكان متأثرا بشوبنهاور ونيتشه وغيرهما من منظرى الفاشية وكانت تدور بينى وبينه مناقشات عديدة نختلف فيها. ولكننى أذكر بعد عدة سنوات وأنا أعمل فى الأقاليم فى العمل السرى أن التقيت به فى الطريق فحيانى بعاطفة شديدة وتعاطف وأوصانى بالحذر.

وكانت هناك أيضا مناقشات مع عز العرب أمين أما جمال العطيفى فكان همه الأساسى الوصول الى مركز مرموق فى المجتمع وكان يعتقد أن النيابة يمكن أن توصله إلى ذلك.

وكان أحمد رشدى صالح يطلب منى أن أكتب فى مجلة «الفجر الجديد» وفى إحدى المرات أعطانى مواد لكتابة مقال عن الاحتكارات الدولية. وقد نشر المقال وأثنى رشدى صالح عليه.

مسيرة حياتى

محمد يوسف الجندي

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

الناشر:

دار الثقافة الجديدة

٣٢ شارع صبري ابو علم . باب اللوق

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠

الاعتقال الأول:

فى أواخر ١٩٤٥ وأوائل ١٩٤٦ كنت قد كونت مجموعة مرشحين من مصطفى درويش وكان طالبا فى كلية الحقوق وطالب آخر فى كلية الهندسة لا أذكر اسمه الآن. وكنا نعقد اجتماعا فى أحد المنازل بالجيزة. وعند انتهاء الاجتماع فى منتصف الليل خرجت مع مصطفى درويش وأسرعنا للعودة إلى منازلنا. وكان مكان الاجتماع قريبا من منزل بهى الدين بركات باشا. وكانت قد انتشرت فى هذه الفترة العمليات الارهابية. فقد اكتشفت قنبلة فى سينما مترو وفى أماكن أخرى، وفى اسراعنا للعودة سمعنا صوت سيارة ورأيناها من بعيد وظننا أنها سيارة أتوبيس وجرينا للحاق بها. وتوقفت السيارة وظهر انها سيارة شرطة. ونزل الضابط وسألنا لماذا نجرى؟ فأخبرناه أننا كنا نظن انها سيارة أتوبيس. فأخذ فى تفتيشنا وأخرج من جيب مصطفى كتاب «البيان الشيوعى» فاقتادنا إلى قسم البوليس.

وهناك فتشونا ووجدوا معى نوتة صغيرة بها بعض الرموز التى لم يفهموها. وعرضونا فى اليوم التالى على النيابة التى حققت معنا. سألنى المحقق عن الرموز فقلت أنها اسماء أصدقاء. فقال: صديقات؟ قلت: نعم. ونشرت الصحف فى اليوم التالى نبأ اعتقال شيوعيين وأن أحد الشيوعيين فسر الرموز بأنها أسماء صديقات ولم يستطع وكيل النيابة أن يوجه الينا أى تهمة محددة، ومع ذلك بقينا فى الحجز لمدة أربعة أيام أفرج عنا بعدها قاضى المعارضة.

وكانت هذه أول تجربة لى فى الاعتقال وكان عمرى عشرين عامًا، وكان مصطفى اصغر منى بسنة على ما أعتقد. وكنت أسبقه بسنتين فى الدراسة بكلية الحقوق.

وقد أثار اعتقالى فزع الأهل وكانت والدتى قد توفيت قبل ذلك. فلم تعش هذه التجربة. ولكن كان يعيش معى فى المنزل اخوتى وخالاتى. وكانت أكبر اخواتى وهى الأصغر منى مباشرة قد تزوجت من أنور وحش الذى عين فى وزارة الوفد وكيلا للنيابة وكان يخشى بالطبع أن يؤثر اعتقالى على وضعه. وأخذ أعمامى يسدون لى النصائح ويضغطون على لكى اترك هذا الطريق، المحفوف بالمخاطر. وأذكر أنه فور وصولى إلى المنزل أحضروا لى الطعام لأعوض الأربعة أيام التى قضيتها فى السجن.

وأذكر أن محاولاتهم كانت تمزج بين النصائح والتخويف.

- ومن أمثلة ذلك أننى قبل اعتقالى بعدة شهور كنت قد شعرت ببعض الألم فى منطقة الصدر وكان لى صديق يدرس فى كلية الطب وكان يتردد معى على دار الابحاث العلمية. فاستشرته فى هذا الألم فوضع يده على قلبى وقال انه القلب ففزعت فزعا شديدا لعلمى بأن أبى مات من مرض القلب وكذلك أمى. فأصبت بوهم شديد وارتفعت دقات قلبى بحيث أنى مرضت بالفعل عدة أيام وأصبحت أرقد طول الوقت ولا أتحرك. فأخذنى أنور وحش زوج أختى

إلى احد أطباء القلب الذى كشف عليّ وطمأننى وسخر من قول صديقى الطالب فى كلية الطب. وقال أن قلبى سليم تماما. وأن كل شيء سليم. ويبدو أنه قاس ضغط الدم ووجده مرتفعا ٨٠/١٦٠ ولكنه لم يقل لي شيئا بخصوص ذلك.

خرجت من عند الطبيب وأنا أشعر أنى معا فى تماما، وبعد أن كنت أتحسب فى سيرى أصبحت أقفز درجات السلم وقد انزاح عن صدرى عبء الوهم الشديد.

بعد خروجى من الحبس أراد زوج اختى أن يخيفنى فأخبرنى بأن الطبيب وجد ضغط الدم عندى مرتفعا، وأننى يجب أن أراعى ذلك، وأتجنب السجون والمشاق مراعاة لصحتى.

لم أعر ذلك أى اهتمام فى ذلك الوقت. ولم أخف فقد كان انخراطى فى العمل السياسى وايمانى بما أقوم به أقوى من أى اعتبارات أخرى.

وكان عمى عبد القادر شقيق أبى الأصغر يواظب على تقديم النصح لى، ويحاول الضغط على بكل الوسائل. وذلك رغم أنه بعد أن قرأ مقالتى فى مجلة الشعلة عن «روسيا السوفيتية» أثنى عليها وعليّ وفرح بذلك. ولكنه بعد أن لاحظ انخراطى الجاد فى العمل السياسى غير موقفه، وكان يبذل جهدا كبيرا فى اقناعى. وقد استمر يعمل فى مكتب أبى بعد وفاته.

ولكن هذه النصائح كلها لم تعد تجدى معى، فقد أصبحت منخرطا فى العمل السياسى، بشكل لم أعد فيه ألقى بالا لأى نصح.

***

عندما أشرفت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء اخذت القوى الوطنية فى مصر والأحزاب المختلفة تثير مسألة ضرورة حل القضية الوطنية مع التسويات التى ستتم بعد الحرب. وأثارت الأحزاب المختلفة مسألة مساندة مصر للحلفاء وقت الحرب وأنه يجب أن تكافأ على ذلك بتحقيق المطالب الوطنية بانسحاب القوات البريطانية من مصر. وكانت الأحزاب كلها سواء الموجودة فى الحكم أو المعارضة تطالب بالتفاوض مع الانجليز لتعديل معاهدة ١٩٣٦ مما يضمن جلاء القوات البريطانية واستقلال مصر فى اطار التحالف مع بريطانيا. وكان الحزب الوطنى وحده هو الذى يرفع شعار «لامفاوضة إلا بعد الجلاء»، ولكن مطالب كل الأحزاب كانت تنحصر بالتحرك فى اطار الأوضاع القائمة، والنظام الملكى والنظم الاجتماعية السائدة. وعندما قدم محمد خطاب أحد أعضاء مجلس الشيوخ مشروع قانون بتحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا هوجم المشروع واتهم بأنه مشروع شيوعى ورفضه البرلمان.

أما بالنسبة للسودان فكان موقف كل الأحزاب هو المطالبة بوحدة مصر والسودان تحت

التاج المصرى.

أما قوى اليسار والقوى التقدمية التى كانت تضم أساسا المنظمات الشيوعية التى تعمل تحت الأرض ولا تتمتع بأية شرعية فقد بدأت تطرح برنامجا مختلفا وقد ظهر هذا البرنامج فى بعض المطبوعات مثل كتاب «أهدافنا الوطنية» لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى. وفى المحاضرات فى لجنة نشر الثقافة الحديثة ودارالأبحاث العلمية وفى بعض المجلات التى ظهرت فى ذلك الوقت مثل «الفجر الجديد» و«الطليعة» و «أم درمان» وعن طريق بعض دور النشر مثل «دار القرن العشرين» والمنشورات السرية التى كانت تصدرها الحركة المصرية للتحرر الوطني. وكان هذا البرنامج يربط بين النضال من أجل التحرر الوطنى والتحرر الاجتماعى. يدعو إلى الاستقلال الكامل السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى. ويربط بين النضال ضد الاستعمار وأعوانه فى الداخل من الاقطاعيين وأشباههم وكبار الرأسماليين. وكان يدعو الجماهير من عمال وفلاحين وطلبة ومثقفين وغيرهم من الوطنيين للتحرك من أجل تغيير المجتمع وتحريره من الاستعمار وأعوانه وعلى رأسهم السراى.

وكان لهذه القوى موقف متميز من قضية السودان. فقد رفضت شعار وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى، فقد كانت ترفض التاج المصرى سواء لمصر أو للسودان وكانت تدعو بدلا من ذلك للكفاح المشترك بين الشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار البريطانى. وحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره. ولكنها لم تكن تدعو إلى الانفصال أو ترحب به.

أما بالنسبة للقضايا الخارجية فكانت هذه القوى ترفض الفاشية وتدعو لدعم الحلفاء ضد عدوان المانيا النازية وايطاليا الفاشية. وكانت تساند الاتحاد السوفيتى بوجه خاص، وأذكر أن هذا كان هو التوجه فى المحاضرات والندوات التى كانت تدور فى لجنة نشر الثقافة الجديدة ودار الابحاث العلمية.

وبالنسبة للقضية العربية كانت تؤيد التضامن العربى ضد الاستعمار والامبريالية وتعارض الصهيونية والدعوة لهجرة اليهود إلى فلسطين. وكانت المنظمات الشيوعية تضم فى ذلك الوقت عددا من اليهود كون بعضهم رابطة اليهود للنضال ضد الصهيونية. وايدت هذه المنظمات نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار فى سوريا ولبنان والعراق والأردن وغيرها من البلاد العربية ودعت للتضامن معها.

وناضلت من أجل الفصل بين الدين والدولة، وعارضت توجه الإخوان المسلمين لتكوين دولة دينية، ولكنها دافعت عن التراث الوطنى الاسلامى وعملت على تطويره مستفيدة من المنجزات الحديثة فى الفكر والعلم.

وكانت تلك المنظمات تعارض الحكومات والأحزاب المختلفة التى تولت السلطة فى تلك الفترة. ولكنها كانت تعتبر أن الحكومة الوفدية هى الأكثر شعبية، والتى تمثل الارادة الشعبية

من خلال الانتخابات، ولهذا كانت تؤيدها ضد السراى وضد حكومات الأقلية، ولكنها تختلف معها فى أنها لا تمثل مصالح العمال والفلاحين والجماهير الكادحة.

وفى أكتوبر ١٩٤٤ أقيلت الحكومة الوفدية وكلف أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى بتأليف حكومة «قومية» أى من مجموعة أحزاب الأقليات. وشملت الوزارة ممثلين عن أحزاب الأقلية الأخرى بما فيها حزب الكتلة. وكان مكرم عبيد قد انفصل عن الوفد وكون حزب «الكتلة». وأصبح صبرى أبو علم سكرتيرا للوفد. وصعد نجم فؤاد سراج الدين. وكان من جيل أكثر شبابا. وأثيرت الشائعات عن علاقاته بزوجة النحاس باشا. وكان الأخير قد تزوج حديثا من زينب الوكيل وكانت تصغره كثيرا. ووجدت خلافات داخل الوفد بين صبرى ابو علم وفؤاد سراج الدين. واعتبر فؤاد سراج الدين وهو من كبار الملاك ممثلاً للجناح اليمينى فى الوفد بينما يمثل صبرى ابو علم الجناح اليسارى. وكون الشباب الوفدى ما عرف وقتها باسم «الطليعة الوفدية» وكانت لهم توجهات نقدية تتقارب مع توجهات اليسار. وكانت احدى المنظمات الشيوعية وهى التى كانت تسمى «الفجر الجديد» نسبة إلى المجلة التى كانت تصدر من أحد قادتها وهو احمد رشدى صالح ثم أصبحت تسمى «الديمقراطية الشعبية» ثم «طليعة العمال» ثم «العمال والفلاحين» كانت هذه المنظمة تتوجه للعمل بين الشباب الوفدى بل كان كثير من أعضائها أعضاء فى الطليعة الوفدية.

وتكون داخل الوفد تيار آخر وطنى ديمقراطى مثله بعض النواب الوفديين مثل عزيز فهمى و د. محمد مندور الذى رأس تحرير جريدة الوفد ووجهها توجها تقدميا متعاطفا مع اليسار بحيث أن صدقى باشا صادرها ضمن الصحف التى صودرت فى حملته ضد الشيوعية فى ١١ يوليو ١٩٤٦.

وكانت السفارة البريطانية، تؤيد فى العادة حكومات الأقليات وتدعم السراى، ولكن فى بداية الحرب كان هناك اتجاه للملك فاروق للتعاطف مع دول المحور، وظهرت فى السنين الأولى الخلافات بين الانجليز والملك فاروق، وبين حكومة على ماهر والسفارة البريطانية وكان طبيعيا ألا تكون عواطف الشباب الوطنى مع الانجليز. ولهذا فإننى لم أقبل أيضا تدخل الانجليز فى شئون البلاد وفرض الأوامر على حكومة على ماهر، رغم أننى كنت وفديا مثل والدى لفترة طويلة. وقد أحس الانجليز بأنهم فى حاجة إلى حكومة تحظى بالتأييد الشعبى وتتعاون معهم فى الحرب ضد محور ألمانيا – ايطاليا. ولهذا ضغطوا على الملك ليأتى بالنحاس باشا. ولما تردد فى الانصياع حاصروا القصر الملكى بالدبابات فى ٤ فبراير ١٩٤٢. وقد انتابتنى مثل غيرى من الوطنيين مشاعر متناقضة فى ذلك الوقت فأنا أرفض – مثل غيرى من الوطنيين– تدخل الانجليز ولكننى فى نفس الوقت أرفض حكومات الأقلية وأفضل عليها الحكومة الوفدية. وقد أثار ذلك نقاشا بين الشباب الوطنى وأذكر نقاشات طويلة دارت بينى وأخى من جانب وجمال

العطيفى من جانب آخر، والذى كان يهاجم قبول الوفد لتشكيل الحكومة تحت ضغط الانجليز.

أما المنظمات الشيوعية التى، كانت فى بداية تشكيلها فى ذلك الوقت، وكان غالبيتها من الأجانب، فقد كانت تساند كل مايساعد الحلفاء فى حربهم ولهذا فقد كان موقفها مؤيدا لمجئ الحكومـة الوفديـة.

***

(٥)

تصاعد الحركة الوطنية

وقرب نهاية الحرب وجد الانجليز أنهم لم يعودوا فى حاجة إلى حكومة الوفد بعد أن بدا واضحا أن انتصار الحلفاء أصبح وشيكا. ولهذا أعطت السفارة البريطانية النور الأخضر للملك فاروق لإقالة حكومة الوفد. وكلف الملك أحمد ماهر بتأليف الوزارة.

وأعلنت حكومة احمد ماهر الحرب على ألمانيا وايطاليا، وهو المطلب الانجليزى الذى كانت ترفضه حكومة الوفد.

وقد كلف إعلان احمد ماهر الحرب حياته فقد اغتيل وتولى الوزارة بعده محمود فهمى النقراشى.

وفى عهد احمد ماهر تصاعد الشعور الوطنى وظهر ذلك خاصة بين الطلبة الذين كانت تبدأ منهم دائما شعلة الانتفاضة الوطنية. فقامت المظاهرات والاضرابات فى الجامعة تطالب بجلاء الانجليز وتضغط على الحكومة للتحرك فى هذا السبيل. وأذكر فى عام ١٩٤٤ أو أوائل ٤٥ وكنت فى السنة الثانية بكلية الحقوق أن أضرب طلبة الجامعة وقامت المظاهرات تطالب بالكفاح ضد الانجليز لتحقيق الاستقلال فجاء احمد ماهر إلى الجامعة وخطب فى الطلبة وقال لهم اتركونا نعمل فى هدوء وقال ما معناه اننا لا نستطيع مواجهة الانجليز. فثار عليه الطلبة ورفضوا كلامه. واضطر لمغادرة الجامعة.

تصاعدت الحركة الوطنية بعد مجئ النقراشى الذى بدأ يلجأ لأسلوب القمع خصوصا بعد مقتل أحمد ماهر.

أما الطلبة فكانت لهم حركتهم وتوجهاتهم المختلفة. وظهرت بين الطلبة قوى جديدة ترفض التوجه الحكومى وتطالب بسياسة جذرية فى الكفاح ضد الاستعمار.

وكانت تنادى بهذا التوجه قوى بعيدة عن الاحزاب التقليدية تضم أساسا الشيوعيين والطليعة الوفدية والشباب الوفدى وقوى وطنية ديمقراطية أخرى. ووجد توجه آخر يمثله الاخوان المسلمون ومصر الفتاة وبعض عناصر الحزب الوطنى وقوى الأقلية.

وأجريت انتخابات اللجنة التنفيذية للطلبة. فحققت الجبهة الأولى اكتساحا ساحقا ونجح المرشحون من الشيوعيين والشباب الوفدى والديمقراطيين. وهزمت الجبهة الثانية هزيمة نكراء. وكان ذلك تعبيرا عن مزاج الطلبة العام فى هذه الفترة. وعن ثقتهم بعناصر الجبهة التقدمية.

فاز فى كلية الآداب لطيفة الزيات وعنايات أدهم وفى كلية العلوم جمال غالى وفاطمة زكى وعن المدارس الثانوية عبد المنعم الغزالى وغيرهم. ونجح من العناصر المستقلة الديمقراطية فؤاد محيى الدين فى كلية الطب. ورشحتُ نفسي فى كلية الحقوق ولكننى لم أوفق.

وكان الطلبة الشيوعيون من منظمة اسكرا والحركة المصرية للتحرر الوطنى يجتمعون كل يوم فى «الجامعة العمالية» التى كانت تتبع اسكرا وتقوم بتثقيف العمال المختارين والتى كانت تقع فى شارع ابراهيم (الجمهورية حاليا). وكان يجتمع معهم شهدى عطية الشافعى من اسكرا وكمال شعبان من الحركة المصرية للتحرر الوطنى.

وكانوا يتبادلون الأخبار عن النشاط السياسى بين الطلبة فى مختلف كليات الجامعة ويتبادلون الآراء. وكان شهدى يقود فى واقع الأمر تلك الاجتماعات. وكانت بمثابة مركز عمليات لتوجيه الحركة الطلابية.

ومن ناحية أخرى كانت تعقد اجتماعات فى ملاعب كلية الطب بقصر العينى ويتبادل الطلبة الآراء حول ما يجب القيام به. ورأى الطلبة الشيوعيون ومعهم العناصر المستقلة الديمقراطية والوفديون أنه لا بد من برنامج يتحركون على أساسه، وبدأ النقاش حول البرنامج. وقدمت الجبهة التقدمية تصورها عن الاستقلال السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى. والربط بين المطالب الوطنية والاجتماعية. والكفاح المشترك مع الشعب السودانى. ورفض التحالف مع المستعمر وغيرها من المفاهيم التى سبق الاشارة اليها. أما الجبهة الأخرى والتى كانت تشمل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض عناصر الحزب الوطنى فكانوا يدعون إلى المفاهيم القديمة ويرددون ما تقوله السلطة والأحزاب التقليدية، وكانت نتيجة انتخابات اللجنة التنفيذية للطلبة انتصارا لبرنامج الجبهة التقدمية.

وكانت مذكرة حكومة النقراشى باشا إلى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ بالدخول فى مفاوضات مع الدولة الحليفة لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦، استفزازا للشعور الوطنى الذى كان لايقبل بأقل من إلغاء هذه المعاهدة. فدعت اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة إلى مؤتمر عام يعقد بجامعة القاهرة.

وفى صباح يوم ٩ فبراير ١٩٤٦ عقد اجتماع طلابى حاشد فى جامعة فؤاد (القاهرة الآن) ضم حوالى ١٠ آلاف طالب، وقدموا ثلاثة مطالب أساسية هى:

١ - نشر أسرار المفاوضات المصرية الانجليزية.

٢ - إلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية لسنة ١٩٣٦ وكذلك اتفاقية السودان لعام ١٨٩٩.

٣ - الجلاء الفورى الكامل للقوات البريطانية عن أرض الوطن.

وبعد الاجتماع توجهت مظاهرة إلى قصر عابدين لتسليم هذه المطالب إلى الملك ورئيس الوزراء، وفى أثناء سير المظاهرة وعند مرورها فوق كوبرى عباس، فتح البوليس الكوبرى وضغط بعنف من الخلف مما دفع بالكثيرين إلى الإلقاء بأنفسهم فى النيل. وكانت النتيجة استشهاد بضع عشرات وجرح حوالى ٢٠٠ طالب وسمى هذا الحادث بمذبحة كوبرى عباس.

وقد اشتركت فى المؤتمر ولكننى لم أشترك فى المظاهرة. سرعان ما انتشر خبر المذبحة، وأذكر عودة بعض الطلبة وقد شجت رءوسهم والدماء تسيل منهم، وأخذوا يروون لنا أخبار المذبحة. انتشرت الأخبار فى مصر كلها وثار الأهل لمعاملة أبنائهم تلك المعاملة الوحشية.

ولم يقتصر الاستياء والثورة على الطلبة وحدهم.

وفى اليوم التالى قامت المظاهرات الغاضبة فى كل انحاء البلاد واصطدم بها البوليس. وحدثت مجموعة من الاضرابات فى الاسكندرية والزقازيق وشبين الكوم.

وقد بلغت الثورة بالطلبة أنه بعد المذبحة بيومين وفى يوم ١١ فبراير يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فاروق حطم الطلبة الزينات التى اقيمت عند الجامعة لهذا الغرض. وتردد هتاف (لا ملك إلا الله). وكان ذلك لأول مرة. وهى أيضا المرة الأولى التى تتخذ فيها المظاهرات المعادية للاستعمار طابع المظاهرات المعادية لأعوان الاستعمار وعلى رأسهم الملك.

اجبرت هذه الحركة الواسعة حكومة النقراشى على الاستقالة فى ١٥ فبراير ١٩٤٦.

ولجأ الملك إلى اسماعيل صدقى باشا المعروف بتاريخه الطويل المعادى للشعب لتأليف الحكومة الجديدة.

وحاول أن يتظاهر بالتوبة وبأنه قد تغير ويريد أن يفتح صفحة جديدة. وروج له الاخوان المسلمون، وطالبوا بإعطائه الفرصة. وردد هذا المعنى مصطفى مؤمن زعيم الطلبة الإخوان فى الجامعة. وفى احدى خطبه فى الحرم الجامعى استشهد بآية من القرآن: «واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً».

ورفض الطلبة تلك الدعاوى وصدقوا ما قاله لهم ممثلوهم المخلصون.

وفى يوم ١٧ فبراير ١٩٤٦ وفى أحد مدرجات كلية الطب بجامعة فؤاد (القاهرة) تم

اعلان اللجنة الوطنية للطلبة، واعلنت اللجنة ميثاقا سمته ميثاق ١٧ فبراير، كانت أهم نقاطه ما يلى:

١ – الجلاء التام للقوات الانجليزية فى البر والبحر والجو من كل الأراضى والقواعد على أرض وادى النيل.

٢ – تدويل القضية المصرية.

٣ – التحرر من التبعية الاقتصادية.

وقد كنت أشترك فى هذه المؤتمرات فى كلية الطب حيث كانت تدور مناقشات طويلة بين ممثلى التيارين التقدمى والمحافظ ووقف مع الشيوعيين بعض العناصر المستقلة مثل فؤاد محيى الدين وشريف حتاتة الذى لم يكن قد انضم بعد إلى الحركة الشيوعية. وتعرفت هناك أول مرة بشريف حتاتة، أما فؤاد محيى الدين فقد كان صديقا منذ الطفولة، ولكنه فى كلية الطب أصبح له دور قيادى بارز ومن أصدقاء الأمس من الإخوان المسلمين حضر مسعد سلام وحسان حتحوت اللذان اتخذا موقفا آخر هو موقف الإخوان المسلمين المساند لاسماعيل صدقى.

وفى الحرم الجامعى برزت لطيفة الزيات وكانت أول فتاة تقود التجمعات والمظاهرات الطلابية. وكانت خطيبة تناظر مصطفى مؤمن وترد على ما يردده من أباطيل.

فكان يشكو من قسوة الهجوم فيرد عليها قائلا: «كونى لطيفة يالطيفة»..

كانت أياما رائعة. كنا نعيشها ساعة بساعة. وكنا فى كل مساء. نجتمع مع شهدى عطية وباقى الطلبة الشيوعيين فى الجامعة العمالية بشارع ابراهيم ونسهر هناك حتى ساعة متأخرة من الليل ثم نذهب فى اليوم التالى إلى الجامعة ومؤتمرات الطلبة والمظاهرات.

ومع نمو الحركة الوطنية بدأ العمال ينخرطون فى لجانهم الوطنية التى اسفرت عن تكوين اللجنة الوطنية العليا للعمال فى شبرا الخيمة فى أوائل فبراير ١٩٤٦.

وقرر الطلبة والعمال توحيد جهودهم. وفى ليلة ١٧ فبراير توافد ممثلو الطلبة والعمال لعقد مؤتمر مشترك ضم ممثلى الطلبة والعمال واسفر فى النهاية عن قرار بتأليف اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

اللجنة الوطنية للطلبة والعمال:

كانت قيادة جديدة للحركة الوطنية تتميز عن كل الأحزاب القائمة فى ذلك الوقت سواء تلك التى كانت تتبادل السلطة بما فى ذلك حزب الوفد أو غيرها من أحزاب الأقليات أو

تلك الأحزاب والجماعات الأخرى التى لم تصل إلى السلطة ولكن كانت تجمع بعض المريدين وكان لها نفوذ بين الشباب مثل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة.

كانت هذه اللجنة منتخبة من الطلبة والعمال وهما أكثر القوى ثورية فى المجتمع المصرى. فقد كان الطلبة دائما ومنذ ثورة ١٩١٩ هم الفئة التى تتأثر وتتفاعل أكثر من غيرها مع الأحداث السياسية، ويكون رد فعلها فى العادة أسرع من الفئات الأخرى. وكان لحركتها تأثير فى المجتمع لأنهم كانوا فى الغالب أبناء من مختلف فئات المجتمع وعلى الأخص الطبقة الوسطى. ولم يكن لأبناء العمال والفلاحين فى هذه الفترة فرصة كبيرة للاستمرار فى التعليم عامة وخاصة التعليم الجامعى.

ولهذا كان تحرك الطلبة يؤثر فى المجتمع كله. ومن هنا كان تأثير اضرابات ومظاهرات الطلبة ١٩٣٥ التى سقط منهم فيها شهداء وكذلك تحركات ١٩٤٦.

وقد كانت هناك فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات تحركات للعمال كبيرة وقد يكون حجمها أكبر من تحركات الطلبة وسقط شهداء ولكن تأثيرها كان أكبر عندما التحمت بحركة الطلبة.

وقد تميزت القيادة الجديدة ببرنامج متميز يختلف عن برنامج كل الأحزاب الأخرى وكانت تضم ممثلين من الشيوعيين والمستقلين والوفد وعناصر من العمال النقابيين. ولم تكن تخضع لأى حزب من الاحزاب، ولكن كان للشيوعيين فيها نفوذ وتأثير كبير على توجهاتها وحركتها.

وقد نجحت هذه القيادة الجديدة فى تلك الأيام أن تكتسب ثقة الجماهير المصرية لأنها كانت تعبر عن مطالبها ومشاعرها.

كانت لى علاقة وثيقة بعملية تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال. وخصوصا بين الطلبة وكنت أشارك فى الأعمال التحضيرية لتكوينها. وكان أخى احمد الذى كان يعمل مع عبد الحميد عبد الحق الذى أسس حزب العمال على علاقة بعدد من العمال والنقابيين - وقد كان الكثير من هؤلاء الطلبة والعمال يترددون على منزلنا بالقرب من قصر العينى. وبما أنه لم يكن للجنة الوطنية للطلبة والعمال مقر رسمى، فكنا ندعوها للاجتماع فى منزلنا. وفيه عقدت هذه اللجنة عددا كبيرا من اجتماعاتها.

وكانت الصحف اليومية تهتم بابراز بيانات اللجنة التى كانت تصدرها بعد كل اجتماع.

وكانت الفترة التى أعقبت ٩ فبراير (مجزرة كوبرى عباس) مليئة بالحركة والنشاط السياسى الكثيف فقد سقطت حكومة النقراشى باشا وجاءت حكومة صدقى باشا الذى حاول

محمد يوسف الجندى

مسيرة حياتي

حتى ١٩٦٤

دار الثقافة الجديدة

اللقاء مع اعضاء اللجنة واحتواءهم. وقد ذهب مندوبون من اللجنة للقائه، ولكنه لم يستطع اقناعهم. ودعت اللجنة إلى اضراب عام يوم ٢١ فبراير للمطالبة بجلاء القوات البريطانية ووقف المفاوضات والغاء معاهدة ١٩٣٦.

وكانت الاستجابة اجماعية. فأغلقت المحال التجارية وأضربت المدارس والكليات والمصانع ووسائل النقل العام.

وخرج ممثلو اللجنة الوطنية للطلبة والعمال إلى شوارع القاهرة ينظمون الاضراب.

تجمعت الحشود ومن كل صوب بالآلاف فى ميدان عابدين. وأخذت صفوف وجماعات طلبة الجامعات والمدارس تتوجه إلى قلب العاصمة. وجاءت مظاهرة جرارة من عمال شبرا الخيمة تضم حوالى ١٥ ألف عامل، وما أن وصلت ميدان المحطة حتى تقابلت مع مظاهرات العمال القادمة من العباسية ومصر الجديدة والزيتون والمطرية وتوحدت كلها فى مظاهرة عمالية ضمت ٤٠ ألف عامل. وفى ميدان الأوبرا نظم مؤتمر حاشد ضم ممثلى العمال ومختلف الجماعات والمنظمات المنضمة إلى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال حيث صدرت عنه المطالب الآتية:

١ – فضح أسرار المباحثات المصرية الانجليزية.

٢ – تحقيق الجلاء الكامل للقوات البريطانية عن أرض الوطن.

٣ – الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية السودان لسنة ١٨٩٩.

٤ – عرض مشكلة جلاء القوات البريطانية عن وادى النيل أمام مجلس الأمن الدولى.

كذلك اندلعت المظاهرات فى ميدان باب الحديد «رمسيس» وفى شارع لاظوغلى وفى ميدان فم الخليج وفى ميدان الملكة فريدة (ميدان العتبة). وحتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا غلب على المظاهرات الطابع السلمى وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال تحرص على الحفاظ على الطابع السلمى لليوم، وكانت تقاوم كل المحاولات للاخلال بالنظام، وبذل الطلبة والعمال التقدميون جهدا كبيرا لمنع المحاولات لتشويه روعة اليوم وطابعه السلمى..

وقد أفشل جموع المتظاهرين المحاولات التى بذلتها بعض العناصر للتوجه إلى ميدان عابدين. وهو الأمر الذى رفضه المتظاهرون واتجهوا إلى قصر النيل.

وكانت مظاهرة ضخمة تضم حوالى ١٥٠ ألف شخص متجهة من شارع قصر العينى تدخل إلى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير حاليا). وفى هذه اللحظة ظهرت أربع مصفحات انجليزية تسير بسرعة كبيرة آتية من ناحية معسكر قصر النيل ومرة واحدة أطلقت احداها النار

فأصابت الشظايا الكثيرين وسقط أربعة قتلى فى أماكنهم. فى هذا الوقت ظهرت سيارتان انجليزيتان أخريان من ناحية كوبرى الخديوى اسماعيل(قصر النيل حاليا). وهنا اعترض المتظاهرون طريقهما واخرجوا سائقيهما وانهالوا عليهما بالضرب، ثم بعد ذلك أحرقوا العربتين واندفعوا محاولين كسر باب المعسكر الانجليزى بقصر النيل وفى هذه الحالة ظهر الميدان وكأنه حرق عن آخره نتيجة تصاعد سحابات الدخان من احتراق العربتين الانجليزيتين. وفى هذا الصدام قتل الانجليز حسب تقديرات جريدة «الأهرام» ١٥ شخصا وجرح ١٢٣. وفى تقديرات أخرى كان العدد أكبر من ذلك.

التقط بعض المتظاهرين جثة أحد القتلى وأخذوا يطوفون بها شوارع القاهرة، بينما رفع البعض الآخر أعلاما مخضبة بدماء القتلى والجرحى.

وظهرت بعض مجموعات الاخوان المسلمين مع بعض من شباب السعديين والأحرار الدستوريين وحاولوا تحويل المظاهرة فى اتجاه قصر عابدين لكى يقدموا مطالبهم إلى الملك. رفض المتظاهرون ذلك ورفعوا الشعارات الآتية «يسقط الاستعمار» «تسقط سلطة الباشوات» «لاملك إلا الله»

ازاء قوة المظاهرات استدعت الحكومة قوات الجيش للنزول إلى المدينة. ولكن الجيش رفض التعرض للمتظاهرين، بل إن بعض الجنود والضباط كتبوا شعارات ذلك اليوم على عرباتهم ومصفحاتهم، وأخذوا يديرون المناقشات مع المتظاهرين.

وكان هذا الموقف الذى اتخذه الجيش علامة بارزة فى تاريخ الحركة الوطنية، وكانت خطوة حاسمة لانتقال الجيش إلى جانب الشعب. ذلك الجيش الذى صار بعد حوالى ست سنوات الطليعة الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

لم تستجب جماهير القاهرة وحدها لنداء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، بل استجابت جماهير الاسكندرية وطنطا والمنصورة وبورسعيد واسيوط والاسماعيلية وكفر الزيات والحوامدية وكثير من المدن الأخرى.

لقد اشترك فى هذه المظاهرات المصريون والسودانيون، الرجال والنساء، الشباب والكهول (لقد انتظمت كل هذه الجموع وكأنها رجل واحد، توحدت ارادتها، وتوحد هدفها) وذلك على حد تعبير «الأهرام» فى اليوم التالى للمظاهرات.

كتبت صحيفة الأهرام فى ٢٥ فبراير ١٩٤٦ تقول (لقد كانت هذه مظاهرة للشعب كله للمطالبة بحقوقه القانونية والطبيعية).

وفى مساء ٢١ فبراير ١٩٤٦ اجتمعت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال لتقييم أحداث اليوم، وأصدرت البيان التالى:

أنه بعد فتح القوات البريطانية النيران على الأبرياء والعزل، نطالب بجلاء القوات البريطانية بصفة فورية من كل المدن الكبرى ونطالب الحكومة بألا تعود إلى المفاوضات مع بريطانيا إلا بعد صدور اعلان صريح من بريطانيا تعترف فيه بالجلاء.

كذلك اتخذت اللجنة قرارا بإصدار ميثاق وطنى، طالبت بأن يوقع عليه كل القادة الوطنيين، ويطالب الحكومة بألا تفاوض بريطانيا إلا بعد تعهد الأخيرة بإصدار إعلان رسمى يعترف بالجلاء الكامل للقوات البريطانية من أرض الوطن، على أن تمنح الحكومة المصرية فرصة ١٥ يوما كى تتسلم الرد من بريطانيا.

كان رد صدقى هو دعوة الجيش الى التدخل، فلما رفض الجنود والضباط لجأ إلى البوليس وأمر بتفريق المظاهرات بالقوة، وألقى بيانا ذلك اليوم قال فيه أن المظاهرات قام بها مجموعة من الرعاع. وأصدر أمرا بمنع جميع المظاهرات وعقد الاجتماعات العامة.

بعد ذلك وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٦ أراد الوفد أن يستفيد من حركة الجماهير التى قادتها اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، فوجه النحاس باشا الدعوة إلى المصريين لمواصلة الكفاح.

وفى نفس اليوم وجهت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال نداءها بضرورة أن تنسحب القوات البريطانية فورا من كل المدن الكبرى ودعت إلى اعتبار ٤ مارس يوم حداد عام بمناسبة احداث فبراير الدامية.

واستجاب الشعب المصرى لهذا النداء، ولم تصدر فى هذا اليوم أي صحيفة، أما فى الاسكندرية فإلى جانب الاضراب الشامل خرجت المظاهرات الكبيرة لتحيى ذكرى شهداء الأحداث الدامية. فقد أنزل المتظاهرون العلم الانجليزى من فوق إحدى القطع البحرية الانجليزية، وهجموا على فندق سيسيل، وعلى كباريه فيمينا وعلى الأماكن الأخرى التى يوجد فيها الانجليز. وكان أكبر وأخطر هذه المصادمات تلك التى وقعت فى ميدان سعد زغلول حيث هجم المتظاهرون على مركز الشرطة الانجليزية وأحرقوا وقتلوا الجندى الموجود به. وكانت نتيجة هذه المصادمات بين متظاهرى الاسكندرية والبوليس والقوات الانجليزية مقتل ٢٨ شخصا وجرح ٢٤٢ من المتظاهرين.

وفى ١٠ مارس ١٩٤٦ أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بيانا ضمنته ميثاقا وطنيا صدرته بما يلى:

«إن اللجنة ليسرها أن تعلن ميثاقا وطنيا اعتمدته وأيدته إرادة الشعب المصرى. ان هذا الميثاق يقف مع الشعب المصرى الذى يرفض هؤلاء القادة والزعماء الذين يتفاوضون مع الاستعمار وهم لايعيرون المطالب الشعبية اهتماما.. إن الجلاء هو الطريق الوحيد للدفاع عن استقلال وطننا. ان اللجنة لا تعترف بالمفاوضات غير المخططة التى تجريها حكومة صدقى باشا،

وتعلم أن هذه المفاوضات لن تسفر إلا عما يريده الاستعمار فى النهاية، وأن اللجنة سوف تواصل نضالها من أجل تحقيق الجلاء الكامل عن وادى النيل. وعاشت مصر حرة مستقلة».

مؤتمر نقابات عمال مصر

كان القانون السارى فى ذلك الوقت يسمح بتكوين نقابات للعمال، ولكنه يمنع تكوين اتحاد لهذه النقابات، كما أنه كان يمنع تكوين نقابات لبعض الفئات مثل عمال الزراعة وخدم المنازل. وقد صدر المنع بتكوين اتحاد لنقابات العمال بعد الصدام الذى حدث مع اتحاد نقابات العمال الذى حلته السلطات عام ١٩٢٤ مع حظر الحزب الشيوعى المصرى إثر الاضراب العام الذى دعا إليه الاتحاد. ومنذ ذلك الوقت والقانون يمنع النقابات من تجميعها فى اتحاد واحد.

ومع ذلك فقد ظل العمال يتحايلون على هذا القانون بأشكال مختلفة. وفى الأربعينيات ومع تصاعد الحركة الوطنية، تصاعد أيضا النشاط العمالى. توحد العمال فى اتحادين كبيرين هما «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» والذى تصدى لقيادته حسين كاظم ومراد القليوبى وداود ناحوم أما الثانى وكان يسمى «اللجنة التحضيرية» ـ على ما أذكر ـ فكان يقوده محمد يوسف المدرك، ومحمود محمد العسكرى وطه سعد عثمان.

وما أن ترددت الدعوة إلى حضور المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمى فى باريس عام ١٩٤٥ حتى أرسل وفدان الأول برئاسة محمد يوسف المدرك والثانى يضم داود ناحوم ومراد القليوبى ومحمد عبد الحليم.

وكانت حكومة الوفد قد أصدرت قانون الاعتراف بالنقابات فى عام ١٩٤٢ ولكنها لم تسمح بتكوين اتحاد للنقابات. ولكن القانون كان يسمح بتكوين اتحادات مهنية تجمع نقابات عمال المهنة الواحدة. ولكن النقابات عملت على الاتصال ببعضها لتكوين جبهة لتوحيد النضال، وتحايلت لتأسيس شكل من أشكال الاتحاد لم يأخذ اسم الاتحاد ولكنه سمى «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية».

ترجع نشأة هذا المؤتمر إلى ديسمبر ١٩٤٤ فى اجتماع ضم ستين مندوبا يمثلون ثلاثين نقابة من أكبر النقابات فى مصر، وتم الاتفاق على اطلاق اسم «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» على الجبهة التى تكونت من اتحاد عمال تلك النقابات.

استمر المؤتمر ينظم نضال النقابات المنضمة إليه، وفى عام ١٩٤٥ أصبح يضم ٢٥ نقابة هى نقابات عمال النقل والمرافق (الترام - مصر الجديدة - ثورنيكرفت - الاتوبيس - النور - المياه - الطيران) ونقابات الشركات الصناعية (مطبعة مصر - السكر بالحوامدية - سيجوارت

– اسمنت طرة – الميكانيكا والكهرباء – الحرير بحلوان – الكاوتشوك الافريقية – التطريز والرسم – مصر للسينما والتمثيل)، بالاضافة إلى نقابات عمال ومستخدمى المحال التجارية ومستخدمى دور السينما، وعمال كوتسيكا، وشركة أراضى الدلتا، وكانت سبعون نقابة من نقابات الأقاليم تؤيد المؤتمر، وبلغ عدد أعضاء نقابات المؤتمر بالقاهرة وحدها خمسة عشر ألفا من العمال.

ووضع المؤتمر هدفا له العمل على تكوين «مؤتمر نقابات عمال مصر» يضم كل النقابات العمالية، وهو اتحاد للعمال لايستخدم كلمة اتحاد تحايلا على القانون.

وشهد عام ١٩٤٦ التحام العلاقة بين الطلبة والعمال والتحام مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات بالعمل الوطنى وأصبح عضوا باللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

وقد حدد المؤتمر موقفه من الحركة الوطنية فى بيان نشر بالنشرة التى كان يصدرها تحت اسم «المؤتمر» فذكر أن الهيئات السياسية القائمة انكرت قضية الوطن وتآمرت مع المستعمر، ووقفت فى وجه الكفاح الشعبى. ولذلك تقع على عاتق العمال «مسئولية قيادة الشعب لتحقيق أهدافه الوطنية» لتحقيق الجلاء عن وادى النيل عسكريا بطرد جيوش الاحتلال من البلاد، واقتصاديا بنزع سيطرته المالية عليها، واداريا بطرد الموظفين الانجليز الذين يعملون فى خدمة الحكومة المصرية، فالعمال يكافحون من أجل التحرر التام من الاستعمار لأن فيه تحقيقا لرفع الأجور، وانخفاض ساعات العمل، وتمتع العمال بمستوى معيشة أحسن. وان على العمال أن ينظموا صفوف الشعب المناضل ولايسلموا قيادته إلى أعداء الحركة الوطنية الذين خانوها فى الماضى ويخونونها فى الحاضر. ففى انتصار قضية الوطن انتصار قضية العمال. (رقم ٥ – ١٩٤٦/٤/٢٥).

يقول د. رءوف عباس فى كتابه «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ – ١٩٥٢» ان قيام مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية بدور فعال فى النضال الوطنى عام ١٩٤٦ أدى إلى علو شأنه واتساع نفوذه وزيادة التفاف النقابات حوله، ومن ثم سعى للخروج من نطاقه المحدود لضم جميع العمال فى مصر فى منظمة جديدة تحمل اسم «مؤتمر نقابات عمال مصر» وزود النقابات بمشروع لائحة النظام الأساسى للمؤتمر المزمع تأسيسه لدراسته وابداء الرأى فيه. وفى مشروع اللائحة حدد أنه يريد تنظيم العمال النقابيين منهم والمحرومين من حق تأليف النقابات دون تفريق بينهم على أساس الجنس أو الدين أو القومية أو العقيدة السياسية داخل نقابات عمال مصر. ونص المشروع أيضا على أن المؤتمر يعمل على تنظيم العاملات فى منظمات توجههن إلى الكفاح النقابى والوطنى. وقد استفاد مشروع اللائحة إلى حد كبير من قانون اتحاد النقابات العالمى. ثم وجه الدعوة إلى جميع نقابات العمال لحضور الاحتفال بعيد أول مايو ١٩٤٦ بناء على توصية اتحاد النقابات العالمى بباريس ومشاركة لعمال العالم فى

الاحتفال بعيدهم، ولإعلان مولد «مؤتمر نقابات عمال مصر» و(ذلك كما جاء فى رسالة من حسين كاظم إلى رئيس نقابة عمال صناعة الزجاج بالقاهرة وضواحيها، رسالة رسمية فى ١٩٤٦/٤/٢٥).

اتفق على عقد الاجتماع فى أول مايو فى نادى الشرقية (وهو المكان الذى يشغله حزب التجمع حاليا) ولكن فؤجيء العمال الذين وفدوا من جميع أنحاء البلاد (٢٠٠ مندوب) بمحاصرة البوليس لمكان الاجتماع، ولكنهم توهوا إلى المنزل الذى كانت تعقد فيه الكثير من اجتماعات اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وهو منزلنا فى شارع معمل البارود أمام قصر العينى. استقبلناهم على الفور وفتحنا حجرة الصالون وحجرة المكتب وأغلقنا النوافذ. وملأ العمال الحجرتين وجلسوا على الأرض. ألقيت الكلمات واتخذت القرارات بتأسيس «مؤتمر نقابات عمال مصر».. وتمت الموافقة على لائحته الاساسية، واتخذ المجتمعون قرارا بالاجماع بتقديم مذكرة إلى اسماعيل صدقى يحددون فيها مطالب العمال الاقتصادية والسياسية. وتضمنت القرارات بندا يدعو إلى الاحتفال بعيد العمال العالمى فى أول مايو من كل عام باعتباره عيد العمال العالمى. وكان الاحتفال بهذا اليوم ممنوعا فى ذلك الوقت.

وحضرت الاجتماع احدى العاملات هى حكمت الغزالى مندوبة عن «رابطة» العاملات بالقاهرة» وقالت فى كلمتها أن هدف الرابطة الأول دخول العاملات النقابات ليشعرن بألا فرق بينهن وبين العمال. مصلحتهم واحدة، وآمالهم واحدة.

ورغم أن هذا الاجتماع قد عقد بشكل « شبه سرى» وبدون تصريح من السلطات. إلا أن أخباره أذيعت فى اليوم التالى فى الصحف.

وقد كان هذا الاجتماع وهذا العدد الكبير من العمال الذى توافد إلى منزلنا سببا لازعاج أسرتى وخصوصا زوج أختى أنور وحش الذى كان يعمل وكيلا للنائب العام، وكان يشكو قبل ذلك بأن الاجتماعات التى تعقد فى المنزل تهدد وضعه. وقد كانت أختى وزوجها يعيشان بالدور الأول. وبعد عقد هذا الاجتماع زاد انزعاجه وشكواه، وأبدى لى هذا الانزعاج.

ويعتبر د. رءوف عباس فى كتابه أن اهتمام مؤتمر نقابات عمال مصر بتنظيم العاملات هو أول اهتمام من نوعه بالمرأة العاملة فى ذلك الوقت. وقد ساهم مؤتمر نقابات عمال مصر بعد ذلك فى حل مشاكل العمال والوقوف معهم تجاه السلطات. وكانت بعض المصانع تقوم فى هذه الفترة بإغلاق أبوابها، وتفصل العمال، وقامت اضرابات فى بعض المصانع واعتقل بعض العمال. فقدم مؤتمر نقابات عمال مصر مذكرة إلى رئيس الوزراء فى ١٠ مايو بدأت بالاحتجاج على ما أقدمت عليه الحكومة من منع الاجتماع الذى عقد فى أول مايو، ومنع الاحتفال بالعيد العالمى للعمال، وعرضت المطالب التى ينادى بها المؤتمر باعتباره الهيئة التى تمثل جميع النقابات. وحددت مهلة شهر لاجابة هذه المطالب يعلن بعدها الاضراب العام إذا

لم تتحقق. وكان أول هذه المطالب سياسية وهو تحقيق الجلاء التام سياسيا واقتصاديا وعسكريا عن وادى النيل فورا. أما المطالب الأخرى فكانت اقتصادية، فطالبوا بتطبيق كادر عمال الحكومة على جميع العمال لتحسين أحوالهم، ومايترتب على ذلك من زيادة قدرتهم الشرائية فتحل الأزمة الاقتصادية، ومكافحة البطالة بمنع أصحاب المصانع من اغلاقها، واستيلاء الحكومة على كل مصنع يحاول اغلاق أبوابه، وشراء الحكومة لورش الجيش الانجليزى والأمريكى، وعلى الحكومة أن تقوم باصدار قانون التأمين ضد البطالة، وطالبوا بالافراج عن القادة النقابيين (محمد يوسف المدرك ومحمود العسكرى وطه سعد عثمان. وكانوا قد قبض عليهم بتهمة الحض على كراهية الرأسمالية) الذين قبض عليهم بسبب نشاطهم النقابى والوطنى. وتحديد ساعات العمل لجميع العمال المصريين بما لايزيد على ٤٠ ساعة فى الأسبوع مع عدم المساس بالأجور، واعتبار أول مايو من كل عام عيدا لجميع العمال المصريين بأجازة مدفوعة الأجر (المؤتمر- نشرة دورية رقم ٦ بتاريخ ٤٦/٥/١٨).

مرت عشرة أيام ولم ترد الحكومة، فأرسل حسين كاظم باسم المؤتمر رسالة إلى النقابات يحثها على إرسال برقيات مماثلة إلى رئيس الوزراء. فانهالت عليه وعلى الصحف البرقيات من النقابات من مختلف انحاء القطر. وقامت النقابات بطبع نص مذكرة المؤتمر إلى رئيس الوزراء وتوزيعها على العمال سواء كانوا مشتركين فيها أو غير مشتركين (وذلك طبقا لرسالة حسين كاظم).

اتصلت الحكومة بالمؤتمر وطلبت ايفاد مندوبين إلى وزير الشئون الاجتماعية حيث اتفق على تأجيل موعد الاضراب. وقد استطاعت الحكومة أن تشق وحدة العمال بإقناع عمال النقل بتأجيل يوم تنفيذ الاضراب مقابل تكوين لجنة وزارية عليا من العمال وأصحاب الأعمال ومندوبين عن الحكومة وممثلين لمجلس الشيوخ والنواب. وعقدت اللجنة أول اجتماع لها فى ٩ يوليو. وفى ١١ يوليو قام صدقى بحملته وألقى القبض على زعماء المؤتمر ضمن موجة الاعتقالات العامة تحت ستار مكافحة الشيوعية، وأصدر قرارا بحل مؤتمر نقابات عمال مصر.

يقول رءوف عباس فى كتابه «كان للشيوعيين نصيب الأسد فى قيادة كل من المؤتمرين «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» و «مؤتمر نقابات عمال مصر».

وعقب حل مؤتمر نقابات عمال مصر سادت موجه ارهابية، ولكن النضال العمالى المطلبى لم يتوقف، واستمرت موجة من الاضرابات العمالية. وإلى جانب الجرائد والمنشورات السرية الصادرة عن الحركة المصرية للتحرر الوطنى، كان لجريدة الجماهير دور بارز فى الدفاع عن مطالب العمال والتضامن مع العمال المضربين.

١١ يوليو ٤٦ - الحملة ضد الشيوعية:

فى ليلة ١١ يوليو أمضيت الليل عند عمتى التى كانت تقطن فى السيدة زينب وكان ابنها عبد القادر العايدى فى سني تقريبا وأنا أكبره بعدة أشهر. وقد أخبرنى بأنه يقرأ كتبا ماركسية، وأنه على صلة بأحد العمال الذى يتابع معه هذه القراءات. وقد قرب ذلك بيننا. ولا أذكر السبب الذى دعانى للمبيت عنده فى تلك الليلة. هل كان احساسا منى بأن هناك حملة ضد الشيوعيين؟ قد يكون ذلك. وكان أخى أحمد فى الاسكندرية. فقد كان يصادق إحدى الفتيات اسمها البا تقيم هناك، وكان كثير التردد على الاسكندرية. عرفت فى اليوم التالى أن البوليس السياسى داهم منزلنا واستولى على كتبى الماركسية وبحث عن أخى احمد، فقد صدر أمر النيابة بالقبض عليه بتهمة الشيوعية.

لم يكن لأخى أى علاقة بالشيوعية منذ وقت طويل. ولكن كانت له علاقة بالعمال من خلال عمله مع عبد الحميد عبد الحق فى الحزب الذى أسسه وسماه حزب العمال. ويبدو أن البوليس السياسى خلط بين نشاطى ونشاط احمد، ودارت الشبهات حول أحمد خصوصا أنه بدأ معى النشاط منذ سنوات فى «جمعية البعث الاجتماعى»، فضلا عن أنه كان الأخ الأكبر، وكان قد تخرج وأنهى دراسته.

ويبدو أن البوليس لم يكن قد فتح ملفا بعد حول نشاطى.

ونصحتنى أسرتى أن أبتعد بضعة أيام عن المنزل حتى ينجلى الموقف، فقررت الذهاب إلى الاسكندرية. وكان جمال العطيفى يعمل وكيلا للنيابة فى الاسكندرية، وكان يستأجر شقة هناك، فنزلت ضيفا عليه واختبأت عنده. أما أخى فقد بقى فى الاسكندرية بضعة أيام ثم جاء إلى القاهرة وتقدم إلى النيابة بعد أن هدأ الجو وبدأ الافراج عن باقى المعتقلين وجرى استجوابه ثم افرج عنه وعدت أنا من الاسكندرية إلى المنزل.

والحقيقة أن كشوف البوليس السياسى التى ضمنها الاعتقالات كانت عشوائية فإلى جانب الشيوعيين شملت شخصيات نقابية هم قادة مؤتمر نقابات عمال مصر وبعض أعضاء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وبعض الصحفيين مثل د. محمد مندور وزكى نجيب محمود وغيرهما.

وهذه أسماء بعض من شملتهم الاعتقالات: ابراهيم يوسف- أبو بكر نور الدين - احمد شكرى سالم - احمد كامل قطب - أسعد حليم- أنور كامل- جمال الدين محمود غالى - رمسيس يونان- سعد مكاوى - سلامة موسى - سيف الغزالى - احمد صادق سعد- عبد الله عبد الوهاب - عبد الرحمن الشرقاوى - عصام الدين حفنى ناصف - على الصيرفى- فتحى الرملى - لطف الله سليمان - محمد أبو الحسن - شهدى عطية الشافعى- محمد

الليثى - محمد رشدى- محمد حسام الدين- كمال عبد الحليم - مصطفى عبد الحميد مندور - نحوم منشة- هنرى كورييل - عبد العظيم أنيس - زكى نجيب محمود - ابراهيم دربال - أبو سيف يوسف - احمد رشدى صالح - احمد المصرى - أنور عبد الملك - حسام مشرف - داود ناحوم - سعد زغلول فؤاد- سعيد خيال - صلاح أبو العلا - عباس ابراهيم - عبد المعبود الجبيلى - عبده دهب - عمر رشدى - فتحى احمد المغربى - كمال احمد شعبان - لبيب حنا جرجس - د. محمد الشحات - محمد احمد عجلان - محمد عبد المنعم خربوش - د. محمد مندور - مصطفى كامل منيب - نعمان عاشور.

وصدر قرار بحل عدد من الهيئات أذكر منها:

١ - اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

٢ - مؤتمر نقابات عمال مصر (الذى تكون فى أول مايو ١٩٤٦)

٣ - دار الأبحاث العلمية.

٤ - لجنة نشر الثقافة الحديثة.

٥ - رابطة فتيات الجامعة.

٦ - اتحاد خريجى الجامعة.

ومصادرة الصحف والمجلات التالية:

١ - جريدة الوفد المصرى

٢ - الفجر الجديد

٣ - الطليعة

٤ - أم درمان

٥ - مجلة الضمير.

بعد حملة ١١ يوليو حل وضع جديد وظروف مختلفة لعمل المنظمات الشيوعية. فقد أغلقت المنابر العلنية التى كان الشيوعيون يعملون من خلالها، فاقتصروا على العمل السرى. أما الحركة المصرية للتحرر الوطنى فقد واصلت اصدار المنشورات السرية ومجلتها السرية «كفاح العمال»، وقد لجأت اسكرا إلى أسلوب الرحلات والحفلات كأشكال علنية للتجنيد والعلاقة بالعناصر الجديدة. ولكن بعد فترة بدأ التفكير فى اصدار جريدة اسبوعية، مستفيدة من ترخيص لمحمود النبوى فصدرت «الجماهير».

واستمر طلبة الحركة المصرية واسكرا فى التعاون فى الجامعة للقيام بأعمال مشتركة. وقد تعرفت فى الجامعة بعز الدين فودة الذى كان يتردد على لجنة نشر الثقافة الجديثة والذى عرفنى بكمال عبد الحليم الذى كان زميلى فى نفس السنة الدراسية وكان يقطن بالقرب من الجامعة فى «بين السرايات». وقد دعانى إلى منزله وقد تعرفت هناك على اخوته ابراهيم وفؤاد وصديقه الملازم له حمدى عبد الجواد. وكان كمال يكتب الشعر اما ابراهيم فكان قصاصا. وكان فؤاد طالبا بكلية الآداب.

وكان كمال عبد الحليم عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وكذلك ابراهيم. أما فؤاد وحمدى فقد بدآ العمل فى منظمة القلعة التى أسسها مصطفى هيكل وانتقل بعد ذلك قسم من أعضائها إلى اسكرا والبعض الآخر إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى. وكان فؤاد وحمدى ممن انضموا إلى الحركة المصرية.

وكان شعر كمال عبد الحليم فى ذلك الوقت يلهب المناضلين ويبث فيهم الحماس. وأصبح الكثيرون يحفظونه عن ظهر قلب ويرددونه. وقد اعتقل كمال فى الحملة التى شنها صدقى ضد الشيوعية فى ١١ يوليو ١٩٤٦ وتلا صدقى بعض أبيات من شعره لاستعداء مجلس الشيوخ ضد المعتقلين وتبرير حملته ضد الشيوعية.

ومن هذه الأبيات التى رددها صدقى باشا:

يا اخى تنعم الكلاب لدى القوم
ونشقى، فيالها من مضحكات
اطلق الثورة التى تسكن الصدر
وجفف دموعك الماضـــيات
هى حرب الحياة، اما حياة
أو ممات يكن معنى الحـــياة

وكان كمال مقلا فى تردده على الكلية. ففى كلية الحقوق لم يكن حضور المحاضرات ضروريا للتقدم للامتحانات واجتيازها فى آخر العام.

وفى السنة الثالثة من كلية الحقوق أصبحت أقل اهتماما بدراستى من السابق. وأصبح

المحتويات



العمل السياسى يشغلنى أكثر، ويأخذ أغلب وقتى. وكنت مواظبا على الذهاب إلى الكلية كل يوم، ولكننى لم أكن أحضر المحاضرات فى غالب الأحيان، بل كنت أمضى أغلب وقتى فى الاتصالات السياسية.

وعند صدور «الجماهير» كنا نقوم بتوزيعها باليد إلى جانب التوزيع العادى عن طريق بائعى الجرائد. وكنت أوزع بنفسى عدداً كبيرا من الأعداد فى الجامعة وغيرها. وقد اعتبرت فى الجريدة من أفضل الموزعين. وكان الكثير من الزملاء فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم يقومون بتوزيع الجريدة. ولم تكن هناك مشكلة فى تحصيل العائد. فقد كان الحماس غالبا. وكان الجميع يعتبرون أن توزيع الجريدة وتحصيل ثمنها عمل نضالي كبير. وقد كان كذلك. وكان هناك تنافس فى هذه العملية. وكانت احدى وسائلنا الهامة للاتصال بالناس ودعوتهم لأفكارنا وتجنيدهم.

***

(٦)

الوحدة وتأسيس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)

ارتبط الطلبة والعمال فى اسكرا و ح.م فى النضال المشترك فى أحداث ٤٦ الوطنية وخصوصا فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وتكونت بينهم علاقة نضالية خاصة دفعتهم للتفكير فى ضرورة الوحدة بين التنظيمين الشيوعيين. وكان هذا النضال المشترك هو الاساس المتين الذى دعم الحوار الذى دار من أجل الوحدة بين التنظيمين، وصدرت نشرة باسم «الوحدة» أصبحت توزع على أعضاء التنظيمين. واشترك فى مناقشات الوحدة قبل ذلك تنظيم «تحرير الشعب»، وفى خلال هذه المناقشات اقتنع قسم بالاتحاد مع اسكرا. أما القسم الآخر فقد اتحد مع تنظيم الفجر الجديد والذى كان يسمى فى ذلك الوقت «الديمقراطية الشعبية». وكذلك اتحدت اسكرا مع تنظيم «الطليعة» فى الاسكندرية وانضم قسم من تنظيم القلعة ومنهم عبد الواحد وعبد الرحمن بصيلة إلى اسكرا وانضم قسم آخر إلى ح.م.

واستمرت المباحثات بين التنظيمين وصفيت الخلافات السياسية واستمر النقاش لفترة طويلة حول موضوعين: الأول هو حجم الأجانب فى القيادة. وكانت غالبية القيادة فى اسكرا من الأجانب أما الحركة المصرية فكانت كل القيادة من المصريين باستثناء هنرى كورييل. وقد كانت سياسة الحركة المصرية منذ فترة هى تمصير القيادة ثم اتجهت بعد ذلك إلى التعميل فضمت عددا من العمال إلى قيادتها مثل سيد سليمان الرفاعى (ميكانيكى طيران) ومحمد محمد شطا (عامل نسيج بشبرا الخيمة). أما قيادة اسكرا فكانت غالبيتها من الاجانب، وقد ضم اليها فى آخر أيامها شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى. وقد حسم الخلاف لصالح التمصير فلم يبق فى القيادة من الأجانب غير هنرى كورييل مسئولا سياسيا وهليل

شفارتز مسئولا تنظيميا. أما نقطة الخلاف الثانية فكانت موضوع المركزية الديمقراطية وقضية انتخاب الهيئات من القاعدة إلى القيادة.

فكانت قيادة الحركة المصرية ترى أن الانتخابات فى ظروف العمل السرى ستكون عملية شكلية أما اسكرا فكانت تدافع عن الانتخابات بحجة الديمقراطية وكانت اسكرا فى الفترة الأخيرة قبل الوحدة بقليل تطبق نظام الانتخابات.

واستمرت المناقشة فترة ثم خضعت اسكرا لرأى الحركة المصرية بالنسبة للانتخابات.

وفى صيف ١٩٤٧ تمت الوحدة والاندماج، ووجدت نفسي بعد الوحدة عضوا قياديا فى دائرة المثقفين التى تقود تنظيم المثقفين فى الحزب. وكانت لجنة الدائرة تتكون من كمال عبد الحليم مسئولا سياسيا واسعد حليم (مسئول دعاية) ومنى (مسئولا تنظيميا) فوجدت نفسى انتقل مباشرة من عضو عادى فى منظمة اسكرا إلى عضو قيادى فى التنظيم الجديد الموحد الذى سمى «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» - (حدتو). وباعتبارى مسئولا تنظيميا كان عليّ أن اتصل بالمسئول التنظيمى فى المستوى الأعلى وهو هليل شفارتز (شندى)

وقبل ذلك كنت أعرف أنه المسئول عن تنظيم اسكرا الذى كنت اتبعه. ولم أكن أعرفه شخصيا، ولكننى كنت أحيطه فى ذهنى بهالة كبيرة من الاحترام والغموض.

والتقيت أيضا بهنرى كورييل وكان المسئول السياسى فى السكرتارية المركزية. وكان اللقاء في مكتب والده الذي حوله هنري إلى مكان تتم فيه كثير من اللقاءات التنظيمية. وأصبحت اللقاءات تتم كثيرا في سيارته الصغيرة التي كان يتنقل بها في القاهرة ويقوم بالكثير من اللقاءات بها. وبعض هذه اللقاءات كانت تتم في منزله في الزمالك الذي أهداه بعد ابعاده من مصر وبعد استقلال الجزائر إلى حكومة الجزائر وأصبح مقر سفارتها في مصر. وكان كتلة من النشاط والحركة واللقاءات طوال اليوم. وكان يتحدث العربية بلكنة أجنبية فلغته الأولى هي الفرنسية. ولكنه كان يقرأ العربية بسهولة. وكان كورييل يهتم كثيرا بهذه اللقاءات وفي خلالها يناقش كل التفاصيل ويدقق فيها. وكان لهذه اللقاءات أهمية كبيرة في ربطه بالمصريين من عمال ومثقفين وأزهريين وغيرهم.

ترك منزل العائلة:

جرت الأحداث الكبيرة والتى أثرت تأثيرا كبير عليّ وعلى حياتى وأنا طالب فى ليسانس الحقوق.

وقد سبق ذلك حدث شخصى كان له اثر كبير فى حياتى.

فوجودى فى منزل العائلة أصبح يثير الكثير من التناقضات بينى وبين عائلتى وخصوصا أن زوج أختى (أنور وحش) كان يعمل وكيلا للنيابة، وكان يخشى على وضعه بسبب نشاطى السياسى وكثرة الاجتماعات بالمنزل. وقد أخذ البوليس السياسى يتعقبنى ويراقب المنزل خصوصا بعد اعتقالى مع مصطفى درويش عام ١٩٤٦.

لهذه الأسباب قررت الاستقلال تماما وترك المنزل. أخبرت إخوتى وخالاتى بذلك. حاولوا اثنائي عن هذا القرار. ولكننى كنت مصرا على قرارى. فاستأجرت شقة فى الروضة من ثلاث حجرات وصالة بالدور الأرضي وشاركنى فيها بهاء فهمى وميشيل كامل. وأخذت من منزل العائلة سريرا ومكتبا. وبدأت حياة جديدة.

وكنت وقتها استعد لتأدية امتحان الليسانس وكنت فى هذه السنة الأخيرة أكثر انشغالا بالعمل السياسى منى بالدراسة ودخلت فلم أوفق فى أربع مواد كان عليّ أن أؤديها فى الملحق فى سبتمبر. لم يدفعنى ذلك إلى زيادة الاهتمام بالاستعداد للملحق ولكن تتابعت الأحداث وكثر العمل، بحيث لم أجد وقتا للمذاكرة والاستعداد. وكانت الأحداث وتتابعها مثيرا بحيث كان ذلك يجتذبنى أكثر من الدراسة.

وأصبحت مسئولا للاتصال بالمسئولين التنظيميين لأقسام المثقفين المختلفة. ومن هذه الاقسام كان هناك قسم لوكلاء النيابة ورجال القضاء وكان المسئول التنظيمى هو احمد فؤاد. وكان أحد هذه اللقاءات فى منزلى بالروضة وأثناء اجتماعى به سمعنا طرقا على الباب، وعندما فتحته وجدت أحد المخبرين يسألنى عن أسماء سكان الشقة. وبعد هذه الحادثة قررنا عدم عقد أى اجتماعات بالمنزل.

لم استمر كثيرا فى دائرة المثقفين وانتقلت إلى دائرة الاقاليم وكانت دائرة قد أسست حديثا بمسئولية فؤاد عبد الحليم شقيق كمال عبد الحليم وكان طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب. وكان فى عضوية اللجنة حمدى عبد الجواد، وصبحى زغلول وبهاء فهمى. وكانت مهمة هذه الدائرة النشاط فى الأقاليم فى الوجهين البحرى والقبلى. وكان هذا العمل يتطلب التفرغ وأن يقود النشاط محترفون. وعرض فى أول اجتماع اقتراح من القيادة بالاحتراف ودعوة للقادرين بالاحتراف والتبرع بما يملكون على أن يحصلوا على مرتب بدل احتراف هو ٨ جنيهات (ثمانية) فى الشهر. رفض بهاء فهمى. أما أنا فلم اتردد ووافقت على الفور. وكنت قد بلغت سن الرشد ففى يناير من هذا العام ١٩٤٧ كنت قد بلغت ٢١ عاما. وكنت أملك بعض الأسهم تركها لى والدى. وكانت الأسرة تملك أرضا زراعية فى السنبلاوين (أبو الصير) على المشاع، كان نصيبى الشائع فيها ١٦ فدانا قررت التصرف فى هذا كله وتسليمه للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حزب المستقبل) التي وهبت حياتى كلها لها وللقضية التى تعمل من أجلها.

وفى اليوم التالى ذهبت إلى بنك مصر وقمت ببيع الأسهم بحوالى ٤٠٠٠ جنيه وسلمت المبلغ للحزب. وعرفت بعد ذلك أنه تم شراء مطبعة بالمبلغ. أما بالنسبة للأرض فكان من الضرورى قسمة الأرض حتى يمكننى بيعها. فقمت ببيع ثلاثة أفدنة لأختى وسلمت المبلغ للحزب. وأخذت أدرس مع القانونيين ومنهم أحمد فؤاد الطريق لبيع الفدادين الباقية التى كانت تخصنى.

وانتقلت للعمل فى الأقاليم. وبدأت بطنطا أما صبحى زغلول فكان مسئولا عن العمل فى الوجه القبلى. وخصص حمدى عبد الجواد للعمل بين الفلاحين. وبدأت مرحلة جديدة من حياتى، فقد أصبحت ثوريا محترفا، وأحسست بأننى تخليت عن طبقتى وأصبحت أنتمى إلى الكادحين، أعيش مثلهم وفى مستواهم. وأصبح لاشيء فى حياتى له قيمة توازى هذا الانتماء. فلا المال يهمنى ولا ليسانس الحقوق ولا أى اهتمامات شخصية أخرى، فكلها تخضع لهذا الهدف ولهذا الانتماء وكان هذا هو غاية حياتى كلها.

وتوالت عليّ النصائح من أقاربى ومعارفى وكان عمى عبد القادر أكثر من يشغل نفسه بهذا الموضوع. ويكثر من تقديم النصائح لى. وفى محاولاته لإثنائي عن هذا الطريق استعان بأحد تلاميذ والدى، الذى كان يشاركه فى مكتبه للمحاماة والذى استمر فى العمل به وهو يوسف حلمى، كان يحب والدى حباً جماً، فكان يعتبره أستاذه، والقى كلمة مليئة بالعواطف الحارة فى حفل تأبينه.

أذكر أنه استعان بيوسف حلمى لإقناعى فقال يوسف حلمى أنا أعرف أنك مثالى، وأنا أيضا مثالى، وأنا لا أطلب منك أن تترك ما تعتقده، ولكن لكى يكون لدعوتك أثر أكبر يجب أن تنهى دراستك وتحصل أولا على الليسانس. ولكن التيار كان قد جرفنى ولم أستطع التوقف، وكنت أخضع كل شيء للعمل الذى كنت أركز عليه، وهو العمل الحزبى.

أما يوسف حلمى فقد أصبح بعد ذلك عضوا قياديا فى الحزب الوطنى هو وفتحى رضوان ثم اصبح سكرتيرا عاما لحركة السلام فى الخمسينيات، وأصدر جريدة الميدان ثم اختلف مع قيادة الثورة سنة ١٩٥٣ حول قضية الحريات وحل الأحزاب، فاعتقل وسجن فترة. وقد حدث فى تلك الفترة أن ألقى عبد الناصر خطابا إتهم فيه المعتقلين الشيوعيين بأنهم يعملون لجهات أجنبية فاستفز يوسف حلمى وبعث له برقية جاء فيها ما معناه. أن الجهة الأجنبية التى نعمل لها هى مصر وهى اجنبية بالنسبة لك. وكان يوسف حلمى يشتعل وطنية ويعارض توجهات الحكم فى ذلك الوقت سواء فى محاولات التقارب مع أمريكا أو تقييد الحريات العامة. وقد سافر سرا بعد الافراج عنه إلى الخارج عدة سنوات ولم يعد إلى مصر الا فى عام ١٩٥٦ عندما تغيرت سياسة عبد الناصر. وفى فترة وجود يوسف حلمى فى الخارج التقينا وكانت لنا مغامرات مشتركة سأتحدث عنها فى وقتها.

وفاة والدتى:

توفيت والدتى عام ١٩٤٥ وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى. إذ بعد وفاة أبى أخذت صحة أمى فى التدهور. فتجمعت عليها أمراض الكلى وضغط الدم. وكانت أمى شديدة الطيبة، واهتماماتها الوحيدة فى الحياة هى أولادها وزوجها. وكان أبى يرعى إخوتها ويهتم بهم فجاءوا للسكن معنا عندما انتقلنا إلى المنزل الكبير بقصر العينى وكان لى ثلاثة أخوال أكبرهم كان متزوجا يسكن منفصلا وكان يبحث عن عمل، ساعده أبى فى الحصول عليه، ولكنه توفى فى يوم تعيينه.

أما الخال الثانى فكان طبيبا وعندما تزوج انفصل عنا ثم توفى بعد قليل. أما الثالث فقد تخرج من كلية التجارة وعمل موظفا فى الحكومة ثم فى وزارة التموين وتدرج فى الوظيفة إلى أن أصبح رئيسا لمجلس ادارة شركة مصر للتأمين.

أما الخالات فالكبيرة لم تكن تعمل، وتزوجت زواجا لم يوفق وطلقت فعادت للحياة معنا فى المنزل، أما الخالتان الأخريان فكانتا تعملان فى التدريس وتزوجتا ولم تكن الصغرى موفقة فى زواجها فعادت للعيش معنا. وكانت تمارس علينا سلطتها، وكانت بذلك تحتك بنا باستمرار.

كان أحمد قد تخرج وأصبح مستقلا فاستقل بالسيارة وأصبح يغيب عن المنزل أغلب الوقت.

وفى السنة الأخيرة اشتد المرض على أمى وأصبحت لاتغادر السرير. وكان طبيب العائلة هو الدكتور غنيم وهو خال أبى، وقد درس فى فرنسا وتزوج فرنسية؛ أصبح له منها ابن وابنة وكنا نلجأ دائما للدكتور غنيم عندما يمرض أحدنا. وأذكر أنه كان يصف لنا دائما «شربة» زيت خروع. وكنا نكره هذا العلاج. وكان شديد الطيبة ويهون دائما من أى مرض، وكان كذلك بالنسبة لوالدتى حتى فى أيامها الأخيرة. وأصبحت أمى فى حالة نفسية سيئة وأصبحت تردد «الدنيا دى كلام فارغ».

وفى يوم وفاتها كنت أجلس فى حجرة المائدة أستمع إلى الموسيقى الكلاسيك كعادتى من الراديو الذى كان فى تلك الحجرة. وسمعت صراخ خالتى يأتى من حجرة والدتى. فذهبت إليها ووجدتها نائمة نومتها النهائية.

أحسست بالحزن. ولكننى لم أبك وانتابنى خليط من المشاعر. وإلى جانب الحزن لفقدان من أحب، فإنها فى السنتين الأخيرتين كانت تخاف عليّ من الطريق الذى اخترته لنفسى، وكانت تشفق عليّ، وكنت أيضا أشفق عليها، ولا أحب ازعاجها، وبعد موتها انتهى ذلك، ولم تعد هناك عوائق أمامى، أو إنسان أحرص على عدم إيذاء مشاعره، أو احس بمسئولية

تجاهه، فأصبحت أكثر انطلاقا وحرية فى عملى السياسى.

وذهبت مساء اليوم التالى إلى دار الأبحاث العلمية فواسانى زملائى وطلب شهدى عطية من الزملاء أن يواسونى. وأقيم سرادق أمام المنزل وتوافد المعزون وأذكر يومها محمد حسنين هيكل الذى جاء للعزاء وكان يومها يعمل فى آخر ساعة. وأثار معى نقاشا حول الشيوعية. وكان يناقشنى وهو يبتسم ابتسامة أحسست فيها بالسخرية ونشأت صداقة بينه وبين أخى أحمد.

العمل فى الاقاليم:

أصبحت أعمل فى الوجه البحرى أنتقل بين طنطا وشبين الكوم ودمياط، والتقى بالمجموعات الموجودة هناك واقوم بالتدريس لها ومتابعة عمل التجنيد والنشاط هناك.

واستأجرنا شقة فى طنطا كنت أسكن فيها مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد. وعمل معنا كمال عبد الحليم فترة ، ولكنه لم ينسجم مع فؤاد. وعمل معنا عبد المنعم الغزالى وعبد الستار الطويلة ثم فؤاد الدهان فترة من الوقت.

وعملنا على تأسيس مطبعة (آلة كاتبة ورونيو) لمنظمة الوجه البحرى.

وانتقلت للعمل فى الزقازيق واستأجرت حجرة صغيرة فى منزل عائلة فقيرة. وكان المنزل بلا كهرباء أو ماء. وكانت بنات صاحبة المنزل يحضرن لى الماء فى زلعة يحملنها من طلمبة المياه. وقد دلنى حمدى على هذه الحجرة حيث كان يسكنها قبلى. وكان يقص على مغامراته مع الفتيات بالشقة. وقد ترك حمدى الزقازيق ليعمل فى ميت غمر ومناطق فلاحية أخرى. ومن أهم المناطق التى كنا نتردد عليها للعمل بين الفلاحين قرية ميت يعيش وهى مسقط رأس شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى.

وكانت تجربة جديدة لى أن أسكن فى تلك الحجرة. وكانت لا تشتمل إلا على سرير ومكان لوضع «زير» المياه وكان هذا هو كل ما يوجد فى الغرفة. وكنت أمضى نهارى فى الاتصالات للعمل الحزبى فى مدينة الزقازيق والقرى المحيطة بها. ومن أقدم الأعضاء الحزبيين فى مدينة الزقازيق، والذى كان يمثل بالنسبة لنا حلقة الاتصال بالنشاط الحزبى هناك شخص يدعى سرور عامل المطافى وهو الذى كان يمثل الشخصية الأساسية، وإلى جانب سرور وجد عدد من الطلبة والموظفين والعمال بمدينة الزقازيق. وكنت أقوم بنفسى بالاتصال بالقرى المجاورة حيث كان بها بعض الفلاحين والطلبة المرتبطين بنشاطنا الحزبى وكنت أقوم بتوصيل المطبوعات الحزبية وأجتمع معهم للتثقيف الاشتراكى ومناقشة الأوضاع السياسية وتحديد الموقف الحزبى بالنسبة لها والرد على التساؤلات، والتعرف على مشاكل الناس لعرضها فى

مطبوعاتنا الحزبية وتقديم التوجيهات الخاصة بالتصرف لحل مشاكل الناس.

وبينما كنا فى المدينة نجتمع فى خلايا صغيرة من ثلاثة وخمسة أشخاص. ففى القرية لم يكن ذلك ممكنا. فقد كان الاجتماع يضم كل الأعضاء فى القرية بصرف النظر عن العدد. وقد يحضر الاجتماع بعض العناصر الأخرى المتعاطفة.

كنت أتناول طعامى فى المطاعم الرخيصة وأعود فى آخر اليوم إلى تلك الحجرة المظلمة التى كانت تضاء بلمبة جاز وتحضر لى بنات صاحبة المنزل الماء يحملنه على رؤوسهن. وفى الحجرة كنت أبقى فى سريرى أقرأ أو أكتب. ورغم ماروواه لى حمدى عن مغامراته مع ابنتى صاحبة المنزل، ورغم الحياة الجافة التى كنت أعيشها فقد كنت شابا خجولا، ولكن حيوية هاتين الفتاتين وبساطتهما وفرت على أى مبادرات. فكانت إحداهما بعد أن تحضر لى الماء تجلس معى إلى جانبى على السرير وتفتح معى مختلف الأحاديث. وتسأل عن القاهرة ورغبتها فى زيارتها ورؤية معالمها.

ولكن هذه الحياة لم تستمر طويلا. ففى احدى الأمسيات كنت على موعد مع أحد الشبان على رصيف محطة ههيا، وذهبت فى الموعد المحدد فلم أجده ولكن جاء بدلا منه رجال البوليس وقبضوا عليّ ووجدوا معى حقيبة مليئة بالمنشورات واقتادونى إلى نقطة البوليس وحجزونى مع عدد آخر من المحتجزين لأسباب مختلفة. تجمعوا حولى ودهشوا لوجود أحد الشباب المثقف بينهم. وأخذوا يسألونى عن سبب احتجازى فحدثتهم عن أفكارى، فوجدت منهم تعاطفا شديدا وسخطا على من اعتقلونى.

وعرضت فى نفس الليلة على النيابة، فوجدت عددا من المحامين المتطوعين يحضرون معى عندما عرفوا أننى ابن يوسف الجندى. سألنى وكيل النيابة عن سبب مجيئى إلى ههيا فقلت أننى كنت ذاهبا إلى أرضنا فى «أبو الصير» ونزلت فى محطة ههيا لقضاء حاجة وفاتنى القطار. أفرجت عنى النيابة بكفالة عشرة جنيهات ولم يكن معى المبلغ. فتطوع أحد المحامين الوفديين بإقراضى إياه.

خرجت من الحجز وتركت الحجرة بالزقازيق آسفا، واضطررت للانتقال للعمل فى مكان آخر. كان ذلك فى شتاء عام ١٩٤٨.

وانتقلت فترة بين زفتى وميت غمر. واستأجرنا شقة حصل عليها لنا عبد القادر العابدى فى زفتى فى العمارة التى كان يسكن بها. أما أنا فقد سكنت فترة مع «جدتى» أم والدى وكانت تسكن بمفردها فى منزل العائلة. وقد سرت كثيرا بسكنى معها. ولم أذكر لها السبب فى سكنى هناك. ولكنها أخذت تمدحنى لذلك وعندما كانت ترانى أقرأ أو أكتب كانت تعاتبنى لأننى «أمقمق» عينى. وكانت تعتنى بإطعامى وتعد لى الحمام المحشى الذى كانت مشهورة بالإتقان فى إعداده. وتغذيت جيدا فى هذه الفترة. وقبل أن أسكن مع «جدتى» كنت

أتردد كثيرا على قرية مجاورة لزفتى كان بها أحد الزملاء اسمه الحركى «فيصل» وكنت أتردد على عديد من القرى فى الشرقية والدقهلية. وأركب القطارات بالدرجة الثالثة وفى إحدى المرات غلبنى النوم فنمت نوما عميقا وفوجئت بالركاب يوقظوننى، وقد ظنوا أننى مت لأنهم بذلوا جهدا كبيرا فى ايقاظى. وفى مرة أخرى ذهبت إلى «فيصل» بعد جولة من الجولات ولاحظت ولاحظ فيصل أن القمل يتجول بحرية وبكثرة من ثنايا البلوفر الذى كنت ألبسه. فخلعت ملابسى التى أعطاها لإخوته البنات لينظفوها من القمل وردها إلى فى اليوم التالى بعد أن نظفوها وغسلوها ونشفوها. وكان هذا القمل هو أكثر ما يضايقنى فى هذه الجولات فاعتدت بعد كل جولة أن أخلع ملابسى وأنظفها من القمل. وقد اعتدت على ذلك فى فترات السجن الذى كان يمتلئ بمختلف الحشرات من قمل وبق. ولكن القمل هو الذى كان يضايقنى أكثر. فأصبحت عملية التنظيف من القمل يومية وأحيانا عدة مرات فى اليوم.

انتقلت بعد ذلك للحياة فى طنطا واستأجرت مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد شقة فى مدينة طنطا. أحضرنا اليها آلة كاتبة وجهاز رونيو.

ونظرا لانتقالى للعمل فى الأقاليم والسكن هناك فلم يعد هناك حاجة للابقاء على شقة الروضة فتركتها. وأصبحت أقيم فى فترات تواجدى فى القاهرة فى منزل العائلة.

وكانت هناك مشكلة الليسانس فقد بذل أقاربى المحاولات لأهتم بالحصول على الليسانس ونصحنى هنرى كورييل بنفس الشيء، بل أوصانى بأن آخذ أجازة اتفرغ فيها للاعداد للامتحانات. ولكن فؤاد وحمدي كان لهما وضع خاص وموقف آخر. فقد كان فؤاد فى السنة الأولى بكلية الآداب وترك الكلية ليتفرغ للعمل الحزبى ونفس الشيء بالنسبة لحمدى الذى كان فى السنة الأولى بالمعهد الهندسى العالى، وكانا ينظران إلى اكمال الدراسة الجامعية باعتباره طموحا بورجوازيا، وكان هذا هو الجو الذى أحاط بى فى ذلك الوقت. ولايعنى ذلك اننى لم أكن أريد الحصول على الليسانس. ولكن ذلك لم يكن فى ذلك الوقت من أولوياتى. فكانت هناك أحداث أخرى أكثر اثارة وتشغلنى أكثر. ففى الدور الأول كانت الوحدة بين اسكرا وح.م والمسئولية الجديدة التى أوكلت إليّ، وفى الدور الثانى كان عملى فى الاقاليم والانتقال للحياة هناك. بحيث فرضت على هذه الأوضاع أن أؤجل الحصول على الليسانس.

ثم استغرقنى بعد ذلك العمل فى الوجه البحرى ثم اعتقالى فى طنطا قبل الامتحانات بعدة أيام.

وتلك قصة أخرى..

ففى إحدى الليالى كنت عائدا مع فؤاد الدهان من القاهرة إلى طنطا فى حوالى منتصف

الليل. وطرقنا معا على باب منزلنا. وسمعنا صوتا يرد علينا ظننا أنه حمدى، ولكنهم كانوا مخبرين وضعوا كمينا للقبض على من يتردد على المنزل. وظهر أن المنزل هوجم قبل ذلك وقبض على فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد مع الآلة الكاتبة وجهاز الرونيو وكمية من المطبوعات الحزبية والمنشورات. وحولت مع فؤاد الدهان إلى قسم طنطا ووجدت هناك عددا من المقبوض عليهم من اعضاء التنظيم فى طنطا ومنهم عبد القادر العايدى ابن عمتى وقد عمل فترة فى طنطا واستأجر هناك منزلا مع عمتى. وسكنت معه فترة. ولكن حدث خلاف بيننا عندما انضم إلى «التكتل الثورى» بتحريض من أنور عبد الملك. والتكتل الثورى هو أول تكتل داخل الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وكان بقيادة شهدى عطية الشافعى الذى اختلف مع القيادة. وشاركه فى تزعم التكتل أنور عبد الملك وحسين كاظم. وكنا نفخر أنه لاأثر للتكتل الثورى أو أي تكتلات أخرى فى الاقاليم. ولكن أنور عبد الملك توصل إلى عبد القادر وحاول عن طريقه اختراق الأقاليم. ولهذا عاملناه بعنف لدرجة أن مشاجرة استخدمت فيها الايدى حدثت بينه وبين حمدى عبد الجواد، الأمر الذى اغضب عمتى. وكانت قد فتحت لنا منزلها وتتعاطف مع قضيتنا. وقد آلمها كثيرا هذا الخلاف.

مكثنا بضعة أيام فى قسم طنطا ثم نقلنا إلى سجن طنطا. وكانت النيابة وقاضى المعارضة متعاطفين معنا فأفرج عنا بعد أسبوع بكفالة خمسين جنيها دفعها اهلى. أما فؤاد وحمدى فلم يستطيعا دفعها فبقيا أسبوعا آخر إلى أن خفضت الكفالة وخرجا من السجن.

وقد جاء عمى عبد العزيز لاستلامى من سجن طنطا واخذنى معه إلى القاهرة. وأخذ طوال الطريق يسدى لى النصائح والتأنيب وأوصلنى إلى منزلنا. وعندما تأهب للمغادرة طلبت منه أن أخرج معه بسيارته إلى ميدان قصر النيل (التحرير) فى طريقه فرفض وحز ذلك فى نفسى.

ظهر أن شابين فى لجنة طنطا الحزبية كانا على علاقة بالبوليس السياسى وهما اللذان سلما باقى الاعضاء. وكانا كتلة من النشاط وقد جندا عددا كبيرا من المرشحين. وقد عرفانى مرة بأحد الطلبة الذى بدأت معه عمليات التثقيف الأولية. وبعد عدة جلسات قال لى: هذا كله جيد ولكننى أريد حاجة تفتح النفس. إنه يصدق الدعايات التى تقول أننا نحصل على الأموال والمساعدات من موسكو فرددت عليه: «ليس عندنا إلا مايسد النفس. التضحيات والمخاطر والملاحقات والسجن». ثم أوقفت الاتصال به بعد ذلك.

بعد حملة طنطا قررنا إعادة تنظيم أنفسنا وفى هذه الفترة قامت حرب فلسطين، وكنا نعارض هذه الحرب التى كنا نعتقد أنها مؤامرة تواطأ فيها الاستعمار البريطانى مع السراى لصرف الانظار عن الوجود البريطانى فى مصر. وكانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ترفض هجرة اليهود إلى فلسطين وكانت مع إقامة دولة واحدة ديمقراطية مستقلة تضم العرب

مقدمة

على مدى سنوات، والكثيرون يطلبون منى أن أكتب مذكراتى، وقد ترددت كثيرا قبل أن أبدأ، بسبب انشغالات الحياة العملية، أما الآن وبعد حياة استمرت أكثر من سبعين عاما، فقد قررت أن أبدأ فى الكتابة. ورغم أن ترددى فى البداية كان يرجع أيضا إلى الحرج الذى كنت أشعر به فى الكتابة عن حياتى الشخصية، فعندما بدأت فى الكتابة وجدت أننى لن أكتب حكايات شخصية بقدر ما ستكون كتابتى عرضا لتاريخ الحركة والتيار والفكر الذى انتميت إليه والذى وهبت له كل حياتى. ولهذا فإننى أوجه ما أكتبه فى المقام الأول إلى الجيل الجديد الذى أقدم إليه تجربة وحياة قد يجد فيهما ما يستفيد منه، يتجنب السلبيات والأخطاء، ويضيف إلى كل ما هو إيجابى ويطوره لكى يحقق ما هو أفضل فى ظروف أكثر تقدما وتعقيدا.

وهذه الحياة التى أقدم مسيرتها، والتى عشتها بشكل كامل، كان يوجهها إيمان وانتماء لأفكار وأهداف لم أحد عنها، رغم أنها فى الصغر أخذت شكل الحماس والاندفاع، ومع تقدمى فى السن كانت تزداد نضوجا فى معترك التجارب وفى خضم الحياة العملية.

ورغم أن أفكارى قد تطورت عن شكلها وطريقة التعبير عنها فى مقتبل

واليهود من سكان فلسطين. وهو الأمر الذى رفضه كل من الحكام العرب واليهود. وعندما صدر قرار التقسيم أيدته حدتو ليس باعتباره حلا جيدا ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن والذى يضمن جلاء الجيوش البريطانية من فلسطين. وكان البديل هو حرب لم نكن مستعدين لها وكان هدفها الوحيد الذي اتفق عليه الملك عبد الله والوكالة اليهودية والانجليز هو منع قيام دولة فلسطينية. وهو الأمر الذى عارضته الدول العربية وقامت حرب فلسطين التى كنا نرى أنه لن يستفيد منها غير المستعمر. وقد أثبت الزمن صحة وجهة نظرنا. فقد دخل العرب الحرب بأسلحة فاسدة ارتدت إلى صدور الجنود المحاربين وهزم العرب واستولى اليهود على مساحة أكبر مما قررته لهم الأمم المتحدة وقضى تماما على الدولة الفلسطينية التي تآمر عليها الملك عبد الله مع الانجليز والوكالة اليهودية. وقد صدر أخيرا كتاب «عروش وجيوش» لمحمد حسنين هيكل يتضمن الوثائق والشهادات التي تثبت هذا التواطؤ. وضم الملك عبد الله الضفة الغربية إلى شرق الاردن وكان ذلك باتفاق مسبق مع الانجليز والوكالة اليهودية. وأصبحت غزة تحت الإدارة المصرية.

دافعت جريدة الجماهير عن هذا الموقف. وكذلك المنشورات التى صدرت عن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى.

وسادت البلاد موجة هستيرية من العداء لليهود. واعتدى على كثير من الأجانب بل وبعض المصريين ذوى البشرة البيضاء والذين يشبهون الأجانب بحجة أنهم يهود. ويروى يوسف حزان الذى كان شكله مصريا صميما، وهو يهودى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، أنه كان يسير مع ابراهيم المانسترلى وهو مصرى مسلم أبيض وأشقر ويبدو كأنه أجنبى. رآه بعض الصبية فاعتدوا عليه وهم يصيحون «يهودى يهودي». ولم يعتد أحد على يوسف حزان الذى كان شكله مصريا صميما رغم أنه فرنسى الجنسية.

كان الإفراج، عنا من سجن طنطا قبل الحرب بأسابيع قليلة. وقد أبلغنى أعمامى أن البوليس السياسى اتصل بهم وأخبرهم أن النقراشى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت يريدنى أن أذهب للقائه. ولكننى رفضت الذهاب وتجاهلت هذه الدعوة. وقد أثار رئيس البوليس السياسى فى طنطا هذا الموضوع أثناء شهادته عند نظر القضية بعد ذلك أمام محكمة أمن الدولة برئاسة حسين طنطاوى وذلك فى محاكمتنا سنة ١٩٤٩ وقد قدم هذه الواقعة كدليل جديد ضدى ومساهمة منه فى استعداء هيئة المحكمة.

بعد اغتيال النقراشى باشا عين ابراهيم عبد الهادى رئيسا للوزراء. فى ١٥ مايو أعلنت الأحكام العرفية واعتقل الإخوان المسلمون إلى جانب الشيوعيين واليهود.

وقد اعتقلت غالبية القيادة. وكان فؤاد وحمدى اعضاء فى اللجنة المركزية ولكنهما لم

يعتقلا لاختفائهما. ولم أعتقل أنا أيضا فلم أكن أسكن فى منزلى. وانتقلت للعمل فى الاسكندرية وصعدت إلى عضوية اللجنة المركزية.

وأصبحت مسئولا عن لجنة منطقة الاسكندرية وكان يعمل معى عبد القيوم محمد سعد (سودانى) ومحمد خليل قاسم.

دخل المعتقل هنرى كورييل والسيد سليمان الرفاعى ومحمد شطا وعبد المعبود الجبيلى وغيرهم.

وبعد «التكتل الثورى» أخذت التكتلات والانقسامات تنخر فى جسم حدتو وكانت هذه التكتلات والانقسامات تتخذ مبررا لها خطا سياسيا قدمه هنرى كورييل للمناقشة وسموه «خط القوات الوطنية الديمقراطية». وقد سمى كذلك لأن هنرى كورييل واسمه الحركى «يونس» كان قد أنهى تقريره بعبارة مفادها أن حزبنا يجب أن يكون حزبا للطبقة العاملة ولكل القوات الوطنية الديمقراطية.

فثارت الخلافات وبدأ قسم فى اللجنة المركزية يتزعمه عبد المعبود الجبيلى واسمه الحركى «عادل» يقول أن الحزب يجب أن يركز عمله بين العمال وهاجم ماسمى بخط القوات الوطنية الديمقراطية. وتطور الأمر إلى انقسام. واستشرت التكتلات خصوصا فى أقسام الطلبة والمثقفين والأجانب. وتكون تكتلان أحدهما سمى «صوت المعارضة» والآخر «نحو منظمة بلشفية» اتحدا بعد ذلك وسمى «المنظمة الشيوعية المصرية» (م.ش.م) وكانوا يدعون إلى العمل ١٠٠٪ بين العمال. وذلك استنادا إلى نص كان لينين قد كتبه فى بداية نشاطه في كتاب اسمه «مهام الاشتراكيين الديمقراطيين الروس» جاء فيه أن على الاشتراكيين الديمقراطيين (أى الشيوعيين) أن يركزوا عملهم فى الفترة الأولى كليا بين العمال. وطالبوا بإلغاء كل الأقسام الأخرى (الطلبة والمثقفين والأقاليم).

وبدأ الهجوم على نشاطنا فى الأقاليم وطالب البعض بإيقافه وتوجيهه إلى العمال. وقد عارضنا ذلك بالطبع لاحساسنا بأهمية العمل الذى كنا نقوم به. ولم يكن لهذه التكتلات والانقسامات أثر تقريبا فى الأقاليم. وكنا نفخر بذلك وانصرفنا تماما للعمل من أجل توسيع نشاطنا بين الفلاحين والفئات الأخرى فى الأقاليم.

وعندما اعتقلت غالبية القيادة تكونت قيادة جديدة وصعدت عناصر جديدة إلى اللجنة المركزية كنت من بينها. وأصبح الموجود من اللجنة المركزية فى الخارج: فؤاد عبد الحليم، حمدى عبد الجواد، مصطفى طيبة، ايمى ستون، احمد حمروش، وأنا وشخصا آخر اسمه الحركى «مصطفى» كان مسئولا عن المطبعة وشخصا اسمه «هانى» وأسندت إليّ منطقة الاسكندرية.

سكنت فى البداية مع عبد القيوم فى حجرة على سطح أحد المنازل فى الابراهيمية ثم انتقل عبد القيوم إلى القاهرة وحل محله محمد خليل قاسم ثم نقل قاسم إلى القاهرة واعتقل بعد قليل.

انتقلت بعد ذلك بناء على عرض من كلمنت ليبوفتش للسكن معه فى الشاطبى فى الفندق الذى كان يملكه والـده هناك.

تكتل المطبعة:

بعد تكوين القيادة الجديدة بقليل بدأت المشاكل. فقد انتقل فؤاد عبد الحليم للعمل فى القاهرة. وكان يقوم فى الواقع بدور المسئول السياسى أما حمدى فقد أصبح مسئولا للأقاليم وأنا مسئولا للاسكندرية. وجرى تصعيد عبد القيوم محمد سعد ومحمد خليل قاسم إلى اللجنة المركزية. وعمليا كان العمل الحزبى فى يد هذه المجموعة وبدأ تذمر من بعض أعضاء القيادة بدأه مصطفى مسئول المطبعة وكان معه مصطفى طيبة وهانى. أما هانى فقد كان ذلك طريقه للهرب والتوقف. أما مصطفى طيبة فيبدو أنه كان قد بدأ الاتصال بمشروع «الحزب الشيوعى المصرى» الذى أسسه فؤاد مرسى واسماعيل صبرى بعد عودتهما من باريس، وقالا أن لديهم توجيها من الحزب الشيوعى الفرنسى. أما مصطفى فيبدو أن دوافعه كانت شخصية لم افهمها. فكتب تقريرا يقول فيه أن التنظيم يقوده بعض المرتزقة وهاو سياسى (يقصدنى أنا) وبدأوا يتصلون بالمعتقل حيث القيادة القديمة ويحاولون كسب تأييدهم السياسى والمادى.

والحقيقة أن تنظيمنا كان يعتمد أساسا على الاشتراكات التى تأتينا من المعتقلين وكان كل معتقل فى هذا الوقت يقرر له مبلغ من المال كانوا يتبرعون به إلى جانب تبرعات أخرى من القادرين.

استمر زملاؤنا فى داخل المعتقل وقيادتهم بالذات، وهى العناصر الأقدم والأكثر خبرة - استمروا فى الاتصال بمجموعة مصطفى ومصطفى طيبة وبنا أيضا. وقد ضايقنا هذا الموقف. ومرت فترة من التوتر والخلافات بيننا وبينهم، وفى إحدى رسائلهم قالوا أنهم «كادر الصف الأول أما نحن فكادر الصف الثانى».

ورغم أن ذلك كان صحيحا، إلا أننا فى الواقع أصبحنا نمارس القيادة الفعلية ولم يستطيعوا هم أن يقوموا بأى دور قيادى. وقد جرى العرف على أن من يدخل السجن لايقوم بدور فعلى فى القيادة وتكون القيادة فى العادة لمن هم فى خارج السجون.

وبدأنا نفكر بشكل مستقل عن القيادة فى المعتقل، وبدأنا نعيد بحث كل شيء. وأكـــبرنا لم يكن قد وصل بعد إلى سن الخامسة والعشرين. واعمارنا كانت تتراوح بين

العشرين والثالثة والعشرين.

واستمرت الرسائل بيننا وبين الداخل. ففى احدى الرسائل كتبنا لهم أننا نعتقد أن حزبنا يجب أن يكون حزب الطبقة العاملة فردوا علينا يسخرون منا ويهنئوننا على هذا الاكتشاف الذى لم يختلف عليه أحد.

وبدأنا نعيد التنظيم الحزبى الذى كان من قبل تنظيما فئويا وأقمناه على اساس جغرافى.

ومع قراءاتنا الماركسية أحسست أن اسم تنظيمنا وهو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى لايعبر بدقة عن حقيقتنا، وأنه لايتفق مع الموقف اللينينى عندما غير لينين اسم الحزب من الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى الى الحزب الشيوعى وكتبت وقتها تقريرا أطالب فيه بتغيير اسم منظمتنا إلى المنظمة الشيوعية المصرية ولكن لحسن الحظ لم توافق القيادة، ولكنها توصلت إلى حل وسط وهو اضافة كلمة الشيوعية بين قوسين، فأصبحنا نسمى حدتو (ش)

وكانت قيادة الداخل برئاسة هنرى كورييل. وقد أحسوا بعد ذلك أن مجموعة مصطفى طيبة ومصطفى تمثل تكتلا ضد حدتو، وتأكدوا من ذلك عندما استولى مصطفى على المطبعة فلم يكن هناك مجال أمامهم إلا الاعتراف بنا كقيادة. وقطعوا علاقاتهم بالمجموعة الأخرى. وان كانت خطاباتهم لنا تتسم بالقلق والاشفاق على أن أمور المنظمة قد آلت إلى صغار السن قليلى الخبرة ولكنهم شديدو الإخلاص، وانتماؤهم لا يهتز. وثقتهم فى حدتو ودورها وتاريخها ومستقبلها لاشك فيه.

وكانت نواة مجموعتنا هى فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القيوم محمد سعد وأنا. وظل محمد خليل قاسم معنا فترة ثم اعتقل. وكان زكى مراد طليقا ولكنه لم يكن فى القيادة وكان مشغولا بدراسته فى كلية الحقوق.

وكان أخى حسن عضوا فى التنظيم. وكنت قد جندته وأقنعته منذ فترة. وكانت هذه نقطة خلاف أخرى بينى وبين عمى عبد القادر. وفى حديث غاضب بينى وبينه بعد أن يئس من اقناعى اضطر للقول بأننى حر فى نفسى ولكن عليّ أن أترك حسن ولا أحاول جره إلى هذا الطريق. وجادلته فى ذلك وقلت له أننى لا أفرض على حسن شيئا، ولكنه حر فى اختياره. وكان حسن فى ذلك الوقت فى المدرسة الثانوية وكان يخطب فى الطلبة ويقودهم فى المظاهرات وقد دخل بعد ذلك كلية التجارة. وعند اعتقالنا فى عام ١٩٤٩ كان من القلائل الذين بقوا خارج السجن. أعيد توزيع المسئوليات فى اللجنة المركزية، نقلت إلى القاهرة واسندت إليّ مسئولية شبرا الخيمة. واستأجرنا شقة فى بولاق مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد.

الاعتقال والسجن:

وفى ١٢ مارس ١٩٤٩ ذهبت إلى ميعاد فى شبرا الخيمة. وفى أثناء سيرى متجها إلى منزل أحد الأعضاء. قبض على وفتشت وكان معى بعض المخطوطات. وإحدى هذه المخطوطات مسودة منشور كنا نعده يهاجم الملك فاروق.

وكنا فى هذه الفترة نصدر العديد من المنشورات التى تهاجم الملك وتكشف دوره فى تجارة الاسلحة الفاسدة أثناء حرب فلسطين. فقد كنا نعارض هذه الحرب ونعتبر انها مؤامرة انجليزية استعمارية بالاشتراك مع السراى والرجعية المصرية لصرف الانظار عن القضية الوطنية قضية احتلال القوات البريطانية للأراضى المصرية، ومن ذلك مثلا أنه عندما هلل الاعلام وقتها لما كان يسمى بانتصار الفالوجا، أصدرنا منشورا مضمونه أن معركة الفالوجا يجب ان تكون معركة القناة.

وكان موقفنا هذا يختلف مع الاتجاه السائد فى الاعلام المصرى والعربى فى ذلك الوقت والذى كان يؤثر على المشاعر العامة للجماهير، تلك المشاعر التى استغلتها جماعة الاخوان المسلمين وبعض الجماعات الأخرى لإذكاء مشاعر التعصب ضد اليهود.

كان موقفنا هذا الذى أعتقد أنه صحيح ويتسم ببعد النظر والمبدئية، إلا أنه كان يختلف مع التوجه الجماهيرى السائد فى ذلك الوقت. وكانت السلطات والاعلام السائد يستخدمه ضدنا لعزلنا عن الجماهير وتعبئتها ضدنا. إلا أنه بعد اكتشاف صفقات الأسلحة الفاسدة والنشر عنها فى الصحف، بدأ التوجه الجماهيرى يتغير.

وأعتقد أنه لو كان قد أخذ بوجهة نظرنا فى ذلك الوقت، وقبل قرار التقسيم، وتمسكنا بالحدود التى حددتها الأمم المتحدة للدولة الفلسطينية والدولة الاسرائيلية، ودافعنا عن ذلك الموقف لكان موقفنا أفضل الآن كثيرا.

وكان موقفنا يتلخص فى أن النضال من أجل هذا الموقف يجب أن يقوم به العرب واليهود وأنه يجب التفرقة بين الصهيونية كحركة رجعية وبين اليهود انفسهم الذين يجب كسبهم للنضال جنبا إلى جنب مع العرب فى المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، كان هذا هو الموقف الذى نؤمن به انطلاقا من مفاهيمنا الأممية والاشتراكية، إن مصالح الشعوب الكادحة واحدة فى كل مكان لافرق فى ذلك بين دين أو جنس. وكنا نرفض التوجه العنصرى أو التعصب القومى من أى جانب

اقتادونى إلى قسم شبرا الخيمة ثم حولت إلى النيابة التى أمرت بحبسى.

وكانت تجربتى مع الاعتقالات السابقة ألا يستمر الحبس إلا عدة أيام وسرعان ما تفرج عنى النيابة أو قاضى المعارضة، ولكن بعد اعتقالى بأيام قليلة صدر قرار باعتبار القضايا الشيوعية

قضايا عسكرية، وأصبح يطبق بالنسبة لها الحبس المطلق وكان ذلك يعنى بقائى فى السجن إلى أن أعرض على المحكمة، أو تفرج عنى النيابة وحولت إلى سجن مصر. ووجدت هناك بعض المسجونين الشيوعيين منهم محمد حسن جاد الشهير باسم «برق» والذى سبق اعتقاله عدة مرات. وبعض المحبوسين الآخرين أذكر منهم شخصا يدعى عبد الفتاح الشرقاوى كان قد أسس ما يسمى «بالحزب الشيوعى لشعوب وادى النيل» وهو حزب شيوعى اسلامى. وكنا نسكن فى عنبر كبير وكانت الحياة فى السجن فى ذلك الوقت شديدة القسوة. فلم يكن يسمح للمساجين بالتعامل مع الكانتين وكانت السجائر ممنوعة وكذلك الغذاء «الملكى» (الذى يرد من خارج السجن) وذلك بالنسبة للمحكوم عليهم الذين يمضون فترة العقوبة أما المحبوسون تحت التحقيق فكان من حقهم استلام غذاء (عامود) من الخارج. ونشأت بيننا فكرة «الحياة العامة» إذ لم يكن فى مقدور الجميع الحصول على غذاء من أهاليهم. فكانت العائلات القادرة وحدها هى التى تقوم بذلك ويقسم الغذاء «الملكى» على الجميع بالتساوى.

وكانت هناك سوق سوداء فى كل الممنوعات بدءا بالسجائر إلى الأمواس (البشلة) بلغة السجن إلى قطعة «الحلاوة» التى كانت تباع بخمسة قروش (وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت). وكانت الحلاوة مطلوبة جدا، إذ أن غذاء السجن لم يكن يحتوى على أى سكريات. وقد كان ما يقدم من غذاء فى السجن عبارة عن شقة من الخبز مع قليل من الدقة صباحا. وعدس أو فول ردئ (ملئ بالسوس) بالتناوب (يوم عدس ويوم فول) ظهرا وخضار (لاعلاقة له بالخضار بل كان يبدو ماء ساخنا به بعض الأوراق الخضراء) ومرة فى الأسبوع تقدم قطعة من الشغت وتسمى لحما.

وكان يخفف من هذا الوضع أنه أثناء الحبس الاحتياطى كان من حقنا الحصول على عامود «الأكل الملكى» ولكنى عانيت من اكل السجن عندما انتقلت بعد ذلك إلى السجن فى الاسكندرية (سجن الحضرة) وكنا فى الحبس الانفرادى وهو ما سأعود إليه فيما بعد.

توالى «الإيراد» من زملائنا الشيوعيين، قبض على فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القيوم محمد سعد وغيرهم. ولم يبق فى الخارج إلا عدد ضئيل جدا. كان من بينهم أخى حسن الذى كان عضوا فى تنظيمنا «حدتو»، ولكن فاعلية هذا العدد القليل كانت ضئيلة للغاية. وسمعنا فى الخارج عن وحدة أجراها زملاؤنا في حدتو بقيادة زكى مراد واحمد الرفاعى مع منظمة «نحو حزب شيوعى موحد» ولكنها لم تستمر طويلا. وتردد فى الخارج الحديث عن الوحدة. ولكنها كانت قليلة الأثر. فكانت الغالبية الساحقة من الكادر موجودة فى الداخل. اما فى المعتقلات (الهاكستب) أو فى السجون. ولم يكن من تقاليدنا أن يكون لمن فى داخل السجن مهما كان وضعه القيادى أو خبرته الدور القيادى فى تحديد السياسة والعمل فى الخارج.

وفى عام ١٩٤٩ سمعنا ونحن فى خارج السجن عن قدوم شخص من فرنسا اسمه «سعيد» يزعم أنه كان على اتصال بالحزب الشيوعى الفرنسى ويقول أنه جاء بتوجيه بتكوين الحزب الشيوعى المصرى وعرفنا بعد ذلك أن هذا الشخص هو اسماعيل صبرى عبد الله.

وكنت أعرف اسماعيل صبرى من كلية الحقوق. وكان يسبقنى بسنة وكان شديد التفوق فى دراسته. فيحصل دائما على درجة «الامتياز» جمعته شلة واحدة مع نهيد أبو زهرة، وكان معروفا عنهما أن لهما اتجاهات «تروتسكية» ولم يكن لهما أى دور فى النشاط الطلابى أو النشاط الوطنى فى ذلك الوقت. ولكنه بعد أن حصل على الليسانس بتفوق أرسل فى بعثة إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه. وهناك اتصل بالحزب الشيوعى الفرنسى وكان هذا الحزب لايمنع عضوية الأجانب به. فدخله عدد من المصريين غالبيتهم من اليهود الذين طردوا من مصر عام ١٩٤٨ بعد اعتقالهم، وكان يطرد الذين لا يحملون الجنسية المصرية أما الباقون فكانوا يخيرون بين البقاء فى المعتقل أو مغادرة البلاد. وانضم هؤلاء جميعا فى باريس إلى الحزب الشيوعى الفرنسى. وكون الحزب ما يسمى «بالمجموعة المصرية» واختير اسماعيل صبرى عبد الله مسئولا لها.

لم نلق بالا لزعم «سعيد» بأنه مكلف بتكوين الحزب الشيوعى المصرى. فنحن من ناحية لم نصدق زعمه، ومن ناحية أخرى فحتى لو كان زعمه صحيحا، فلم نكن نعتبر أن من حق الحزب الشيوعى الفرنسى أن يتدخل فى شئوننا. وفضلا عن ذلك كنا نعتقد أن لدينا نواة الحزب الذى يعمل منذ عدة سنوات وكانت له سياسته وتأثيره وهو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» ولكن ظهر بعد ذلك أن مصطفى طيبة كان على علاقة بهذه الدعوة الجديدة لتكوين ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى».

أثناء وجودى فى سجن مصر نقلت إلى سجن المنصورة للتحقيق فى «قضية الشيوعية فى المنصورة» وقد اتهم فيها عدد كبير منهم بعض الفلاحين وكذلك زميلنا حمدى عبد الجواد. بقيت هناك يومين ثم أعدت بعد ذلك إلى سجن مصر. ولكنى رحلت بعد ذلك إلى سجن الحضرة بالاسكندرية وواجهت التحقيق بوقائع علاقتى بالتنظيم الشيوعى فى الاسكندرية. وكانت هناك اختراقات امنية فى كل من هذه القضايا.

وأذكر فى التحقيق معى الذى قام به احد وكلاء النيابة فى الاسكندرية أن كان ضباط البوليس السياسى «سمير درويش» وغيرهم يحضرون التحقيق ويشتركون فى توجيه الأسئلة فاضطررت أن أسال وكيل النيابة عمن يحقق معى. فاستفز وسألنى «قصدك إيه؟» فاضطروا إلى التوقف عن التدخل.

وفى أحد التحقيقات عرض خطى على أحد الأطباء الشرعيين الذى ظهر أنه يمت بصلة القرابة إلى عمى عبد العزيز. وقد أخذ يؤنبنى أننى اخترت هذا الطريق.

وأذكر أيضا أن أحد المخبرين الذين كانوا يشتركون فى حرس نقلى إلى النيابة سألنى مرة إن كنت بعد الحكم على وتمضية مدة السجن سأستمر فى الشيوعية.قلت له «إن شاء الله»، فسألنى وكيل النيابة نفس السؤال ورد «إن شاء الله أليس كذلك». وبعد ذلك أخذ يوجه لى النصح بأنه من الأفضل أن أعمل بالصحافة.

كنا فى سجن الحضرة بالاسكندرية فى أوضاع فى غاية السوء، إذ كنا نحبس حبسا انفراديا ونسكن فى طابقين كاملين أفرغت تماما لنا «الشيوعيين» وكان بين كل زنزانة وأخرى زنزانة خالية، ويخرج كل منا بمفرده مع سجان إلى دورة المياه، وكذلك إلى الطابور اليومى، الأمر الذى كان يستغرق اليوم بأكمله. وكانت تمنع عنا تماما الكتب والصحف ومن لم يكن يصله غذاء من الخارج كان يضطر لتناول غذاء السجن الشديد الرداءة. وكانت الأسرة قد اتفقت مع أخى احمد الذى كان يتردد كثيرا على الاسكندرية لزيارة صديقته البا على ان يدفع مبلغا للمتعهد على أن يرسل لى غذاء ملكيا «وكان يسمح لمن يدفع بأن يحصل على سرير» فكان يدفع مبلغا يكفى يومين أو ثلاثة ثم يسحب منى السرير والغذاء الملكى بعد أن تنفد النقود. وقد كان ذلك يضايقنى كثيرا. فكنت أفضل أن يستمر الحال بلا غذاء ولاسرير.

وبعد الساعة الخامسة مساء كان وقت «التمام» أى إغلاق السجن فكيف كنا نمضى وقتنا؟

ابتكرنا طريقة لعقد الاجتماعات بأن نضع جردل البول فوق جردل المياه ونبدأ فى الحديث والنقاش: نتناقل الأخبار ونتدارس الوضع وكان الحديث يأخذ وقتا طويلا لأن آراء بعضنا البعض كنا ننقلها بالواسطة، فأقول مثلا رأيى لمن يسكن فى زنزانة قريبة يستطيع أن يسمع صوتى الذى ينقلها بدوره إلى الزنازيين الأخرى، وهكذا مع ملاحظة أننا كنا نسكن فى دورين.

وكان حمدى عبد الجواد يقطن الزنزانة القريبة منى بعد الزنزانة الفارغة. وكان شهدى عطية الشافعى يقطن زنزانة فى الدور الثانى. وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة سبع سنوات ولبس الحديد فى قدميه ونقل إلى لومان طرة بعد تنفيذ الحكم. وكان بذلك أول شيوعى يلبس الحديد فى قدميه تنفيذا لحكم بالأشغال الشاقة.

وقدمت مع بعض زملائى اقتراحا بالاضراب عن الطعام لإلغاء الحبس الانفرادى، وكان هناك مؤيدون ومعارضون وكان من الضرورى أن نحصل على أغلبية الأصوات لتنفيذ الاضراب واستمر النقاش بهذه الطريقة لمدة ثلاثة شهور. بعدها توصلنا إلى اغلبية تؤيد الاضراب. وبدأنا الاضراب الذى استمر ثلاثة أيام تقرر بعدها إلغاء الحبس الانفرادى. وكان ذلك بمثابة عيد لنا وقد سهل لنا الحياة كثيرا داخل السجن.

وبدأنا نطبق نظام الحياة العامة بالنسبة للغذاء الملكى الذى يأتى لبعضنا من الخارج،

واستطعنا أن نرتب أمورنا بشكل أفضل.

وكان «مارسيل اسرائيل» وهو أحد مؤسسى الحركة الشيوعية «منظمة تحرير الشعب» يشاركنى زنزانتى، وقال أنه عاش فى زفتى هو ووالده وتعرف بوالدى الذى وكله فى إحدى القضايا وكسبها له. وكانت له ذكريات عن زفتى. وكنا فى الزنزانة نتبادل الأحاديث والذكريات ونقوم بعمليات تثقيف سياسية وتعليمية، وكنا نحاول معرفة الأخبار فى الخارج عن طريق الزيارات العائلية التى بدأوا فى السماح بها. أو عند خروج أحد الزملاء للتحقيق. وكانت هذه المناسبات بمثابة ترفيه لنا. وكنا نعقد الاجتماعات الحزبية. واستمر الصراع بين الفرق المختلفة. فإلى جانب حدتو وجدت فرق أخرى مثل نحو حزب شيوعى مصرى وم.ش.م (المنظمة الشيوعية المصرية).

وقد نشأت المنظمة الشيوعية المصرية من وحدة تكتلين خرجا من الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وتكونا عام ٤٨. أحدهما كان يسمى «صوت المعارضة» والآخر «نحو منظمة بلشفية» وكان يضم فى الغالب عناصر من قسمى الطلبة والأجانب. وكان من بينهم محمد سيد أحمد وميشيل كامل واحمد نبيل الهلالى وغيرهم. ثم انقسما عن حدتو واتحدا مكونين منظمة جديدة سموها «المنظمة الشيوعية المصرية»، كان يقود هذه المنظمة سيدة أجنبية اسمها أوديت حزان شقيقة يوسف حزان وزوجها سيدنى سلامون. وقد كتب محمد سيد أحمد حديثا مقالا شبه فيه م.ش.م وسط اليسار بمنظمة التكفير والهجرة الآن بين الجماعات الاسلامية. فكانت م.ش.م تكفر الجميع وتعتبرهم خارجين عن العقيدة الشيوعية. وكانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم المتمسكين بالعقيدة الماركسية اللينينية الستالينية. واستندوا إلى احدى كتابات لينين المبكرة لاعتبار أى عمل بين فئات أخرى غير العمال كفرا. ولهذا نادوا بالعمل ١٠٠٪ بين العمال وحل كل الاقسام الأخرى واعتبروا العمل فى الاقاليم ترفا بورجوازيا. ودعوا إلى حل قسم الأقاليم مثله فى ذلك مثل كل الأقسام الأخرى غير البروليتارية.

وهناك نوادر عديدة عن هذه المنظمة منها مثلا أنهم كانوا يرسلون عددا من الأجانب والطلبة المتيسرين للجلوس على المقاهى فى شبرا الخيمة لتجنيد العمال. فاصطادهم بعض عملاء البوليس السياسى وتظاهروا بالاستجابة لهم ثم سلموهم للبوليس.

وفى السجون كان ممثلو م.ش.م يرفضون التحدث مع ممثلى المنظمات الأخرى. ويذكر أن ادارة سجن مصر سكنت أحدهم فى زنزانة مع اعضاء من حدتو. فذهب عضو م.ش.م إلى ضابط العنبر وطلب نقله إلى زنزانة أخرى. فسأله عن السبب. فقال أنه يسكن مع بوليس فضحك الضابط وقال له ولكنى أنا أيضا بوليس فكيف تطلب منى ذلك الطلب.

وقد تفككت هذه المنظمة بعد ذلك بعد أن سببت كثيرا من الأضرار. ويتندر أعضاؤها السابقون عن تفاصيل عمل تلك المنظمة والأساليب التى كانت تتبعها مع اعضائها. وكانوا

جميعا شبابا صغيرى السن قليلى الخبرة يمتلئون حماسا للقيام بشيء لإشباع طموحاتهم الثورية. وقد انفض غالبية أعضاء هذه المنظمة وتركوا العمل الحزبى كلية. أما الأقلية الباقون فقد تحولوا إلى التنظيمات الأخرى.

أما أوديت زعيمة المنظمة فقد التقيت بها لأول مرة بعد ذلك فى باريس فى الثمانينيات، وهى كما يقول أخوها لم تترك العمل السياسى فحسب بل ولاتتحدث فى السياسة اطلاقا وتفرغت للرسم ولرعاية اسرتها وهى بذلك تقوم بعمل أكثر فائدة. وقد انفصلت عن زوجها سيدنى وتزوجت من شخص آخر وأصبحت تعيش فى سويسرا.

كانت فترة الحبس الانفرادى، والتى استمرت أكثر من ثلاثة أشهر فترة قاسية. وكان من الصعب تمضية الوقت بلا عمل أى شيء. وكنت أخطط لبرنامجي اليومي فى خيالى. أما المساء فكان غنيا بالمناقشات والأحاديث مع الزنازين الأخرى. وأذكر فى احدى المرات أن وضعت جردل البول فوق جردل المياه فانقلب جردل البول ووقع بعضه فى جردل المياه. ولم يمنعنى ذلك من الشرب من المياه فلم يكن أمامى بديل آخر حتى الصباح.

وكان الوضع بعد الغاء الحبس الانفرادى وتسكيننا فى زنازين جماعية أفضل كثيرا. وكنا شديدى الفرح بذلك كأنه أفرج عنا. وأصبحت الحياة أكثر سهولة نسبيا. ولكن استمر السجن واستمر الاعداد للمحاكمة التى وصلنا قرار الاتهام فيها.

وكان شهدى قد حوكم وحكم عليه بالسجن سبع سنوات اشغال شاقة ورحل إلى طرة ولبس الحديد. وقد عانى ذلك بمفرده. ولم يكن معه أحد من زملائه الشيوعيين. فكون علاقات وثيقة وصداقات مع غيره من نزلاء اللومان وترك هناك ذكريات وآثارا ممتازة.

كان شهدى أول من كون تكتلا داخل حدتو سنة ١٩٤٨ سماه «التكتل الثورى» ولكنه بعد ذلك تخلى عنه وانتقد تصرفه وعاد إلى حدتو وظل بها. وكان أحد اعضائها القياديين إلى حين اغتياله فى ليمان أبو زعبل عام ١٩٦٠.

المحاكمة

قدمت إلى المحاكمة مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القادر العابدى (ابن عمتى) وفؤاد الدهان وعدد آخر من المتهمين على ذمة قضية طنطا. وضمت أوراق قضايا طنطا

شبابى. إلا أنها ظلت فى مضمونها لم تتغير، من حيث الإيمان بالعدالة الاجتماعية والانحياز للجماهير الكادحة المنتجة. ومازلت حتى الآن أقدس العمل المنتج، وأرفض وأعارض الظلم الاجتماعى. ومازلت أومن بالعمل لصالح غالبية الناس وإن تعارضت مع المصالح الأنانية للأقلية المترفة. وأرفض الحياة على حساب الغير باستغلال عملهم وتدمير حياتهم. وأقدس الحرية الفردية التى لا تتعارض مع الحرية الاجتماعية ولا تقوم على حسابها. ولا أفرق بين البشر، بين رجل وامرأة، وأبيض وأسود وأصفر، بين أفريقى وآسيوى وأوروبى وأمريكى، وإن كنت أنتمى إلى العالم الملون.

ΔΔΔ

وهيا وشبرا الخيمة والاسكندرية وقدم قرار اتهام يضمها كلها. وكنت المتهم الأول فى القضية وقدمنا إلى محكمة عسكرية برئاسة حسين طنطاوى المعروف بأحكامه القاسية وبخضوعه الكامل للسلطة والسراى. وكان رئيس النيابة وقتها هو محمد كامل القاويش وقد أدين طنطاوى والقاويش بعد قيام الثورة.

وكان الشاهد الأول هو السنباطى رئيس البوليس السياسى فى الغربية وقام بالدفاع عنى منصور باشا اسماعيل الذى كان قد ترك القضاء بعد احالته على المعاش وعمل بالمحاماة. وهو ابن عم اسماعيل صدقى ووالد زوجة عمى عبد العزيز وكان يساعده عمى عبد القادر الذى كان يعمل محاميا.

لم يعجبنى دفاع منصور اسماعيل الذى كان يقوم اساسا على أننى بعيد عن الشيوعية وأن وضعى العائلى لايسمح لى بذلك. وأننى غريب الأطوار وأن أخى قابلنى مرة فى الاسكندرية وليس معى مليم واحد، فسأل حسين طنطاوى: هل تريدون القول بانعدام المسئولية (لاختلال القوى العقلية أو ما شابه) فرد منصور اسماعيل: لا أقول ذلك.

ولاستعداء المحكمة قال الشاهد الأول أن النقراشى باشا حاول استدعائى لمقابلته ولكننى رفضت المقابلة فهب الدفاع ناكرا لهذه الواقعة ومستنكرا لها.

وفى النهاية صدر الحكم عليّ وعلى كل من فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القادر العابدى بالسجن خمس سنوات وغرامة لا أذكرها. وسمعت بعد ذلك أن حسين طنطاوى قال للقريبين منه أنه كان يجب أن يصدر ضدى حكما أقسى ولكنه راعى وضع عائلتى.

جرت المحاكمة فى الاسكندرية. وصدق على الحكم بعد فترة. وفى أحد الأيام نودى علينا نحن الأربعة وبلغنا بالتصديق على الحكم ونزعت منا ملابسنا (الملكية) بما فيها الملابس الداخلية والأحذية وسلمنا ملابس السجن الزرقاء (مهلهلة).

وكنا أول من يصدق على الأحكام ضده من الشيوعيين فى سجن الاسكندرية. وأرادت ادارة السجن أن تضع قواعد شديدة للتعامل معنا فوزعتنا على زنازين «السوابق» فى الدور الثامن بالسجن، فكنا لا نلتقى إلا فى الطابور اليومى أو فى دورة المياه عند فتح الزنازين.

وكان معى فى الزنزانة حوالي عشرين مسجونا كلهم من السوابق. وقد استقبلونى استقبالا حسنا وحاولوا مساعدتى والتخفيف عنى. كنت «المتعلم» الوحيد بينهم. وأخذوا يسألونى عن تهمتى وبدأت احكى لهم. وكانوا يتجاوبون ويتعاطفون ويسبون الحكومة التى تعامل أمثالنا مثل هذه المعاملة، وحدث نفس الشيء مع زملائى الآخرين فى زنازينهم. وكانت المخدرات أمرا عاديا فى تلك الزنازين وبالذات الحشيش الذى كان يتداول بسهولة. ويهرب مع باقى المهربات

الأخرى مثل السجائر والنقود والأمواس (وتسمى البشلة) والحلاوة الطحينية وغيرها.

وكانت الصحبة تفرض عليّ أن أجرب معهم السجائر رغم أننى غير مدخن. وجربت مرة نفسا من الحشيش فدار رأسى ولم أجربه مرة أخرى.

عوملنا تماما مثل باقى المساجين. حل يوم الحمام فدعيت كل العنابر إلى فناء السجن وكان علينا أن نجلس القرفصاء انتظارا لأوامر السجان، والعادة أن يقرن السجان أمره بضرب أحد المساجين ليعطى لأمره قوة. وكنا بين المساجين لافرق بين مسجون وآخر وعند اصدار أحد الأوامر كان القريب بين يد السجان هو حمدى عبد الجواد فضربه وكان بجانبه فؤاد عبد الحليم فقاما وتماسكا مع السجان. فأرسلهما إلى ضابط العنبر الذى يعرفنا جيدا. وذهبت أنا وعبد القادر العابدى معهما. سألنا: ما الأمر؟ قلنا إن السجان ضربه. فرد وماذا فى ذلك «هوكفر يعنى». ثم نادى أحد السجانين وامره بضرب كل من فؤاد وحمدى على قفاهما عدة مرات وهى عقوبة معتادة فى السجن، بصرف النظر عن الألم فقد شعرنا بإهانة شديدة ووجدنا طريقة مع احد المساجين لابلاغ زملائنا فى عنبر التحقيق بالخبر الذين قاموا بدورهم بتسريبه إلى عائلتنا فى إحدى الزيارات. وفى اليوم التالى نشرت احدى الصحف الوفدية المعارضة للحكومة خبر «الاعتداء على الشيوعيين بالضرب فى سجن الحضرة».

أصاب الفزع ضابط السجن وحاول استرضاءنا فأمر لنا بشراء الملابس التى نحتاجها (أحذية وملابس داخلية) من اماناتنا واعطانا ملابس سجن جديدة واستمع إلى طلباتنا التى كانت تنحصر فى أن نسكن معا. فخصص لنا زنزانة خاصة بنا بالدور الثانى وبدأت المعاملة تتحسن.

كان هذا درسا لنا داخل السجن وهو أنه يجب المقاومة والنضال لتحسين ظروفنا المعيشية وخصوصا أننا كنا بداية تجربة تنفيذ الأحكام على الشيوعيين. توالى بعد ذلك التصديق على أحكام أخرى، ونظمنا اتصالنا بعنبر من هم تحت التحقيق وبدأت تصلنا الأخبار وبعض الغذاء «الملكى».

وفى عام ١٩٥٠ أجريت الانتخابات وجاءت حكومة الوفد التى أفرجت عن المعتقلين الشيوعيين وخرج زملاؤنا من المعتقلات وعاد المد للنشاط الوطنى والديمقراطى. وبرزت من جديد الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى كأهم وأقوى تنظيم. والملاحظ أنه فى فترات الجزر وانكماش النشاط كانت تتساوى تقريبا مختلف التنظيمات التى كانت تتقوقع وينحصر نشاطها فى العمل السرى. أما فى فترات المد فكانت حدتو هى دائما التى تحسن الجمع بين النشاط القانونى والنشاط السرى، وتهتم بأشكال العمل العلنى وينتشر نشاطها فى مختلف المجالات.

وعند خروج زملائنا تصاعد النشاط الوطنى للمطالبة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ والعمل الفدائى فى القناة مع بدء العمل لتكوين حركة سلام واسعة تضم مختلف الاتجاهات وظهرت

الصحف العلنية مثل الملايين والكاتب وغيرها.

ونشط العمل الجبهوى مع مختلف القوى والأحزاب والهيئات الوطنية والديمقراطية.

وكانت تصلنا الأنباء عن هذا النشاط ونحن فى سجننا فنغتبط له.

ونشط النضال للمطالبة بالافراج عن المسجونين الشيوعيين. وبمجيء حكومة الوفد نشطت أسرتى باتصالاتها لمحاولات للافراج عنى أو تحسين معاملتى داخل السجن. وذلك لعلاقات الاسرة بالوفد وبالوزراء الوفديين. ولكنها نجحت فقط فى نقلى من سجن الاسكندرية إلى سجن القاهرة حيث أكون قريبا منها.

وسمح لى بالحصول على الكتب الدراسية للاستعداد للامتحان فى المواد الباقية لى للحصول على ليسانس الحقوق.

نقلت إلى سجن مصر. وكان هناك عدد من الزملاء المسجونين بعضهم ينفذ الاحكام والبعض الآخر تحت التحقيق

ولكن الحياة فى السجن كانت شديدة الصعوبة. فلا يسمح بالصحف أو الكتب ويعامل المسجونون السياسيون نفس معاملة المسجونين الآخرين إن لم يكن أسوأ.

قدمنا طلبات بتحسين المعاملة سواء بالسماح بالصحف والكتب أو تحسين الغذاء والسماح بأسرة أو مراتب الخ.

وأخذنا نعد لاضراب عن الطعام إن لم يستجب لمطالبنا.

وفى فترة الإعداد وكنت أسكن فى عنبر كبير للمحكوم عليهم من الشيوعيين. دخلت فرقة من السجانين للتفتيش فوجدوا عند أحد زملائنا موسى (بشلة) وعقلة لاشعال السجائر. وكانت عقوبة الموسى تصل إلى الجلد. واتفق على أن أقول انها تخصنى أملا فى تخفيف العقوبة أو الغائها، وقد كانت تخص أحد زملائنا العمال (محمد حسن جاد) الذى سبق أن عوقب عدة مرات وخشينا أن يجلد هذه المرة.

عوقبت بإيداعى فى التأديب. وهو سجن انفرادى معزول فى مكان لا أستطيع الاتصال منه بزملائى. ولايسمح فيه بالطابور اليومى. مع قيود أخرى بالنسبة للحركة والغذاء.

وأثناء وجودى فى التأديب بلغنى أن زملائي بدأوا الاضراب عن الطعام. فأبلغت ادارة السجن أننى مضرب ونقلت إلى غرفة انفرادية بالعنبر الذى يوجد فيه زملائي. بعد حوالى اسبوعين من الاضراب ازداد هزالى بدرجة أثارت ذعر طبيب السجن الذى أمر بنقلى إلى مستشفى السجن ونقل معى الدكتور شريف حتاتة ومسجون آخر يسمى يعقوب بطمنيان كان يعانى من متاعب فى صدره.استمر الاضراب ٢١ يوما وبرزت عظام صدرى ووجهى وانتشرت

فى صدرى بقع سوداء لم أفهم مصدرها ونقلت مع شريف حتاته ويعقوب بطمنيان إلى مستشفى قصر العينى. وأبلغنا هناك بانتهاء الاضراب دون أن يحقق أى من المطالب باستثناء بعض الوعود بتحسين المعاملة. وان كان لهذا الاضراب دوره بعد ذلك فى تحسين المعاملة للمسجونين السياسيين.

ولاشك أن علاقاتنا الأسرية لعبت دورا أيضا فى نقلنا إلى مستشفى قصر العينى.

بدأت معالجتى فى قصر العينى. وأجروا لى مختلف الفحوص وكان الطبيب الذى يشرف على علاجى زميلا لى فى مدرسة الابراهيمية الثانوية وكان يداعبنى ويسمينى «غاندى» بسبب شدة نحافتى.

وعندما خلعت ملابسى بعد الاضراب فوجئت ببروز عظامى. وعند الحلاقة كنت أحس بأن موسى الحلاقة يلامس عظام وجهى. فضلا عن البقع السوداء التى ملأت صدري وظهرى. ولم يقدم الطبيب لها تفسيرا ولكنها اختفت بعد أن عدت لتناول طعامى وبعض المقويات وكان وزنى قبل الاضراب حوالى ٥٠ كيلو جراما فأصبح ٤٤.

وبعد أن تحسنت حالتى نقلت إلى عنبر آخر. كان شريف حتاتة يشغل حجرة مستقلة فى نهايته. وقد حصل على هذا الامتياز باعتباره طبيبا أما أنا فكنت فى عنبر به حوالى ١٥ معتقلا من الاخوان المسلمين. كان الطعام أكثر من متوفر، ففضلا عن الغذاء الذى كان يقدمه المستشفى وهو أفضل كثيرا بالطبع من غذاء السجن، سمح لنا باستلام الغذاء من المنزل. وكان منزلى قريبا من قصر العينى. فأصبح فى امكاننا أن نأكل ماتريد ونقدم جزءا من الطعام المنزلى إلى الحرس.

وأصبح الاتصال بالأسرة وزملائنا سهلا فى المستشفى، وقد فزعت أسرتى عندما رأتنى أول مرة بعد الاضراب مباشرة. وكانوا يحملوننى على نقالة إلى عنبر الاستقبال.

تحسنت حالتى سريعا. وكنت معتادا أن أزور زميلى شريف حتاتة الذى كانت غرفته تقع فى نهاية العنبر ولها شرفة خاصة وكان شريف أيضا يستلم من منزله كل مالذ وطاب.

وفى المستشفى خلعنا ملابس السجن ولبسنا ملابسنا العادية وأصبحنا فى خلال اليوم نرتدى القميص والبنطلون. كان يحرس عنبرنا صول ويخصص لى مثل كل معتقل اثنين من الجنود. وكان يحرس شريف أحد الضباط واثنان من الجنود.

وحصل شريف من عائلته على جهاز راديو وضعه فى حجرته.

واعتدت أن أزور شريف فى حجرته وأصبح هذا الأمر عاديا. فالجميع يعرفون أننا زملاء وأننا شيوعيون. فمن الطبيعى أن أمضى أغلب وقتى معه وليس فى عنبر الاخوان المسلمين. وكانت تأتينا زيارات. واستطعنا الاتصال بزملائنا فى حدتو. وبحثنا معهم موضوع الهرب. وكان

كمال عبد الحليم يتولى تنظيم هذه العملية معنا دون أن يزورنا. أما شريف فقد رتب ذلك مع أسرته. ورتب لى كمال العنوان الذى أذهب اليه بعد هربى. وأعطانى عنوانا وآخر احتياطا، ورتبنا عملية الهرب مع أحد أطباء الأسنان الذى كان يتردد على شريف. وكان حرسنا قد أصبح يثق فينا ثقة كاملة.

وحل شهر رمضان. واعتاد الجميع أن يرونى وقت الافطار أذهب إلى حجرة شريف لتناول الافطار معه. وكنا نفتح الراديو وقت الافطار لنسمع الأذان.

كنا نعطى طعاما لحرسنا من الجنود الذين يهجمون عليه فى الشرفة الملحقة بحجرة شريف عند مدفع الإفطار وهم أربعة جنود اثنان يحرسانى واثنان يحرسان شريف اما الصول فكان يظل فى العنبر حيث باقى المعتقلين من الاخوان.

اما الضابط المسئول عن حراسة شريف فلم يكن صائما فكان يخجل من البقاء فى الحجرة، فينتقل إلى الحجرة المجاورة. ما أن ينطلق مدفع الافطار حتى يذهب اليه شريف بكوب من قمر الدين ويعود إلى حجرته ثانية مغلقا الباب خلفه، ثم نتناول افطارنا.

ورتبنا الامور بدقة فاتفقنا مع طبيب الأسنان الذى لأذكر اسمه الآن أن ينتظرنا عند سلم منزل الأطباء. واتفقنا ألا نذهب إلى منزل الأطباء مباشرة، بل نصعد إلى الدور الأعلى ونسير فى صالة طويلة تؤدى إليه وذلك للتضليل.

وفى اليوم المتفق عليه لبسنا ملابسنا كالعادة، وكان أمرا قد اعتاده الجميع. وعندما انطلق مدفع الافطار فتح شريف باب حجرته وذهب إلى الضابط بكوب من قمر الدين وخرجت وراءه وأغلقت الباب ومشيت حتى السلم وصعدت إلى الدور العلوى ومشيت فى الممر الطويل حتى بيت الأطباء ونزلت من السلالم حتى السيارة وتبعنى شريف.

خرجت بنا السيارة مسرعة وأنزلتنى عند شارع قصر العينى حيث ناديت على تاكسى وذهبت إلى مصر الجديدة إلى العنوان المتفق عليه، وصعدت ووضعت يدى على الجرس عدة مرات فلم يرد أحد. فعرفت انه لايوجد أحد بالمنزل. وكان منزل أحد السودانيين يعمل بالصحافة ويسمى جيلى. فنزلت وأخذت تاكسى آخر إلى شبرا إلى العنوان الاحتياطى وطرقت الباب ففتحته زوجة صلاح حافظ. ولم يكن قد عاد بعد . ولكنها ادخلتنى. وانتظرت إلى حين حضوره. وكان صلاح حافظ وقتها فى السنة النهائية بكلية الطب. وهو لم ينه دراسته ولكنه عمل بالصحافة التى نبغ فيها بعد ذلك وكانت هى أول معرفة لى بصلاح حافظ وزوجته السابقة. وجرى الاتصال بكمال عبد الحليم الذى هنأنى بالهرب وتولى تنظيم عملية اختفائى.

بقيت عدة أيام عند صلاح حافظ ثم انتقلت للسكن عند جيلى.

ولمدة سبعة شهور بقيت أنتقل من منزل إلى منزل، وكانت أطول مدة قضيتها فى مكان

واحد هى شهر. ولم أكن أخرج إلى الشارع على الإطلاق.

وفى اليوم التالى قرأت فى الصحف أخبار هروبنا وعرفت منها أن حراسنا ظلوا ينتظروننا ويثقون فى عودتنا لمدة أكثر من ساعة إلى أن يئسوا فأبلغوا عن هربنا. وقرأنا عن أن البوليس أعطى تعليمات للموانئ والمطارات للقبض علينا.

ونشرت الصحف صورة شريف ولكنها لم تجد صورة لى ومن الطريف أن البوليس ذهب إلى منزلنا للبحث عنى. وسألوا إخوتى عنى فقالوا لهم أنى فى مستشفى قصر العينى فأخبروهم أننى هربت. فأصابهم فزع شديد وطلبوا منهم صورة لى فذهب أخى واحضر لهم صورة لى وأنا فى الرابعة من عمرى وقال أنه لا توجد لى صورة أخرى فرفضوا أخذها طبعا. وانتاب اهلى القلق إلى أن استطاعوا بعد ذلك معرفة أخبارى بعد أن دبر زملاؤنا الاتصال بهم.

كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى. وقد خرجت من السجن متطلعا للحياة بكل معنى الحياة. سواء حياة النضال أو حياة شاب فى مثل عمرى يريد أن يعيش ويحب ويتزوج ويعيش مثل بقية الشباب. وكان خروجى من السجن والهرب منه يعكس أيضا تعلقى أن أعيش حرا، أفعل ما أريد. ولكننى فوجئت بحياة أخرى قاسية جدا، فليس فى استطاعتى أن أمارس شوقى إلى مواصلة نضالى لاعتبارات الأمن التى تفرض على أن أظل مختفيا وأن أقلل اتصالاتى وتحركاتى، وأنفذ بدقة التعليمات التنظيمية بهذا الخصوص. ولا أستطيع أن أعيش حياتى كشاب فى مقتبل شبابه، فاتصالاتى محدودة ويجب ألا يعرف أحد بمكان وجودى لأن البوليس يبحث عنى ويطاردنى. لم أكن استطيع الخروج إلى الشارع إلا عندما أنتقل من مخبأ إلى آخر. تنقلت بين اثنى عشر منزلا. وحدثت نوادر وطرائف أثناء اختفائى. فقد كان يوسف ادريس واحدا ممن اختفيت عندهم وكان يقطن هو وشقيقه فى حجرة بالجيزة لم يكن بها غير سرير وكنبة ومكتب. أما السرير فكنت أنام عليه أنا ويوسف إدريس أما الكنبة فكان ينام عليها شقيقه. كان يوسف ادريس يدرس فى السنة النهائية بكلية الطب. وفى أحد الأيام شعرت بآلام شديدة فى أذنى ولم يكن في وسع يوسف إدريس أن يعرضنى على طبيب. فذهب إلى أستاذه فى الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب ووصف له الأعراض التى أعانى منها فوصف له الدواء الذى أحضره لى وعالجنى واختفت الآلام.

وكنت كلما ألقى يوسف ادريس بعد ذلك يذكرنى بتلك الواقعة.

وفى فترة تولى احمد طه عملية اخفائى. رتب سكنى عند أحد الأشخاص وزوجته فى الساحل وكانا يشفقان عليّ. رتبا أن أتنكر فى زى سيدة تلبس الملابس البلدية وخرجت معهما وذهبنا إلى احدى دور السينما. وبقيت فترة في هذا المنزل. كان الرجل وزوجتة متعاطفين معى ويحاولان تسهيل مدة اختفائى إلا أنه بعد فترة بدأت الغيرة تنتاب الرجل من بقائى فى المنزل مع زوجته عند خروجه، فأخبرت أحمد طه الذى رتب لى أن أنتقل إلى مكان آخر.

وقد تأثر الرجل وزوجته عندما نقلنى أحمد طه عند أحد معارفه فى مصر الجديدة. وكان يسكن بمفرده. وأخبرنى أنه كان مصابا بالسرطان. كان أعزبا، وكان يكثر التردد عليه بعض الاصدقاء وبعض المومسات وكان أحيانا يترك احدى المومسات تنام معى فى حجرتى. ولكننى لم استطع أبدا التجاوب معها.

وكان هذا الشخص الذى أقطن معه غريب الأطوار. وكانت له حياة وعلاقات غريبة. ولكنه كان يحترمنى ويحترم عاداتى وظروفى وقد استفدت فى هذه الفترة أننى بدأت أتعلم اعداد الطعام بنفسى وهو أمر لم أكن أعرفه من قبل.

انتقلت أيضا للسكن مع صلاح القلش وتعرفت به وبأخيه كمال القلش. وكان كمال صغير السن فى هذه الفترة ودارت بينى وبينه مناقشات سياسية كثيرة. وكان صلاح أعزب وعلى علاقة حب بإحدى الفنانات، وأذكر فى أحد الأيام وكان ينتظر زيارة منها. فقام بتنظيف المنزل وأعجبت به كثيرا، وهو يمسك «الخيشة» بنفسه ويقوم بتنظيف الشقة بكفاءة شديدة. وأذكر فى هذه الفترة أن صلاح طلب منى أن أكتب محاضرات مبسطة للتعريف بالاشتراكية. فقمت بكتابتها وفوجئت بعد ذلك أنها سلمت للمنظمة وطبعت فى شكل كورس للتجنيد فسررت أننى استطعت أن أقوم بعمل مفيد.

وانتقلت فترة للسكن مع احمد حمروش وكان ضابطا فى الجيش، وكان مهتما بالكتابة، وكان يعرض عليّ كثيرا مما يكتبه ليأخذ رأيى فيه.

وعشت عدة أيام فى بولاق فى حجرة فوق السطوح مع أحد النوبيين. وكانت حجرة فقيرة ليس بها غير سرير وكنبة. ولم يكن بها حمام. غير طشت نقوم بالاستحمام فيه. وكان يذهب إلى عمله فى الصباح. وكنت أبقى فى الحجرة بمفردى ففوجئت بإحدى الفتيات فى منزل مجاور تحاول التحدث معى بالإشارات. ثم فوجئت بها فى احدى الامسيات تأتى وتطرق الباب وتدخل وتجلس معى، وجاء فى هذا الوقت فؤاد حبشى ووجدنا معا. وبدأ يناوشها ولكنه قرر ضرورة نقلى من ذلك المكان.

وانتقلت إلى منزل فى مصر القديمة لأحد الأرمن. كان يقطن هناك مع أمه واخته وكان كمال عبد الحليم يزورنى أحيانا فى هذا المنزل. وبدأ يطلب منى الاستماع إلى أخبار الاذاعات الأجنبية، واذاعة موسكو بالذات. وأن اكتب الأخبار المهمة لنشرها فى جريدة «الملايين» التى بدأت فى الصدور. سررت انى أصبحت أؤدى عملا مفيدا وإن كان لم يشبع كل رغباتى فى الحركة والاتصالات والعمل النضالى الذى كنت معتادا عليه. وعرفت هناك معلومات عن نشاط حركة السلام ونشاط الصحافة اليسارية فكنت أتحرق شوقا للمشاركة فى العمل ولكننى لا أستطيع بسبب اختفائى وظروفى الأمنية.

ظللت فى منزل هذا الأرمنى حوالى شهر وتكونت بينى وبين أسرته روابط ألفة وود.

وكان أغلب الوقت أمضيه مع أخت مضيفى الأرمنية. وكنت شابا محروما من أى علاقات نسائية بعد فترة السجن وبدأت تعتمل فى وجدانى بعض العواطف تجاه الفتاة. ولم أتصور أن تكون لى علاقات بالفتاة غير علاقات الزواج. وبعد تردد طويل وبدون أى مقدمات فاجأتها بعرض للزواج.

وقد فوجئت بهذا العرض ولم تكن تعرف عنى أى شيء إلا أننى هارب من السجن. فرفضت بالطبع وقالت لى مامعناه أن من يعيشون مثل حياتى لا يجب أن يتزوجوا. كان عرضا رومانسيا من فتى رومانسى معزول تماما عن الحياة والحسابات الواقعية.

ويبدو أن الفتاة أخبرت أخاها بهذا العرض. ففى اليوم التالى اخبرنى أخوها أنه أحس ببعض المراقبات من جانب البوليس. واخبر كمال بذلك الذى رتب نقلى.

وفى عشية انتقالى تناولت مع الاسرة طعام العشاء المعتاد والذى كان يتكون من الجبن والزيتون والشاى. وقد لاحظت تأثر الأم وابنتها وقد سالت الدموع من عيونهما. وقالتا لى أنهما اعتادا على وجودى وسيكون الفراق صعبا.

وقد كانت الأسرة تعد للسفر إلى أرمينيا السوفيتية مثل كثير من الأرمن الذين هاجروا. وكانوا يتوقون إلى هذا اليوم. ولكنهم لم يسافروا، بل علمت بعد ذلك أن الأخ قد اعتقل عام ١٩٥٣ بعد قيام الثورة فى احدى القضايا الشيوعية، وانه قدم اعترافا كاملا.

وقبل الانتقال إلى مخبئى الأخير رتب لى لقاء مع اخوتى فى منزل كان أخى قد استأجره فى الجيزة. وكان لقاء عاطفيا إذ لم أكن قد رأيتهم منذ مدة طويلة. ولاحظت أن أخى صلاح قد كبر أما أخى حسن فكان قد ترك تقريبا العمل الحزبى، وكان ارتباطى بأختى سعاد هو الأقوى، وقد استمر هذا الارتباط، فقد كانت هى الأكثر حرصا على الحفاظ على الروابط العائلية خصوصا بعد أن تفرقت بنا السبل. وقد كانت أيضا تتعاطف معى فكريا وكانت تتفهم أكثر الطريق الذى اخترته. والحقيقة أن السجن والاضراب وظروفى الصحية بعد الاضراب قربت كثيرا بينى وبين أخوتى وأسرتى، وأصبحوا ينظرون إلى الطريق الذى اخترته باحترام وتفهم بعد كل الخلافات السابقة. وأصبحوا ينظرون إلى اختيارى على أنه أمر واقع يجب أن يتقبلوه وأن يساعدونى فى التغلب على المصاعب التى ألاقيها، سواء وافقوا على أفكارى واتجاهاتى أم لم يوافقوا. ولم يتغير هذا الموقف طوال حياتى بعد ذلك، بل ازداد عمقا. وقد تجسد ذلك فى علاقتى بأخى أحمد، فرغم أن اتجاهات كل منا اختلفت فقد استمرت علاقاتنا جيدة تقوم على الحب والاحترام فى كل الظروف.

انتقلت إلى مخبئي الأخير فى الزمالك فى منزل أحد الضباط الأحرار وهو عثمان فوزى وزوجته ديدار، وكانت لهما طفلتان صغيرتان لم تتجاوزا الخامسة أو السادسة من عمرهما. وقد اعتنيا بى عناية كبيرة سواء من حيث الراحة أو الغذاء. وكان مستوى المعيشة أفضل كثيرا مما

عشته فى المخابئ الأخرى، ولكننى فى هذه الفترة من حياتى كانت متطلباتى قلّيلة جدا. ولم اكن أشعر بأى ضيق من أى وضع أعيش فيه. وكانت الحياة الجديدة تمثل ترفا بالنسبة لى. وكنت أشعر بالحرج من هذه العناية المبالغ فيها.

***

كان تكوينى وشخصيتى تغلب عليهما الرغبة فى القيام بالأعمال العملية أكثر من الدراسة والبحث. فكانت حياة الاجتماعات والاتصالات والتجنيد تستهوينى وتجتذبنى من الناحية المعنوية وترضينى أكثر من الجلوس مددا طويلة للقيام ببحث أو كتابة مقال أو ترجمة كتاب. وقد يكون لتربيتنا الأولى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى أثر على ذلك. فقد كان دافعى الداخلى هو تقديم كل شيء والتضحية بكل شيء من أجل العمل النضالى. احتياجاتى الشخصية هى أقل شئ عندى، وهى فى المرتبة الثانوية. ولم تكن لى احتياجات شخصية كثيرة. كل ما كنت أحتاج إليه هو أن آكل لأعيش وأنام وأسكن وأقوم بمواصلاتى وألبس فى أقل الحدود. كانت أوضاعى الأسرية تسمح لى بحياة أفضل، لكن المتطلبات المعيشية الأخرى لم تكن تستهوينى. طبعا كانت لى كأى شاب احتياجات جنسية وعواطف تجاه الجنس الآخر ولكننى لم أكن أبذل أى جهد لتحقيق ذلك بطريقة طبيعية. وكان تكوينى الأسرى الشخصي وانشغالاتى النضالية تجعلنى لا أولى هذا الموضع الاهتمام الأول، رغم أنه كان يشغل بالى. وقد أعجبت بفتيات كنت أخجل من اقامة علاقات معهن. وكنت ألجأ فى النهاية إلى العروض المباشرة بالزواج دون مقدمات. وقد اعجبت فى دار الابحاث العلمية بفتاة من سنى كانت تدرس فى كلية الآداب وفكرت فى التقدم للزواج منها ولكن خجلى كان يمنعنى. وذات مرة ودون مقدمات عرضت الزواج على لطيفة الزيات ولم أعرضه بشكل مباشر ولكن عن طريق أحد أصدقائي فقالت بلطف أنها مرتبطة. ثم عرض على حمدى عبد الجواد فى مرة أخرى أن يزوجنى بفتاة فلاحة من ميت يعيش وذهبت معه إلى القرية وقابلنا الفتاة وأهلها. وكانوا فى غاية الفرح، ولكنها لم تعجبنى شكلا. ولم يهمنى فى ذلك الوقت كونها فلاحة أو أنها فى غير مستواى من الناحية الاجتماعية أو الثقافية.

وقد أثرت على كثيرا الحياة السرية وحياة الاختفاء فقوت فيّ الاتجاه الانطوائى. والابتعاد عن الظهور. ومن ناحية أخرى كان لتوجه حدتو العملى والنضالى تأثير عليّ، وأصبحت أهمل إلى حد كبير العمل الفكرى والثقافى الذى يحتاج إلى جهد مكتبى كبير ويبدو أن بعض الاتجاهات التى تعتبر المثقفين بورجوازيين، وتعطى الأفضلية للعمال أو البروليتاريا، وهو الأمر الذى كان شائعا فى توجهات بعض الحركات الشيوعية فى العالم وفى بعض ممارسات البلاد

«الاشتراكية» ، كان له تأثير أيضا على تكويني.

ولولا ذلك لكان في امكاني أن أستفيد من فترة الاختفاء في الاطلاع والبحث والكتابة ولكان في ذلك اشباع معنوي لي، ولكن ذلك لم يتم إلا بشكل ضئيل، فقد قمت بترجمة بعض أعمال ماوتسي تونغ وغيرها، وكنت أكتب الأخبار الهامة التي تبثها الاذاعات الأجنبية لجريدة «الملايين» وقرأت بعض الكتب. ولكني مع ذلك كنت أحس أنني بعيد ومنعزل عن «الكفاح» الحقيقي. وكان ذلك يؤثر على معنوياتي، فكانت هذه الحياة تختلف عن الحياة المليئة بالعمل والسفر والاتصالات ومواجهة المخاطر التي كنت أعيشها قبل اعتقالي.

***

(١)

النشـــــأة

ولدت فى مدينة زفتى على حدود محافظة الغربية (مديرية الغربية كما كانت تسمى وقتها) مع الدقهلية. ويفصلها كوبرى عن مدينة ميت غمر التى تنتمى إلى الدقهلية. هذا الكوبرى يقطع على الأقدام فى دقائق. لهذا كان سكان زفتى وميت غمر على اتصال وثيق، وكأنهم مدينة واحدة والنيل يفصل بينهما. ويمكن لسكان زفتى أن يصلوا إلى ميت غمر إما للتنزه على الكوبرى أو «بالمعدية»، أو فى زورق. ولهذا اعتاد الناس أن يربطوا زفتى بميت غمر وميت غمر بزفتى. ويتندر سكان المدينتين ويقولون: «ما أزفت من زفتى إلا ميت غمر».

وأنا لا أذكر شيئا عن حياتى الأولى فى زفتى فقد انتقلت الأسرة إلى القاهرة بعد ولادتى بقليل. ولكننا كثيرا ما كنا نزور زفتى بعد ذلك فى طفولتى. وأذكر منزلنا الذى كان يقع فى ميدان فى مواجهة محطة السكة الحديد. وكان المنزل يحيط به سور عالٍ ويتكون من منزلين أحدهما كانت تقيم به جدتى (أم أبى)، وفى الثانى يقيم عمى عبد العزيز مع زوجته وأولاده. وكان طبيبا له ولدان وبنت أما الولد الأكبر «ممدوح» فقد أصبح طبيبا وارتبط بحركة اليسار. وتوفى صغيرا مثل أبيه، وهو فى الأربعينيات من عمره مخلفا زوجة وطفلاً. وقد كان إنسانا ذا خلق عظيم، يخدم الناس ويساعدهم فأحبه الجميع.

أما الولد الأصغر «أحمد» فقد أصبح مهندسا. أما الابنة فهى الآن جدة. وقد تزوجت من مهندس ضابط توفى وترك لها ابنتين تزوجتا أيضا. وهو ابن عم الرئيس حسنى مبارك. ويدعى عادل مبارك، وأمضى هو وزوجته فترة تدريب فى تشيكوسلوفاكيا، وقد أعجبا كثيرا بهذا البلد.

وكان المبنى الثالث يستخدم مكتبا لعمى عوض. وكانت أسرتنا معروفة فى زفتى، وميت غمر، بسبب الدور الذى لعبه والدى «يوسف الجندى» فى زفتى أثناء ثورة ١٩١٩. وكان وقتها

(٧)

السفر للخارج

قام زملائى فى حدتو بالإعداد لسفرى إلى الخارج. وقد أشرف كمال عبد الحليم أيضا على هذه العملية. ودبر لى لقاء مع كورييل قبل السفر الذى نصحنى بالاهتمام فى الخارج بدراسة اللغة الروسية وقال أنه لايوجد لدينا من يعرف هذه اللغة رغم أهميتها.

سافرت مع عثمان فوزى بسيارته إلى بورسعيد وعشت فى شقة أحد الزملاء ثم انتقلت إلى كابينة على البحر وجاء كمال للقائي وكان قد تم الاتفاق مع اثنين من البامبوطية بأن أصعد إلى إحدى البواخر الفرنسية اتفقا فيها مع اثنين من بحارتها الفرنسيين مقابل مبلغ من المال. وفى اليوم المحدد صعدت إلى الباخرة مع ثلاثة آخرين، اثنين من البامبوطية فضلا عن كمال وأعطى البامبوطى زجاجة من العطور إلى الضابط الذى كان يقف على سلم الصعود وسلمونى إلى أحد البحارة الفرنسيين الذى قام بإنزالى إلى قاع المركب. الثلاثة الآخرون غادروا المركب. كان قاع المركب مكانا مظلما مضاء بلمبة كهربائية ومليئا بقماش تندات. وكان القاع يقع تحت المكان الذى يسكن فيه البحارة وكان يتم النزول إليه بسلم صغير يغلق بعد نزولى بحيث يصبح السقف فى مستوى الأرض. لم يكن معى أى حقائب. وكنت ألبس عدة ملابس فوق بعضها. واتفق معى البحار الفرنسى بألا أخرج من هذا المكان لمدة خمسة أيام حتى تتحرك المركب من الاسكندرية. وكان خط سير المركب هو بورسعيد – بيروت – حيفا – الاسكندرية ثم ايطاليا – مرسيليا. وكان على أن أبقى طوال المدة حتى مغادرة الاسكندرية فى قاع المركب. وبعد ذلك يمكن مغادرتها للتجول يوميا نصف ساعة على سطح المركب. وكان يأتينى بطعام فاخر. وكان عندما ينزل إلى يقول لى Avec la passience on arrivera (مع الصبر نحقق الهدف).

مكثت فى قاع المركب تنتابنى الافكار المختلفة والقلق من أن ينكشف أمرى. وقامت

المركب ووصلنا إلى بيروت. ثم ذهبنا إلى حيفا ثم الاسكندرية. وأمضت المركب يوما كاملا فى الاسكندرية كنت أثناءها فى غاية القلق أن ينكشف أمرى. ومكثت فى قاع المركب أعد الثوانى والدقائق إلى أن بدأت أسمع أصوات المحركات. ثم بدأت ارتاح عندما أخذت المركب تهتز ثم سارت أخيرا، وأحسست كأن عبئا ثقيلا قد انزاح من على صدرى. وأصبحت فترات نزهتى على سطح المركب تطول قليلا. وكان ذقنى قد طال وقررت أخيرا أن أذهب إلى الحلاق ليحلق ذقنى. وفى أحد الأيام كان البحر هائجا والموج يتصاعد فوجدتهم يذيعون على الركاب أن يأخذ كل راكب طوق النجاة الخاص به وفقا لتعليمات الأمان على المركب. وأخذ قبطان المركب يجرى هنا وهناك، وكلما رأى راكبا بدون طوق النجاة يصيح فيه أن يحصل على طوق النجاة. وكان لكل راكب طوق نجاة تحت تصرفه. أما أنا فلم أكن مسجلا على المركب فلم يكن لى طوق نجاة. وأخذت أبحث عن البحار المسئول عنى. وكان هو أيضا يبحث عنى إلى أن وجدنى أخيرا وأسرع بى إلى مخبئى

مكثنا فى البحر حوالى اثنى عشر يوما واقتربنا من مرسيليا. وقال لى البحار أنه عندما تتوقف المركب فى مرسيليا سأبقى فى مكانى عدة ساعات إلى أن يخرج جميع الركاب، وسأخرج معه وإذا سألنى أحد فأنا ابن عمه.. وكانت جوازات السفر تجمع من جميع الركاب وتختم ويخرجون بعد ذلك تباعا. ولم يكن معى جواز سفر أو أى أوراق. ولهذا قرر البحار أن أخرج معه بعد فترة من خروج كل الركاب.

وعندما حان وقت خروجنا دعانى البحار. كنت ألبس ملابسى كلها فوق بعضها من غير معطف. وكان معى قفاز من الجلد أعجب به البحار واستولى عليه.

نزلت سلم الباخرة مع البحار وهو يوزع تحياته يمينا ويسارا. ولم يستوقفني أحد. وركبنا سيارة تاكسى. وعند الجمرك استوقفونا. وظهر أن البحار لايهربنى وحدى وإنما يهرب سجائر أيضا. ولكنه حل المشكلة بأن أعطى موظف الجمرك علبة من السجائر وتركنا نمضى. وكانت هذه أول تجربة لى فى فرنسا. وأدهشنى أن تكون الرشوة بهذا السفور فى هذا البلد المتقدم.

أوصلنا التاكسى إلى منزل البحار ثم توجهت إلى محطة السكة الحديد. وهناك اشتريت تذكرة إلى باريس.

كان ذلك فى الصباح الباكر. كان معى فى مقصورة القطار رجل فى حوالى الأربعين من عمره وامرأة ممتلئة مقاربة فى السن. وكان الرجل معى على ظهر المركب وتذكرت وجهه وتذكرنى هو أيضا. ولكننا لم نتحادث. وبدأ حديث طويل بين السيدة والرجل طوال الرحلة. كانت تتخلله أسئلة يطرحونها عليّ. كنت أجيب عنها إجابات مقتضبة فتسألنى السيدة:

– هل أنت ذاهب إلى باريس ؟

– نعم.

– للدراسة؟

– نعم.

– أليست معك أى حقائب؟

فيجيب الرجل عني: لاضروة للحقائب، ثم يقول لى: هناك فى باريس فتيات جميلات ملمحا إلى التجارب مع المصريين والعرب هناك الذين يهتمون بلقاء الفتيات قبل الدراسة وقبل كل شيء.

وتسأل السيدة الرجل إن كان متزوجا فيجيب لا. ما الداعى للزواج ليست عندى أى مشكلة فى العلاقات مع النساء.

ثم يحكى عن اقامته فى مصر مستنكرا كيف أن الناس اعتادوا أن يبصقوا ويتمخطوا على الأرض فى الشوارع.

ثم سألنى: هل عندكم فى مصر مترو؟ قلت: نعم وأنا أعنى مترو مصر الجديدة فضحك وقال: هذا ليس مترو. عندما تذهب إلى باريس ستعرف المترو.

استنكرت فى نفسى لهجته المتعالية، وأن يتحدث عن المصريين بهذه الروح.

ولكن الذى كان يهمنى هو ألا يكشفوا شيئا عن حقيقة مجيئى إلى فرنسا وعن ظروفى.

وصل القطار إلى باريس فى المساء. وكان زملائى قد أعطونى عنوانا بجوار المحطة التى وصل إليها القطار وهى محطة ليون.

ذهبت إلى العنوان المحدد وكان لعائلة مصرية الأصل طردت من مصر عام ١٩٤٨ مع غيرها من اليهود. وكان بعضهم حاصلا على الجنسية المصرية وكانوا يخيرون بين التنازل عن جنسيتهم أو البقاء فى المعتقل. وقد اختار بعضهم الذهاب إلى فرنسا واستمر ارتباطهم بمصر وحبهم لها. وهناك آخرون هاجروا إلى اسرائيل من مصر وغيرها من البلاد العربية. وفى احصائية لوزارة الداخلية السوفيتية فى الثمانينيات أثناء الهجوم فى الاعلام العربى على هجرة السوفييت إلى إسرائيل جاء فيها أن عدد من هاجروا من البلاد العربية إلى اسرائيل بعد ١٩٤٨ أكثر بكثير من عدد المهاجرين السوفييت وأغلبهم طردوا أو اجبروا على الهجرة.

أما المطرودون من المعتقلين اليهود الشيوعيين والذين ذهبوا إلى فرنسا، فأبقوا على علاقاتهم العملية والنضالية المصرية، بل إن أعضاء حدتو الذين انضموا إلى الحزب الشيوعى الفرنسى فى البداية استقالوا بعد ذلك بتوجيه من هنرى كورييل ليحافظوا على ارتباطهم العضوى بحدتو.

كنت أشعر بفرح شديد لوصولى إلى باريس. وأحسست أننى هناك يمكن، بعد فترة طويلة من السجن والهرب، أن أشعر بالحرية والانطلاق والقدرة على العمل، ولكننى كنت واهما كما تبين لي من تجربتى بعد ذلك.

لقيت شريف حتاتة الذى جاء إلى باريس قبلى بثلاثة شهور. أمضيت الليل عند الأسرة وفى اليوم الثانى التقيت بيوسف حزان وكنت أعرفه من القاهرة. وعندما رآنى وكنا فى شهر يناير، قال لى كيف أمشى من غير معطف. قلت له أننى ألبس ملابس كثيرة. قال: ولكن سيرك هكذا فى هذا الوقت غريب وشاذ فلا أحد يسير بدون معطف فى الشتاء. وقد يشتبه فيك البوليس ويقبض عليك ويسأل عن أوراقك ولم تكن معى أى أوراق. وذهب معى على الفور لشراء معطف.

رتب لى الاقامة مع أسرة يهودية أخرى، رب الأسرة اسمه عزرا هرارى. وكانت الأسرة تسكن فى حى مونبرناس وكانت تتكون من الأب والأم وطفل فى العاشرة من عمره. وكانوا قد التحقوا أيضا بعضوية الحزب الشيوعى الفرنسى.

كان شريف قد أقام اتصالا مع الحزب الشيوعى وبعد حضورى كنا نذهب معا للقاء المسئولين عن مكتب فى الحزب اسمه مكتب المستعمرات، مسئوله ليون فاكس وكان عضوا فى المكتب السياسى. وكان يساعده شخص اسمه ايلى منيون. وكانت حدتو فى ذلك الوقت أبرز التنظيمات الشيوعية فى مصر. وكان لها نشاط علنى واسع. فى الصحافة وفى حركة السلام وفى نشاط الفدائيين فى القناة. وكان لشيوعيى حدتو دور بارز فى الحركة الوطنية المصرية. وكان هناك نشاط واسع بين العمال (الجهود لتأسيس اتحاد عام للعمال) وبين الطلبة وفى الفلاحين وكان لكل نشاط جماهيرى صدى وتأثير سواء فى الداخل أو الخارج مرتبطا بشخصية من حدتو.

ولهذا فعندما ظهرت بعض النشرات التى كانت تصدرها منظمة العمال والفلاحين تهاجم حركة السلام، تصدت لها جريدة «أكسيون» لسان حال حركة السلام فى فرنسا وهاجمتها بشدة.

وفى منتصف ١٩٥٠ طرد هنرى كورييل من مصر إلى ايطاليا. التي لم تعترف به كايطالى الجنسية وظل وضعه هناك مقلقلا. فرتب فى أوائل عام ١٩٥١ للحضور إلى باريس بشكل غير شرعى. ونوقش هذا الموضوع مع مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعى الفرنسى. وكان أندريه مارتى فى هذا الوقت سكرتيرا للحزب وكان هنرى كورييل وزوجته قد استضافاه عند مروره بمصر فى طريقه إلى الجزائر وتكونت بينهم علاقة. ولهذا فإنه عندما عرف بحضور كورييل اهتم بالأمر. ورتب أن يتكفل الحزب بأمانه فى فرنسا. وأعد له منزلا فى ضواحى باريس لم يرغب كورييل فى الذهاب اليه وفضل أن يبقى فى وسط باريس. واعتبر الحزب نفسه

مسئولا عن أمانه.

وكانت هذه العلاقة بين كوربيل وأندريه مارتى سببا بعد ذلك فى حدوث أزمة بين الحزب والمجموعة ذات الأصول المصرية فى باريس، وكان لهذه الأزمة أثرها بعد ذلك على الحركة الشيوعية فى مصر التى كانت تعانى من الانقسامات والتى نجحت فى تحقيق نوع من الوحدة عام ١٩٥٥.

وكانت القضية كما يلى:

فى أواخر عام ١٩٥٢ حدثت خلافات فى قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى بين أندريه مارتى وباقى القيادة، وتطورت الخلافات بحيث اتهم مارتى بأنه يقوم بأعمال انقسامية معادية للحزب وكالعادة توالت الاتهامات ضده، والتى كانت تنشر فى جريدة الحزب «الاماونيتيه». ومن هذه الاتهامات أنه على علاقة بزوجين مصريين un couple egyptien douteux «مشكوك فيهما» وفوجيء زملاؤنا فى مصر وفوجيء كوربيل بذلك لإقحامة واستخدامه فى هذا النزاع الذى لا دخل له فيه.

وقام بعض زملائنا بالاتصال بالحزب وسؤالهم عن معنى هذا الكلام، وعن هذه الشكوك فكان الرد أن هذه مسائل داخلية، ولا دخل لكم بها.

والحقيقة أن الشيوعيين المصريين لم تكن لهم أى علاقات بالأممية الشيوعية منذ العشرينيات عندما ظهرت بعض العناصر البوليسية فى قيادة الحزب. وهذا هو السبب فى أن الحركة الشيوعية المصرية عند نشأتها الجديدة فى الأربعينيات نشأت دون أى علاقة بمركز دولى. وكانت الاحزاب تقوم بالاتصال بالشيوعيين المصريين بحذر شديد وكان صعود الحركة الوطنية في مصر الخمسينيات والدور البارز الذى لعبته حدتو وقتها هو الذى سمح إلى حد ما بكسر هذه العزلة مع الحزب الشيوعى الفرنسى. ولكن بعد قيام ثورة يوليو والدور المتميز الذى اتخذته حدتو فى تأييد الثورة واختلافها فى ذلك مع باقى الأحزاب الشيوعية خارج مصر بما فى ذلك الحزب الشيوعى الفرنسى، خلق جوا جديدا من العزلة، بحيث لم تجد قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى أى حرج فى استخدام علاقة كوربيل بأندريه مارتى فى صراعها الداخلى.

ولكن ذلك كان له أثره الكبير فى جو الانقسامات داخل مصر بحيث إنه عندما تحققت الوحدة سنة ١٩٥٥ بين حدتو وست منظمات صغيرة أخرى، اشترطت هذه المنظمات استبعاد هنرى كوربيل إلى أن يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه. وهو أمر كان من المستحيل أن يتحقق. واستمر هذا الوضع إلى أن اقتنعت قيادة الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وبعد أن

عدت إلى القاهرة من باريس وشرحت لهم تفاصيل الموضوع وخلفياته بالسماح بعودة كورييل إلى الحزب وإلى قيادته. وكان ذلك بأغلبية اللجنة المركزية فى ذلك الوقت.

***

بعد هذا الاستطراد أعود ثانية إلى عام ١٩٥١ عندما عاد كورييل إلى باريس وحينئذ وبتوجيه منه استقال الشيوعيون ذوو الأصول المصرية المقيمون فى فرنسا من الحزب الشيوعى الفرنسى وذلك بالتفاهم معه على اعتبار أنهم أعضاء فى حدتو وأن جهدهم هو من أجل مصر.

وتكونت لجنة قيادية للعمل فى الخارج بمسئولية كورييل وعضويتى أنا وشريف حتاتة. وبدأنا ننظم أعضاء حدتو فى الخارج، وندرس كل ما هو ممكن لمساعدة الداخل: الاتصال بالهيئات الديمقراطية العالمية، محاولة نقل الخبرة الخارجية إلى الداخل. استقبال الوفود القادمة من الداخل فى المؤتمرات العالمية وغيرها ومساعدتها، تنظيم إرسال العون المادى من اشتراكات وتبرعات زملائنا أعضاء حدتو فى الخارج. ترجمة بعض الكتب الماركسية وطباعتها وإرسالها للداخل.

وقد قمت فى هذه الفترة ببعض الترجمات وأحيانا كنت أكتب للملايين. أو أرسل لها الأخبار.

واستقبلنا فى باريس العديد من زملائنا عند مرورهم بباريس مثل ابراهيم عبد الحليم وحسن فؤاد وصلاح زكى وصلاح القلش وغيرهم. وكان ابراهيم عبد الحليم ذاهبا للاشتراك فى مهرجان برلين للشباب. والتقيت فى الخارج أيضا بعبد الرحمن الشرقاوى.

وكنا نهتم بمن يأتى إلى الخارج نجتمع معه ونسمع منه أخبار الداخل، وننقل له أخبار الخارج ونتناقش ونتبادل الرأى.

وبعد وصولى بقليل وخصوصا قبل قدوم كورييل، بدأت أحس بوطأة الهجرة. فبعد الفرحة فى الأيام الأولى، بدأت أحس بأننى فى سجن آخر. فكانت الحياة غريبة عنى وأنا بعيد عن النشاط فى مصر، وأحسست بالانعزال الشديد، وخصوصا أننى لم أكن أستطيع الاندماج فى الحياة الفرنسية لأنه لم تكن لدى أوراق، فكنت أعيش هناك أيضا بشكل غير شرعى.

وأحيانا كنت أشعر أن الحياة فى السجن مع زملائى كانت تحقق لى اشباعا أكثر من حياة الهجرة. وأحسست بالغربة الشديدة، أما شريف فكان أكثر تأقلما فتكوينه أوربى إلى حد ما. فوالدته انجليزية. وكان يتقن الانجليزية والفرنسية. وكان يسكن فى غرفة فى شارع فرساى،

واشترى آلة كاتبة، وكان يمضى أغلب وقته فى الكتابة. وهو يتسم بالتنظيم الشديد فى وقته وعمله. وقال أنه تعلم ذلك من والدته الانجليزية التى قال لى أنها كانت طوال وقتها فى المنزل ترتب وتنظم كل شيء.

انتقلت من عند عيزرا هرارى واستأجرت حجرة مع أسرة فرنسية بجوار متروباسى وهو أحد الأحياء الراقية فى باريس.

التحقت بالأليانس فرانسيز لتقوية لغتى الفرنسية. وحصلت من هناك على دبلوم فى اللغة الفرنسية. وتعرفت هناك على فتاة من الروس البيض. وقد تعلمت منها بعض الحروف والكلمات الروسية. وكانت هذه أولى محاولاتى لتعلم اللغة الروسية وكانت تكره الشيوعية وستالين كرها شديدا. ودارت بيننا مناقشات طويلة. وتكلمت فيها عن الاستعمار البريطانى فى مصر. فدافعت عن الاحتلال البريطانى فى مصر فاختلفت معها اختلافا شديدا. ولم نجد أى وسيلة للتفاهم.

وكان معنا فى الفصل الدراسى طلبة من مختلف الجنسيات ومن مختلف الأعمار. وكانت معنا سيدة انجليزية فى السبعين من عمرها جاءت لتدرس اللغة الفرنسية. وكانت مواظبة ومهتمة جدا بدراستها وتشغل أغلب الوقت بأسئلتها للمدرس. وكنا نتعجب أن تكون فى مثل هذه السن وتهتم هذا الاهتمام والاجتهاد بدراسة اللغة الفرنسية.

وكان المدرس يدير أحيانا مناقشات فى مواضيع مختلفة لتدريبنا على الحديث باللغة الفرنسية. وفى احدى المناقشات تحدثت عن السلام. فابتسم أحد الطلبة الأمريكيين وقال أن الحديث عن السلام هو دعاية شيوعية.

وأذكر أنه فى احدى الحصص طلب المدرس من كل منا أن يروى أسطورة باللغة الفرنسية وعندما جاء دورى لم أجد فى ذهنى شيئا أرويه الا قصة الاستعمار البريطانى لمصر. فعلت الابتسامات وجوه الحاضرين ووجه المدرس أيضا.

استطعت أن أحصل من الاليانس فرانسيز على ورقة تشهد بأننى أدرس فيه استطعت عن طريقها استخراج بطاقة لتناول الغذاء الرخيص فى مطاعم الطلبة الجامعية.

وأحيانا كنت أذهب إلى حى بيجال وأشترى سندويش من السجق وطبقا من البطاطس المحمرة وكان ثمنها ٣٠ فرنكا قديما.

كانت الشقة التى أسكن بها تقطنها معى صاحبة المنزل وابنها وابنتها. وهى شقة كبيرة من أربع حجرات. ولم أكن استخدم المطبخ فكنت أتناول وجباتى كلها فى الخارج.

وفى أحد شهور الصيف تركت العائلة باريس وتركتنى فى المنزل بمفردى. وحضر فى هذا الوقت أحد الشبان الاسرائيليين الذى كان يتردد على العائلة وأمضى الليل فى المنزل فى

حجرة الفتاة التى لم تكن موجودة. وصادف أن حضر الابن فجأة ووجد هذا الشاب الاسرائيلى فتشاجر معه لأنه أمضى الليل فى غرفة أخته وطرده من المنزل. وعتب على أن تركته يدخل المنزل. فقلت له إنه صديقكم وكان يتردد عليكم فتوقعت أن يكون قد اتفق معكم.

وعجبت أن يجد هذا الشاب الاسرائيلى فى نفسه الجرأة ليفعل ذلك. وقد حدثت هذه القصة فى وقت لم أكن التقى فيها أحد من الاسرائيليين، فمصر واسرائيل فى حالة حرب. ولم تكن تتم لقاءات مع الاسرائيليين.

وكانت ابنة صاحبة المنزل تسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتى. وكانت تقوم أحيانا بترتيب حجرتى. وكنت فى الخامسة والعشرين من عمرى.

ولم تكن لى أى علاقات نسائية، وكان من الطبيعى أن اهتم بوجود هذه الفتاة الفرنسية الجميلة. وكنا نتحادث أحيانا ودعوتها يوما إلى أحد المقاهى. وحاولت فى حديثى أن أرفع الكلفة بينى وبينها. وأخذت أخاطبها بعبارة أنت TU بدلا من أنتم Vous. وسألتنى لماذا أقولى لها Tu وكنت خجولا كالعادة. فعدت أخاطبها بـ Vous وقد حدثت هذه الدعوة فى وقت لم يكن أمها أو أخوها فى المنزل. وكانت أحيانا تدخل عليّ فى حجرتى وأنا أكتب أو أقرأ وتتحدث معى وتعبث فى شعرى.

وفى فترة لاحظت اختفاءها، وسألت عنها امها التى أخذت تتحدث عنها باستياء وقالت لى أنها فى إحدى المصحات تعالج من مرض عصبى. ولم أرها بعد ذلك.

عرض على اصدقاؤنا أن أوفر أجرة إقامتى فى هذه الشقة وانتقل إلى أسرة موستاكى التى كانت تعيش فى «منيلمونتان». وهو حى شعبى فى باريس وكانت الاسرة تتكون من زوجين يتشاجران كثيرا لأسباب تافهة. وعرفت بعد ذلك أنهما انفصلا وأن موستاكى الزوج تزوج بعد ذلك بفتاة صغيرة تصغره بأعوام كثيرة.

ولم تكن مشاجرات الزوجين تمنعهما من أن يكونا معى شديدى اللطف وأن يقدما لى كل العناية والرعاية أثناء إقامتى معهما.

عندما أخطرت صاحبة الشقة فى «باسى» بأننى سأترك الاقامة معها بدا عليها الغضب، إذ كانت الأجرة التى ادفعها تدر عليها دخلا ثابتا، وتغيرت لهجتها معى وقالت على أن أدفع لها أجرة شهر اضافى لأننى لم أنذر قبلها بوقت كاف. قلت لها إننى سأسكن مع أقاربى.

إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية كانت الاعتبارات الأمنية هى السبب الأساسى الذى دفعنى لترك هذه الشقة. فقد كنا نخشى أن ينكشف أمرى، ولهذا فضلنا أن أسكن عند الزملاء فى باريس. كانت اسرتى تتصل بى من وقت لآخر عن طريق الاصدقاء الذين يسافرون أحيانا.

وكان أخى أحمد قد بدأ يشتغل بالأعمال التجارية وفتح مكتبا لذلك. وقد شارك شخصا

يدعى سعد العجيزى ثم اختلفا بعد ذلك وانفصلا. وفى فترة عملهما المشترك حضر سعد العجيزى إلى باريس واتصل بى ودعانى إلى «الفولى بيرجير» فى حى بيجال.

كنت أتردد أحيانا على حى بيجال وأشاهد المومسات يتسكعن فى شوارعها يدعون المارين «لممارسة الحب» كما يسمينه، وتبدأ المساومة على السعر. وأحيانا كنت أتلقى بعض الدعوات. وقد قمت بتجربة مثل هذا الحب. وكانت من تجاربى الأولى.

وذهبت إحدى المرات لمشاهدة عروض لممارسة الجنس. وكان فى العادة بين امرأتين. ولم أجد فى ذلك أى متعة أو إثارة ولكننى ذهبت من باب الفضول.

أما «الفولى بيرجير» فكنت أرى فى العادة صور النساء العاريات على واجهته ، ولكن لم تكن مواردى المالية تسمح لى بدخوله لارتفاع سعره. ولكن دعوة سعد العجيزى سمحت لى بمشاهدة رقصات النساء ذوات الصدور العارية، ومختلف العروض الأخرى المتميزة. وكان هناك عرض فكاهي تؤديه امرأة طويلة ورجل قصير صغير الحجم يرقصان معا، وتحمل المرأة الرجل، وتلعب به ألعابا مختلفة، وفى نهاية العرض تمسكه من يديه وتدور به فيرتفع فى الهواء كأنه طفل. كان عرضا غريبا ومضحكا فى نفس الوقت.

وحضر أحمد ذات مرة، ونزل فى أحد الفنادق الفاخرة، وكان يبحث عن سكرتيره تساعده فى عمله فى فترة وجوده. فتكلمت مع زوجة موستاكى التى وافقت على العمل معه وساعدته. أمضيت مع احمد بضعة أيام وعرفت منه أخبار الأسرة.

وكان أحمد قد بدأ يضع قدمه على الطريق فى العمل.

قبل سفرى إلى الخارج التقيت بكمال عبد الحليم. وكان هو المسئول الحزبى للاتصال بى طوال تلك الفترة. وقال لى إننى يجب أن أكون المسئول فى الخارج وليس شريف، وذلك بسبب بعض السلبيات التى يراها فى شريف حتاتة. وعندما وصلت إلى الخارج لم أثر هذا الموضوع لعدة أسباب منها أن شريف كان قد سبقنى فى الحضور إلى باريس بأربعة شهور وتعرف عليها وعلى الناس هناك. وكان قد أقام الصلة بالحزب الشيوعى الفرنسى. وكانت معرفته بالانجليزية والفرنسية أحسن منى.

وكان أقدر مني على إقامة علاقات واتصالات وكانت طبيعته الأوروبية تجعله أكثر مني قدرة على التأقلم مع الوضع الجديد. وأحسست أن قدراتى وامكانياتى للعمل فى فرنسا أقل منه. وكان قد رتب حياته ورتب أصدقاءه. ولم يكن من السهل اقامة علاقة صداقة معه. وكان يعمل كثيرا ويفرج عن نفسه كثيرا وجرب العديد من الصداقات. وهو يكبرنى بثلاث سنوات. ويحسن اقامة علاقات تجذب اليه الفتيات.

***